

ATE

روبر الشیخ بنیامین در الجزایة الی بلیة معقده و ان اہلاد معقده

cic 3

2
54

65

1961 NOV 3

66

110

66



طهين

801
H96K1

892.709

Ha3924KA

خصام ونقد

دارالعلم للملادين
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى

بيروت ، حزيران ، ١٩٥٥

محنة الأدب

حياتنا الادبية فيما يظهر من امرها راكدة خامدة ما في ذلك شك ، فقد اصبحت الكتب القيمة نادرة يمر العام دون ان يظهر منها كتاب واحد فضلاً عن كتابين او ثلاثة كتب . والصحف اليومية والاسبوعية لا تكاد تحفل بالادب ؛ وقد تمر الاسبوع وقد تمرّ الشهور دون ان نقرأ في صحيفة يومية او اسبوعية فصلاً ادبياً ذا بال . والمجلات الشهرية تعنى بلون من الادب يسير لا يكلف كاتبه عناء طويلاً ولا يكلف قارئه جهداً ثقيلاً . ويُستحب فيما تنشر المجلات الشهرية من فصول هذا الادب ان تكون هذه الفصول قصاراً ، وان تكون لغتها بسيرة سهلة ، وان تكون موضوعاتها ايسر وأسهل من لغتها ، فنحن قوم مترفون لا نريد ان

نشق على انفسنا حين نكتب ، ولا نريد ان نشق على انفسنا حين
نقرأ ، واحب شيء اليانا ان نقرأ المقال ثم ننساه . والموضوع
الذي يحتاج كاتبه الى ان يدرس فيطيل الدرس ، ويبحث
فينعم البحث عسيراً على الكاتب والقاري جميعاً . وتخيّر
الالفاظ والتأنق فيها يكلف الكاتب والقاريء ما لا يحبان
ان يتكلفا . فقد دخل علينا السأم واصبحنا نؤثر ان نمر
بالاشياء مرّاً سريعاً . وكثيراً ما نقرأ لنقطع الوقت لا
لنغذو العقل والذوق والقلب . وكثيراً ما نقرأ لندعو
النوم لا لنذوده عن انفسنا . ورحم الله اياماً كنا نرى
الوقت فيها قصيراً سريع الحركة ، وكنا نتمنى لو زيد في
ساعات الليل والنهار نصفها او مثلها لنقرأ فنطيل القراءة ،
ولندرس فنحسن الدرس . ورحم الله اياماً كانت الصحف
اليومية والاسبوعية فيها تتنافس ايها يكون اشد عناية
بالادب واكثر تتبعاً للموضوعات التي يفرغ لها القراء في
آخر النهار واول الليل ، فيخلون اليها ويستمتعون بها ،
وينكرون منها ويعرفون ، ويكتبون الى الصحف بما ينكرون
وما يعرفون . ورحم الله اياماً كنا نشغل فيها بهذه
الكتب الكثيرة التي تعرض للادب والنقد ولفنون الحياة
على اختلافها فيشغل بها الكتاب ناقدين ومقرّظين . ويشد
الخلاف بينهم حول هذا الرأي او ذاك فتشترك صحف
كثيرة في درس موضوع واحد اثاره كاتب من الكتاب
فانكر عليه كاتب آخر بعض ما قال او كل ما قال ،

واسرع الى هذا الكتاب وذاك انصارهما فاختصموا واطالوا
الاختصاص ، وانتفع القراء والكتاب جميعاً بهذه الخصومات .
رحم الله تلك الايام ، فقد مضت ومضى عهدها حتى كأن
اصحابها قد مضوا معها وهم مع ذلك احياء يلقي بعضهم
بعضاً بين حين وحين ولكنهم لا يكتبون او لا يكادون
يكتبون ، ولا يختصمون في الادب والنقد وانما يختصمون في
السياسة والمنافع العاجلة .

رحم الله تلك الايام ، فقد مضت وانقضى عهدها وما
زال كثير من اصحابها احياء لا ينظرون اليها الا ملتفتين
الى وراء ، ولا ينظرون اليها الا لانها قد بنت لهم مجداً
وجعلتهم من قادة الرأي وإن تخلوا الان عن قيادة الرأي .
ولا اريد ان اعتقد ان حياتنا الادبية كانت تقوم
على هؤلاء الشيوخ وحدهم ، فويل لهؤلاء الشيوخ ان لم يكن
لهم من الشباب جيل يقفوا آثارهم ويريد ان يتفوق عليهم
وان ينتج من الادب الرفيع ما لم ينتجوا ، ويؤلف من
الكتب خيراً مما القوا وينشر من الفصول في الادب والنقد
اروع مما نشروا . لا اريد ان اعتقد ان ادب هؤلاء
الشيوخ كان جذباً عقيماً ، وانما اريد ان اعتقد انه كان
خصباً كل الخصب وان اجيالاً من الشباب قد انتفعت
به وازافت اليه ، ولكنني ابحت عن آثار هذه الاجيال فلا
اكاد اجد منها شيئاً .

أما اذا تعرض لون من اللون انتاجنا الزراعي او

الصناعي لآفة من الآفات فان حياتنا تضطرب اشد الاضطراب وصحفنا تقعد وتقوم وتلأ الدنيا ضجيجاً وعجيجاً ، لان آفة من الآفات توشك ان تأتي على القطن او لان علة من العلل الاقتصادية توشك ان تبور لها تجارة القطن . ولست اكره ان نهتم للقطن والقمح والشعير ولكني اجب ان نهتم للادب والعلم والفن بعض اهتمامنا للقطن والقمح والشعير ، وقد وجلت مصر حتى كاد الوجل يقض مضاجع ابنائها حين جاءها النذير بغارة الجراد ، ولكن مصر لم تحس وجلًا ولا فرقاً حين اجذبت الحياة الادبية ، ولعلها لم تشعر بهذا الجذب ، بل اكبر الظن انها لم تشعر به ولم تفطن له . وما يعنيه ان يجذب الادب او ينحصب ما دامت لا تخاف الجوع ولا تشفق من الظم :

ألا إلّا تكن إبلٌ فمعزى

كأن قرون جلته العصى

فتملاً بيتنا أقطاً وسمناً

وحسبك من غنى شبعٌ وري

عفا الله عن مصر ما اشد اهمالها للعقل والقلب والذوق وما اشد تقصيرها في ذات الادب والفن والعلم . ولست اكتب اليوم لاشكو إجداب القرائح وكرال الاذهان ، وانما اكتب لابعث عن اسباب هذا الاجداب وهذا الكلال . واريد ان اقف اليوم عند اسباب ثلاثة ما اشك في ان لها رابعاً وخامساً وسادساً ايضاً وما شئت

من الاعداد ، ولكنني لن اتحدث اليوم إلا عن هذه الاسباب الثلاثة راجياً ان يفكر فيها المثقفون وان يتجاوزوا التفكير الى العمل لعلمهم ان يجدوا منها مخرجاً . واول هذه الاسباب يأتي من ظروف السياسة . وما احب ان يغضب الرقيب الخاص او العام ولا ان تغضب الحكومة القائمة ، فلست اتحدث عنها هي وحدها ولا عن الظروف المحيطة بنا اليوم وغداً ، وانما اتحدث عما هو اعم من ذلك واشمل .

فقد اعلنت الاحكام العرفية في مصر حين اعلنت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ، ثم رفعت بعد ست سنين ، ولكنها لم تلبث ان اعيدت حين اعلنت حرب فلسطين ، ثم رفعت بعد ثلاث سنين ، ولكنها لم تلبث ان اظلتنا منذ شهور . فقد استمتعنا اذن بالحرية الكاملة ثلاث سنين اثناء ثلاثة عشر عاماً . ومن قبل الاحكام العرفية الاولى كانت انقلابات سياسية لم يكن خطرهما على حرية التفكير والتعبير اقل من خطر الاحكام العرفية بحيث نستطيع ان نقول غير مسرفين اننا حرمانا الحرية الحرة اكثر من خمس عشرة سنة في اقل من ربع قرن ، والحرية قوام الحياة الادبية الحسنة ، فاذا ذهبت اجذب الادب وعقم التفكير ما في ذلك شك . وقد قال نابوليون ذات يوم : « ليس لنا ادب جيد ، وتبعة ذلك على وزير الداخلية . » فقد احس نابوليون اذن ان رقابة وزير الداخلية على الكتاب قد ذهبت برونق

الادب واضطرته الى العقم والجذب . كان ذلك منذ
قرن ونصف قرن ، وما ارى ان حياة الناس قد تغيرت ،
وما ارى انها تتغير من هذه الناحية مهما تختلف العصور .
ذلك ان الادب في حياتنا الحديثة يعيش على الاذاعة
والنشر لا على إحسان المحسنين وعطف اصحاب الثراء
والسلطان على الادباء ، فالاديب يكتب ليقراه الناس والناس
لا يقرأونه الا اذا نشر كتابه أو مقاله ، والكتاب والمقال
لا ينشران حين يتحكم في نشرهما الرقيب ، والرقيب
يحظر على الناس ان ينشروا كتبهم وفصولهم حين تخوض
هذه الكتب والفصول فيما لا تحب الحكومة ان تخوض فيه .
واخص ما يمتاز به الادب انه حر بطبعه لا يقبل لحيته
قيداً ولو كان من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريم .
فما ينبغي اذن ان نلوم الكتاب من الشيوخ والشباب
لانهم لا يكتبون ، وانما ينبغي ان نحمد لهم ما انفقوا من
جهد واحتملوا من مشقة لينشروا هذا القليل الذي نتعلل
به على رغم ما احاط بهم من الظروف . ولقد كان كثير
الكتاب الفرنسيين في القرن السابع عشر وفي القرن الثامن
عشر ينشرون كتبهم في هولندا حتى لا يمنع السلطان
نشرها في باريس ، وكنا نظن ان هذا عهد قد انقضى ولكننا
رأينا كتباً مصرية تحظر في مصر فتنتشر في لبنان .
هذا اول الاسباب الثلاثة . اما السبب الثاني فيسأل عنه
الادباء الشيوخ انفسهم ويسأل عنه الناشرون معهم . ذلك

ان كثيراً من الشباب يكتبون ثم لا يعرفون كيف
يظهرون الناس على ما يكتبون : لا يجدون من شيوخ
الادب تشجيعاً ولا تأييداً ، ولا يجدون من الناشرين
اقبالاً على نشر ما يقدمون اليهم من الكتب لان الناشرين
لا ينفقون مالهم الا حين يعلمون انه سيعود عليهم ببعض
الربح ، فهم يؤثرون الكاتب المعروف على الكاتب الذي
لا يعرفه احد . وقد يتكلف الكاتب الشاب طبع كتابه
على نفقته الخاصة يحتمل في ذلك من الجهد والمشقة ما
يطيق وما لا يطيق ، ولكنه لا يجد لكتابته ناقدًا معروفًا
يقدمه الى الناس ليقرأوه ، ولا يجد صحيفة تنبيء الناس عن
كتابته الا اذا ادى ثمنًا لهذا النبا فيضيع عليه جهده العقلي
والفني ويضيع عليه ما انفق من مال ، وتقع في قلبه حسرة
ممضة لعلها ان تصرفه عن الادب والفن . فيقنع من الحياة
بالشعب والري ان اتيح له الشعب والري . وللجيل الناشئ
على الجيل الذي سبقه شيء من الحق ، فليفكر شيوخ الادباء
في ذلك وليحتملوا تبعاتهم ، وليعلموا انهم لا يرضون الادب
بما يكتبون فحسب وانما يرضونه حين يكتبون وحين
يكتبون الشباب من ان يكتبوا ويقرأهم الناس ويخلفوهم
على مكانتهم بعد وقت يقصر او يطول .

وليس السبب الثالث بأقل خطراً من السببين السابقين . ولعله
ان يكون اشد منهما امعاناً في الشر واساءة الى الادب .
ذلك هو ضعف التعليم الادبي في مصر . ففي مصر مدارس

ومعاهد وجامعات يدرس فيها الادب ولكنه يدرس على
نحو يحزن اكثر مما يسر . وليقل اساتذة الادب في مصر ما
يشاءون وليعلموا ضعف انتاجهم بما يشاءون ، فانتاجهم ضعيف
لا يشك في ذلك من عرف الذين يتخرجون في الجامعات .
وهل يصدقني اساتذة الجامعات ان قلت لهم اني عرفت
طلاباً ظفروا بأجازة اللسان من اقسام اللغة العربية
ولم يعرفوا كيف يبحثون في كتاب الاغاني لانهم لم
يسمعوا بفهرست الاغاني الذي وضعه جويدي ؟
فهم اذا ارادوا البحث في هذا الكتاب الضخم عن
شاعر او كاتب او وزير ضلوا بين صفحاته التي لا تكاد
تخصي ، وهم يستظهرون كلاماً يملى عليهم ويعيدونه في
الامتحان ، ويظفرون بالاجازات الدراسية وليس لهم من
فهم ما يقرأون حظ ذو خطر . واذا قصر الشاب عن
الفهم فهو اجدر أن يقصر عن الافهام . وكان ارسطاطاليس
يقول : يجب قبل كل شيء ان نتكلم اليونانية . واظن أن
احداً لا يجادلني في ان اول ما يجب على الكاتب المصري
انما هو ان يحسن العربية . واحسان العربية يفرض على
الكاتب الشاب والشيخ الا يذكر المؤنث ولا يؤنث
المذكر ، وان يحسن استعمال الافعال والحروف ، وان يضع
الالفاظ في مواضعها ويدل بها على معانيها ، فان فعل غير
ذلك فليس من الادب في شيء . واني ليحزنني ان اقول
ان كثيراً من كتابنا ومن كتاب يرون انفسهم كباراً

يتورطون من هذا كله في شر عظيم . ولو شئت لضربت
لذلك امثالاً يخجل لها اصحابها من الشيوخ والشباب جميعاً
ولكننا في شهر يحسن الا نسلط فيه الحجل على الناس .
ظروف سياسية اذن تحد حرية الاديب ، وظروف مالية
تحول بين الاديب الناشيء وبين القراء ، وظروف تعليمية
تحول بين الشباب وبين العلم باللغة التي هي المادة الاولى
للادب ، فكيف تريد بعد هذا كله ان تكون الحياة الادبية
المصرية خصبة مشرقة ؟ !

هذا باب افتحه للكتاب والباحثين ، وارجو ان يتعمقوه
وان يتعرفوا الى هذه الاسباب اسباباً اخرى ، وان نتعاون
جميعاً على حماية الحياة الادبية من آفاتنا وإبرائها من عللها ،
وعلى ان نرد الى الادب شبابه القارح فان الادب الذي
يفقد شبابه لا خير فيه .

مِرَاة الْفَرَسِيَّةِ



ذكرها الشاعر العربي القديم ذو الرمة في بيت من شعره اخشى ان ارويهِ فيراه القراء غريباً مسرفاً في الغرابة وان كنت لا ارى فيه من الغرابة شيئاً . (ولكن المثقفين في هذه الايام قد ألفوا اليسر وآثروا اللين والسهولة وقرب المأخذ في كل ما يقرأون ويكتبون . واكثرهم يقرأون الصحف الجادة والهازلة ، وهي تحدثهم بأيسر الالفاظ نطقاً واقربها معنى ، وقليل منهم يقرأون الكتب - وايّ كتب ؟ - الكتب التي تتحدث اليهم بلغة الصحف ولا تكاد تعنى بالتحريير ولا بالتخير ولا بالتجويد ولا بالابعاد في لفظ او معنى . قد ألفوا ذلك واحبوه واصبح من اعسر العسر تحويلهم عنه ، فكيف اذا

رويت لهم بيتاً من شعر ذلك الشاعر الذي عاش في القرن
الاول ومات في اوائل القرن الثاني للهجرة ، وكان مع
ذلك بدوي الحياة بدوي التفكير والتعبير . وهو يصف
في هذا البيت ناقته بأن لها خدّاً واضحاً ناصعاً سهلاً كأنه
مرآة الفتاة الغريبة قد امت بقوم لا يحفلون بها ولا يلتفتون
اليها ولا ينصحون لها في جمالها ورونقها ، فهي لا تعتمد
عليهم ولا تطمئن اليهم ولا تستشيرهم فيما تتخذ من زينة
او ما تكون عليه من هيئة ، وانما تعتمد على مرآتها فهي
تجלוها دائماً وتزِيل عنها كل ما يعلق بها من صدأ او غبار .
فمرآتها مجلوة ابدأ ناصعة ابدأ تزيها صورتها كأدق ما تكون ،
فهي مرآة صادقة ناصحة لا تُخفي على صاحبها شيئاً من
قبح او جمال وبما ينقّر العين او يدعوها .

وقرأونا والحمد لله حراس على السهولة واليسر ،
يكرهون التكلف ويشفقون من كل ما يُجهد او يكد ،
وهم جديرون ان يسألوني عن هذه المرأة البدوية الغريبة
ما خطبها وما شأنها ، واي صلة بينهم وبينها ، ومالي احدثهم
عنها ، واثقل عليهم بذكرها ، واستقصي لهم اخبارها ؟
ولكني قد عودت القراء ان اكون معهم عند ما احب
انا لا عند ما يحبون هم . ولست اكره لهم ان يتعبوا
شيئاً وان يفكروا قليلاً . فقد احب ان تشعر مصر في هذا
العالم الذي تعيش فيه وتقضي بين اهله من حياتها الحالدة
الخصبة هذه الايام الشداد بانها غريبة بين الامم لا ناصح لها

في امرها فهي خليقة الا تعتمد على ما يقال لها او يقال عنها في شرق الارض وغربها ، لان هذا العالم لا يحفل بها الا من حيث انها تستطيع ان تنفعه او تضره ، فهو لا يحفل بها لنفسها ، وهو من اجل ذلك ان قال لها الحق يوماً فقد يقول لها غير الحق اياماً ، فهي في حاجة الى ان تتخذ مرآة كهذه المرآة البدوية التي ذكرها ذلك الشاعر القديم ، وان تجلوها دائماً وتزيل عنها ما قد يصل اليها من صداً او غبار . وتنظر فيها حين تصبح وحين تمسي وتنظر فيها بين ذلك لتري نفسها وتري ما يختلف عليها من الاطوار ، فتصلح من امرها بالزيادة والنقص وبالتغيير والتبديل ، وبالتقويم والتعديل . واي شيء يمكن ان تكون هذه المرآة غير ما تنشر الصحف من احاديث ، وما يذيع المؤلفون من كتب ، وما يحدث من اصحاب الفن من آثار ؟ فهل تستطيع مصر في هذه الايام ان تقول ان بيدها هذه المرآة النقية الصافية الصادقة التي ترى فيها نفسها كما هي والتي تحدثها عن امرها كله بالحق الذي لا شك فيه ؟

احق ان الصحافة المصرية هي مرآة الغريبة التي تنظر فيها مصر حين يسفر الصبح وحين يقبل المساء ؟ هيهات تحول بينها وبين ذلك نوائب وخطوب ، فهي تصور من حياة مصر ظاهراً ولكنه ظاهر رقيق جداً لا عمق له وهو في الوقت نفسه كثيف جداً لا يكشف بما وراءه عن قليل او كثير . اما ان الصحافة تنقل اليها أنباء الشرق والغرب ، واما انها

تنقل إلينا انباء الحكم حين يغدون ويروحون وانباء ما
يصدرون من امر ويشرعون من قانون ، وانباء الساسة
والقادة حين يقيمون وحين يظعنون . فهذا حق . واما ان
هذا كله يظهرنا على حقائق انفسنا ودقائق ضمائرنا ويصور
لنا ما تدور به احاديثنا حين يلقي بعضنا بعضاً
وما يخطر لنا حين نقرأ ما يذاع فينا من الانباء وما
تضطرب به نفوسنا حين نفكر ، فهذا هو الذي اشك فيه
الشك كله . ما اكثر الصدا وما اكثف الغبار الذي
يغشى مرآة الصحافة . اني لاقرأ صحفاً كثيرة في اول
النهار وآخره وفي اول الاسبوع وآخره وفيما يكون بين
يوم الاحد ويوم السبت من ايام . فلا احس حياة مصر
ولا اجد روحها ولا حرارتها ، وانما هي عنوانات امرتها
سريعاً وموضوعات ألمتها الماماً قصيراً ثم اتجاوزها الى ما
وراءها ثم اتركها وافزع منها الى كتاب قديم او حديث
فأنسى فيه حياتنا الحاضرة ، وما احب ان انسها ، فهي خليفة
ان نقف عندها فنطيل الوقوف وان نفكر فيها فنطيل
التفكير ، وان نعتبر بأحداثها فنحسن الاعتبار .

وهل تستطيع مصر ان تقول إن ما يصدر ابناؤها في
هذه الايام من الكتب والاسفار هي هذه المرأة ، مرآة
الغريبة التي ذكرها الشاعر العربي القديم . هيهات ، اني
لا لتمس هذه الكتب والاسفار فلا اجدها ، واكاد اعتقد

ان المصريين المعاصرين من الشيوخ والشباب قد صُرفوا عن التأليف والكتابة صرفاً ، أترام شغلوا عن الكتابة والتأليف بأحداث الحياة وخطوبها فهم مشغولون بما ينوب ، معنيون بما يلم ، لا يكادون يفرغون لانفسهم ، ولا يكادون ، يخلون الى فئهم ؟ ام تراه قد صدئت نفوسهم كما صدئت المرأة التي ينظرون فيها فهم لا يجدون ما يكتبون كما انهم لا يجدون ما يقرأون ؟ ام تراه يلقون من المصاعب في نشر الكتب واذاعتها ما يصدهم عن الكتابة والتأليف ؟ ام تراه يكتبون ويؤلفون ولكنهم يدخرون ما يكتبون ويؤلفون وينتظرون به أياماً خيراً من هذه الايام يتاح فيها النشر وتتاح فيها القراءة ؟ لا ادري ولكني أستطيع ان أقول ان الكتب المصرية الحديثة التي يمكن ان نقف عندها وننظر فيها فنرى حياة مصر المعاصرة من قريب او من بعيد اقل من ان تحصى . والمطابع مع ذلك تعمل في الليل والنهار وتخرج كتباً كثيرة منها القديم الذي ينشر لأول مرة ، والقديم الذي يعاد نشره ، والحديث الذي يترجم عن هذه اللغة الاجنبية او تلك . فأما الذي يعرب عن النفس المصرية المعاصرة ويصور شعورها بالحياة وردتها على احداث الحياة ويصور آمالها وآلامها فهي اقل من ان تحصى . وهذا الاقل ضعيف لا شك في ضعفه فاتر لا شك في فتوره لا تكاد تقبل عليه حتى تنصرف عنه ، ولا تكاد تنظر فيه حتى تفزع منه الى كتاب قديم او حديث . واريده بالكتب

الحديثه هذه التي يحملها الينا البريد او تحملها الينا التجارة
من اوروبا وامريكا لا من مصر ولا من الشرق العربي .
مصر اذن غريبة في هذا العالم المعاصر ترى نفسها في
مرايا غريبة ليست صادقة ولا ناصحة ، فهي تعيش في نور
اشبه شيء بالظلمة لا تكاد تعرف من امر نفسها شيئاً . فأى
غرابه في أن تأتي من الاعمال ما لا يلائم منفعتها ولا
طبيعتها ولا مكانتها ولا ما ينبغي ان يكون للعالم فيها
من رأي ؟ واي غرابه في ان ترى الاشياء ، فلا تحسن
العلم بها ولا الحكم عليها ولا الرأي فيها ؟ صحافة تسيطر
عليها الظروف ولا تسيطر هي على الظروف ، بل لا
تكاد توجه نفسها فضلاً عن ان توجه قراءها . وقرائح مجذبه
أو مهـ قد حيل بينها وبين الانتاج وهي لا تعرف ما
يحول بينها وبين الانتاج . وشعب يصبح ويمسي فيقرأ
كلاماً لا يغزو عقلاً ولا قلباً ولا خيالاً ولا يجلو ذوقاً
ولا طبعاً ولا يرهف حساً ولا شعوراً ، وانما هو اشبه
شيء بهذا الكلام الذي شبهه ابو العلاء برحى تطحن
قروناً ، واذا طحنت الرحى قروناً فهيئات ان تنتج طحناً
يغني عن الجائع الذي يكاد يهلكه الجوع .

سيقول قائلون اني متشائم مسرف في التشاؤم ، وعلم
الله ما تشاءمت قط وما كنت الا متقائلاً . ولكني
رجعت الى الادب فأردت ان اقرأ فلم أر أمامي الا
كتب القدماء وكتب المحدثين من الامريكيين والاوروبيين

وأردت ان اقرأ كتباً مصرية فأعدت قراءة كتاب لاديب
معاصر نشر منذ سنين . و اردت ان اقرأ في المجلات
فأشفقت من اضاءة الوقت والتمست الروح والراحة والغذاء
عند قدماء العرب وعند الكتاب الاجانب . اردت ان
اعرف مصر المعاصرة . اردت ان اعرف نفسها التي تحس
وتشعر وتعقل وتفكر فلم اجد اليها سبيلاً . اني لاعلم كما
يعلم الناس جميعاً ان في مصر شعباً يضطرب في شؤون
الحياة وان له حكومة قائمة وعمالاً يدبرون مرافقه ، وان
له صحفاً تقرأ وجامعات ومدارس يختلف اليها الطلاب
والتلاميذ ، وبوشكون ان يهجروها لقرب الامتحانات ، وان
هذا الشعب يختلف عليه الليل والنهار كما تختلف عليه
الفصول وتحدث فيه الاحداث وتلم به الخطوب . اعرف
هذا كله كما يعرفه الناس جميعاً ، ولكني اريد عرف
الاثر الادبي والفني والعقلي لهذا كله في نفس هذا الشعب
فلا اجد الى معرفته سبيلاً .

ما اسعد الشعب الذي يملك مرآة الغريبة ، هذه المرآة
الصادقة الصافية التي ينظر فيها فيرى نفسه كما هي . يراها
ثابتة ويراها متجددة . يرى شخصيته الخالدة ويرى ما
يختلف عليها من الصور والاشكال . لقد كنت اعيب
على ادبائنا منذ اكثر من عشرين سنة انهم يطيلون النظر
الى نفوسهم في المرآة فيتحدثون عنها ويكثرون الحديث .
فاصبحت الآن لا استطيع ان اعيب عليهم حتى نظرهم في

مرآتهم الخاصة .

انهم لا ينظرون في ادبهم ولا يتحدثون عنه كأنهم قد
هجروه هجراً غير جميل . واذا لم ينظر الادباء في
مرآة انفسهم ولم ينظروا في مرآة وطنهم ولم يصنعوا
لوطنهم هذه المرآة ، فماذا يصنعون ؟

ما اشقى الشعب الذي ليست له هذه المرآة ، مرآة
الغريبة التي ذكرها ذلك الشاعر العربي القديم لا شيء الا
لان ادباءه قد قنعوا من العيش بانهم يعيشون !

مِنْ مَكَلَاتِ أَدَبِنَا الْحَرَبِ



الادباء قلقون ما في ذلك شك ، لا يكاد احدهم يلقي صاحبه حتى يتحدث اليه بما يجد في نفسه من هذا الاشفاق الذي كان غامضاً اول الامر ، ثم اخذ يظهر شيئاً فشيئاً حتى اصبح واضحاً كل الوضوح ، وانتهى بأصحابه الى شيء من التشاؤم ، كان العهد قد بعد به حيناً من الدهر . فكثير من الادباء لا يجدون الوسيلة الى الاعراب عن ذات انفسهم ، يخاطر لهم الحاطر فيملأ عليهم نفوسهم ، ويستغرق تفكيرهم ، ويثير فيهم الشوق الى الكتابة ، ثم يدفعهم الى الكتابة دفعاً ، فيكتبون .

والاديب حين يكتب مخدوع عن نفسه دائماً ، يزعم انه لا يحفل بالناس ولا يفكر فيهم ، ولا يكتب الا

ليرضي قلبه وعقله وذوقه ، وطبعه الذي لا يستطيع ان
يُمتنع على الانتاج حين يدعى اليه ، وهو يخيل الى نفسه
ان الادب نفحات طبيعية تصدر عن اصحابها لانها لا بد
لها من الصدور ، كما ان الضوء يصدر عن الشمس لانها لا
تملك الا ان تضيء ، وكما ان العبير يصدر عن الزهرة
لانها لا تملك الا ان تنشر العبير . ولا على الشمس ولا
على الزهرة ان لا يُنتفع بما تنشران من ضوء او شذى .
كذلك يخدع الاديب نفسه ويخيل اليها .. ولكنه لا
يكاد يكتب ، بل لا يكاد يأخذ في الكتابة حتى يحس
الحاجة الملحة الى ان يقرأ الناس ما يكتب . فمن طبيعة
نفسه ان يكتب ومن طبيعة نفسه ان يتصل بالناس ،
ليقرأوه ويشاركوه في الحس والذوق والشعور .
كلا الأمرين طبيعة فيه . يشغله فنه اول الامر عن
غيره من الناس والاشياء ، فاذا أتمه لم يسترح حتى يُظهر
الناس عليه وحتى يستمتعوا به او يزوروا عنه وينكروه .
والاديب ليس محتاجاً الى ان يرضى الناس عنه فحسب ،
ولكنه محتاج الى ان يرضوا عنه ويسخطوا عليه ، والى
ان يعرفوا من أدبه وينكروا ، والى ان يثنوا عليه
وينقدوه . هو في حاجة الى ان يتصل بالناس لانه يكتب
لهم كما انه يكتب لنفسه . واتصاله بالناس هذا قد اصبح
مشكلة معضلة لا يكاد يجد لها حلاً ، ولا يكاد يعرف لها
شبيهاً في تاريخ الادب على طوله واختلاف بيئاته وعصوره .

فقد كان هذا الاتصال فيما مضى من الزمان ميسراً الى حد بعيد . لم يكن على الاديب الا ان ينشيء ادبه ثم يدفعه الى احد النساخ يذيعه مخطوطاً بتلك الوسائل الضئيلة البطيئة التي كانت تتاح للناس قبل ان تنشأ المطبعة وتحدث ما احدثت من اليسر والعسر جميعاً .

فاما الآن فليس من سبيل الى ان يكتفي الاديب بهذه الوسيلة .. بل ليس من سبيل الى ان يفكر فيها ، فالناس لا يقرأون الكتب المخطوطة الا ان يكونوا من العلماء الذين وقفوا انفسهم وجهودهم على ان يحيا التراث القديم بالدرس والبحث والتحقيق ، والطبع والنشر آخر الامر .

فليس بد للاديب اذن من ان يثب الى هذا اليسر العسير الذي نسميه الآن الطبع والنشر . هو يُسرٌ حين يتاح للاديب ان يجد من يطبع وينشر ، وهو العسر كل العسر ، والشقاء كل الشقاء ، حين لا يتاح الطبع والنشر للاديب .

وقد اقتضى يسر الطبع والنشر ان تنشأ المجلات الخاصة ، ينشر فيها الادباء ما يكتبون من هذه الآثار الفنية القصار التي اصبحت لوناً من ألوان الادب الحديث . واقتضى يُسر الطبع والنشر ان تنشأ الصحف السيارة وان تتنافس فيما بينها وان تتخذ الادب وسيلة من وسائل هذا التنافس .. فعمد اليها الادباء ينشرون فيها آثارهم هذه

القصار ، ومضت امور الادب على هذا النحو مسحة مياسرة ، ولكن الامور تتعقد فجأة ، فاذا الطبع والنشر يحتاجان الى المال .. والى المال الذي ينفق في كثير من التقدير والاحتياط . والمال يدعو المال ، فمنفقته محتاج الى ان يسترده راجحاً فيه ، وهو من اجل ذلك محتاج الى رضى الذين ينتفعون بانفاقه ليستزيدوا منه ، فيكون ادعى للربح واسرع الى الغنى . فليس بد من تملق المستغلين والتماس ما يرضيهم ويلائم حاجتهم ومنافعهم ، واذا احتاج الاديب الى ان يكون وسيلة لربح الطابع والناشر ووسيلة بعد ذلك او قبل ذلك لاقامة الاود وارضاء الحاجة اليومية الى القوت ، فقد تعرض الادب الى محنته الكبرى ، وهي المحنة التي يشقى بها الادباء عندنا في هذه الايام .

وكان الادباء فيما مضى من الزمان يتخذون الادب فناً اي يتخذونه غاية لا وسيلة ... ينتجون لان طبائعهم تضطربهم الى الانتاج . ولأنهم لا يملكون الا ان ينتجوا ولم يكونوا يعتمدون على الفن ليعيشوا . وانما كانوا يتخذون الى العيش وسائل اخرى قلما تتصل بالادب من قريب او بعيد . كان منهم الذين يعملون بايديهم ، وكان منهم الذين يتصرفون في التجارة ، كانوا على كل حال يضطربون في شؤون الحياة كما يضطرب فيها غيرهم من الناس . وربما وجد الاديب او صاحب الفن من الملوك والامراء واصحاب الثراء من يريهم من هذا العناء ،

يفرغون للادب ويشترون رضى هؤلاء السادة بما يهدون اليهم من الوان المدح والثناء . منهم من يختص هؤلاء السادة بايسر ما عنده فيبيعهم الثناء بالمال ، ويؤثر نفسه بخير ما عنده كما كان المتنبي يصنع في كثير من الاحيان ، فيهدي اكثر ممدوحيه غناء شعره ، ويختص نفسه بالغناء الرائع يصور فيه حزنه والمه وفخره ورضاه وسخطه وما شاء الله من الوان العواطف والشعور . ومنهم من ينفق اكثر ما عنده في ارضاء سادته اولئك . فيصبح اكثر ادبه ثناء ومدحاً يجود فيه ما وسعه التجويد ويقصر فيه عن الغاية حين يضطر الى التقصير .

ولكن عصر هؤلاء الملوك والامراء والسادة قد انقضى الى غير رجعة ، واصبح الادب مضطراً الى ان يعتمد على نفسه لينشر اولاً ، ويقدر بعد ذلك ويقوت اصحابه في كثير من الاحيان اذا لم يضطربوا في الحياة كما كان يضطرب فيها كثير من اسلافهم ، وكما يضطرب فيها غيرهم من الناس .

وكان الادب فخوراً بهذا الاستقلال الذي اتيح له وبانه قد استطاع ان ينصرف عن هذا الثناء الذي تنطق به الالسنه ولا تعتقده القلوب ... ولكنه ينظر الآن فيرى ان له ملوكاً وسادة من طراز جديد ، وانه مضطر الى ارضاء هؤلاء الملوك والسادة ان اراد ان ينشر ويقدر ويقوت الادباء . وهؤلاء الملوك والسادة هم القراء الذين

يجب ان يشتروا ليرضى الناشر والطابع ويقبلا على النشر والطبع . فاذا لم يشتروا او لم يشتروا إلا قليلاً ، اعرض الناشر والطابع عن الادب الى اشياء اخرى اجدى عليهما وانفع لهما ... ونظر الاديب فاذا ادبه بضاعة باثرة لا سبيل الى ان تصل الى ايدي الناس ، فضلاً عن ان تصل الى قلوبهم واذواقهم وعقولهم .

والملوك الجدد اصعب مراساً واعسر ارضاء من الملوك القدماء . فقد كان الملك فرداً يجب طائفة من الشعراء او يستأثر بشاعر واحد ، وكان من اليسير ان يعرف الادباء ما يرضيه وما يسخطه ، وان يتوخوا مواضع الرضى ويتجنبوا مواضع السخط ... فاما الآن فهؤلاء الملوك لا يحصون لانهم شعوب ، وليس من اليسير ان يتبين الادباء ما يسوءهم وما يسرهم ، وما يرضيهم وما يسخطهم . وقد كان توخي ارضاء الملوك في العصور القديمة مفسداً للادب . وارضاء الجماهير في العصور الحديثة أشد له افساداً .

والاديب لا يكره شيئاً كما يكره تملق القراء وتوخي رضاهم . وفي الادب كثير من الاعتزاز بالنفس والثقة بالفن والايان بالجمال . وهو يرى نفسه غاية لا وسيلة ، وهو يجب ان يرقى اليه قراءه حيث هو ، ولا يجب ان ينزل اليهم حيث هم ، وليس معنى هذا انه يستعلي عليهم او يزدريهم او يزور عنهم ، وانما معناه انه يهبط اليهم فيشتق منهم مادته ويحني منهم حلوقهم ومرهم ، ويستخلص منهم صفوهم

و كدرهم ... ثم يعود الى نفسه فيخلو اليها ويستخرج
نتيجة هذا كله راتقة صفواً يعرضها على الناس في الصورة
التي يحبها هو ، لا في الصورة التي يحبونها هم .

فهو يعاشرهم ويخالطهم ويمازج حياتهم بمازجة دقيقة
كل الدقة ، خفية كل الحفاء ، عميقة كل العمق ، ثم ينفصل
عنهم فيعود الى قمته تلك التي يستحبها ولا يستطيع ان
يسوغ نفسه الا فيها ... ثم يعود اليهم بعد ذلك صورة
راتقة شائقة يذوقها منهم من تها لذوقها ، ويسيفها منهم
من أعد نفسه لاساعتها .

ونتيجة هذا كله ان الادب الصحيح متصل بالناس
اشد الاتصال ، منفصل عنهم اشد الانفصال ... يشتق
نفسه من انفسهم اشتقاقاً ، ثم يعود اليهم بعد تكوينه
خلقاً جديداً يجب ان يتهاوا لقبوله ويعدوا انفسهم للرضى
عنه او السخط عليه .

وكذلك يجد الادب نفسه في هذا الوطن الغريب :
هو من الناس لانه ذوب نفوسهم وخلاصة حياتهم ، وليس
هو من الناس لانه روح الاديب الذي انتجه ، وصورة
عقله وقلبه وعصارة طبعه وذوقه . فهو دان ناء وهو قريب
بعيد . وهو من اجل ذلك لا يحفل ولا ينبغي ان يحفل
برضى الناس عنه او سخطهم عليه ، وانما شأنه ككشأن ابي
العلاء حين يقول :

وخذ رأي وحسبك ذاك مني على ما في من عوج وأمت
 وماذا يبتغي الجلوس عندي ارادوا منطقي وارادت صمتي
 ويوجد بيننا أمد قصي فأموا سمتهم وأمت سمتي
 واذن فالادب في حاجة الى ان يستقل ، والى ان
 يكون حراً لا يتملق ولا يترضى ولا يسعى الى الناس وإنما
 يسعى الناس اليه . والادب بعد هذا كله ، ومن اجل هذا كله ،
 في حاجة الى ان يستأن ويتهمل ويظهر حين يريد ان
 يظهر لا حين يريده الناس على الظهور . والادب لا يبغيض
 شيئاً كما يبغيض العجلة . ولا يفسده شيء كما يفسده الاسراع ...
 هو متمهل حين يبحث ويستقصي ، وحين يشتق مادته ويستخلص
 معانيه ، وهو متمهل مستأن حين يؤلف ما جمع وما
 استخلص ، ويلائم بين اجزائه . وهو متمهل مستأن حين
 يصوغ هذا كله . ويضفي عليه الصورة التي يجب ان يضيفها
 عليه ، وهو يجب ان يعيد النظر الى نفسه مرة ومرة ومرات .
 وهو يريد أن ينظر الى نفسه في المرأة ، فيصلح هنا ويغير
 هناك ، ويزيد في موضع ، وينقص في موضع آخر .
 ويحاول ان يرضى عن نفسه قبل ان يظهر للناس . وليس
 شيء اشق عليه من ان يرضى عن نفسه لانه عسير لا يجب
 المياسرة ولانه ينظر دائماً الى مثل رفيعة ، بعيدة المنال لا
 يكاد يدنو منها حتى تنأى عنه . ولا يكاد يبلغها حتى
 تفوته .

ولأمر ما قيل ان بعض شعرائنا الجاهليين كانوا ينشئون القصيدة ثم يعرضونها على انفسهم ثم يطيلون النظر فيها والاصلاح لها ، لا يُظهرونها للناس الا بعد ان يفرغوا لها حولاً كاملاً ... ولأمر ما قيل ان شاعراً فرنسياً معاصراً انشأ قصيدة من قصائده ثم فرغ لتنقيحها وتهذيبها وقتاً طويلاً ، حتى اختطفها منه بعض اصحابه اختطافاً فاذاها في الناس .. ولولا ذلك لما اخرجها اليهم ، وقد وُجد عنده بعد وفاته مئات من نسخ التجارب لهذه القصيدة .

والادباء يختلفون بطاً وسرعةً في انتاج ما ينتجون ، ولكن البطء والاناة والتحفّظ والتسهل هي الحُصَال الاساسية للاديب الجدير بهذا الاسم .

فليس الادب اذن من هذه البضائع التي تستجيب في يسر لما تحتاج اليه التجارة من السرعة والانتظام . وهو من اجل ذلك لا يستطيع ان يتوخى ارضاء الذين يستهلكونه ، وهو من اجل ذلك معرض بطبعه للكساد ، إلا ان يكثر اكفاؤه من القراء وان يجدوا الحاجة الملجئة والشعور الملح والضرورة التي تدفعهم الى القراءة دفعاً .. هنالك يستطيع الادب ان يجد في نفسه ما يحتاج اليه من العزة ، وان يجد من نفسه الاستجابة الى ما ينبغي له من الاناة والتسهل ليتمكن من التجويد والاتقان .

من اجل هذا كله نفهم في غير مشقة هذا القلق الشائع بين الادباء والذي يشغلهم عن الانتاج ، ويضطرهم الى

كثير من التساؤل ، ويورطهم في كثير من الحيرة .
فالحياة الحديثة تفرض عليهم كثيراً من المشكلات ،
وتثير في نفوسهم الواناً من العواطف وضروباً من
الشعور . وهم يجدون الحاجة الى ان يصوروا ما يحسون
وما يشعرون .

وقديماً عرضت الحياة الخاصة والعامة على الادباء الوان
العواطف وضروب الشعور ووجدوا الحاجة الى الانشاء
فانشأوا ، والى الغناء فغنوا ، والى اعلان الرضى والسخط
والاكتئاب والابتهاج فاعلنوا من ذلك كله ما ارادوا .
لم يكونوا في حاجة الى اكثر من ان يطلقوا سنتهم
واصواتهم بالغناء فيسمع لهم الناس ، قبل ان تشيع
القراءة ، ثم لم يكونوا في حاجة الا الى ان يعمدوا الى
القلم والقرطاس ليكتبوا فيقرأ الناس بعد ان شاعت
الكتابة والقراءة . فاما الآن فهم يستطيعون ان يطلقوا
السنتهم واصواتهم فلن يسمع لهم احد غير انفسهم ، وهم
يستطيعون ان يعمدوا الى القلم والقرطاس وان يكتبوا ما
يجبون فلن يقرأ لهم غير انفسهم وغير ذوي خاصتهم من
الصدق . هم مضطرون الى ان يلجأوا الى المطبعة والى
الناشرين . وما اكثر المطابع وما اكثر الناشرين ، ولكن
الوصول الى تلك والى هؤلاء دونه احوال لا تقل مشقة
وخطراً عن تلك الاهوال التي ذكرها ابو العلاء في بيته
المشهور :

فيا دارها بالحزن إن مزارها

قريب ولكن دون ذلك احوال

وقد يخدع الناشر عن نفسه فينشر ما يقدم اليه الاديب ثم يلتمس له القراء فلا يجد اليهم سبيلاً ، إما لانهم لا يحبون ان يقرأوا . وإما لانهم لا يستطيعون ان يشتروا ما يعرض عليهم ، وإما لانهم يجهلون ما ينشر بين حين وحين ، لان الناشر لا يملك وسائل الاعلان او لا يريد ان ينفق ما ينبغي من المال ليتاح له الاعلان .

واذا نشر الكتاب ثم لم يقرأ شقي به الاديب الذي انفق جهده ووقته وحرص على ان ينفع الناس فحيل بينه وبين ما اراد ، وشقي به الناشر الذي انفق في نشره المال وعقد به الامل فضاع عليه ما انفق وذهبت آماله مع الريح وكره ان يلدغ من جحر مرتين .

وكانت القراءة والكتابة فيما مضى من الزمان كما كان الادب والعلم والثقافة ، وقفاً على قلة من الناس هم الذين يعنون بذلك ويفرغون له او يمنحونه اجزاء من اوقاتهم تقصر او تطول . فكان من اليسير على الاديب ان يبلغ طبقة القراء في غير مشقة ولا عسر ، وانما هم نساخ يكتبون ووراقون يبيعون ، فاما الان فقد كثر الكتاب والقراء وازدادوا كثرة من يوم الى يوم . وشاع الادب والثقافة والعلم وازداد شيوعاً من عام الى عام . واصبح الوصول الى طبقات القراء والمثقفين على اختلاف حظوظهم من القراءة

والثقافة ، شاقاً عسيراً يحتاج من الوسائل والاداة الى ما لا يتاح الا بعد الجهد والتكلف .

اضف الى كل هذا ان الحياة الحديثة تتعقد من يوم الى يوم وتشغل الانسان عن نفسه اكثر وقته ، فهو في حاجة الى العمل وجهّ النهار ، وهو في حاجة الى الراحة بعد العمل . فاذا اخذ قسطه من الراحة ، فما اكثر ما يدعوه الى اللهو ويحبب اليه الفراغ . فهذه الاندية التي يلقي فيها الناس ليقول لهم ويسمع منهم ، وهذه القهوات العامة التي يجلس فيها ليرى الذاهبين والجائين ويلقي كلمة هنا ويسمع كلمة من هناك ، وهذه الدور التي تدعوه الى السينما او الى التمثيل او الى ماشئت من الوان العبث .. كل ذلك يستغرق من وقته آخر النهار وصدراً ممتداً من الليل . فاذا عاد الى داره وثابت اليه نفسه كانت حاجته الى الراحة اشد من حاجته الى القراءة . فان وجد من نفسه نشاطاً للقراءة ، فانما هو النشاط للقراءة البسيرة التي لا تشق ولا تجهد ولا تحتاج الى روية وتفكير .

والادب يكره اليسر في الانتاج وهو يكره اليسر في الاستهلاك ايضاً . وهو يريد من الاديب ان يستأني في الانشاء ويريد من القارئ ان يتأني في القراءة ، فهو جهد مشترك يجب ان يحمل عبئه المنتج والمستهلك جميعاً . فاذا اتاحت للرجل المثقف وسائل القراءة البسيرة او الثقافة السهلة بعد ما بذل من الجهد والعناء طول النهار وصدراً

من الليل ، أحبّ ذلك ومال اليه . وما هي إلا ان يمد يده ويمس بعض الازرار فاذا الراديو يغرقه بفنون من الجذ والهزل والموسيقى والغناء ، وما هي إلا ان يمد يده الى صحيفة من هذه الصحف الكثيرة التي تعينه في رفق وتسلية على انتظار النوم او تدعو اليه النوم ، فيستجيب لدعائها في سرع سريع .

فأين يقع الكتاب المتقن الممتع الذي بذل فيه منتجه ما بذل من الجهد واحتمل في تأليفه ما احتمل من الغناء ، وأرق فيه ليله وانفق فيه صفوة نهاره ؟ اين يقع هذا الكتاب من كل هذا اليسر المريح ، ومن كل هذا الاغراء الذي يصعب الامتناع عليه ؟ هذه بعض المشكلات التي يشقى بها الادب في هذه الايام ، وهي ليست مقصورة على مصر ولا على البلاد العربية ولكنها شائعة في اقطار الارض كلها . غير انها في مصر وفي البلاد العربية ، أشدّ شدة وأعنف عنفاً . فالقراء في شرقنا العربي ، على كثرتهم الان ، مازالوا قلة قليلة بالقياس الى شعوب هذا الشرق ، والمتقنون منهم ثقافة تهيئهم لقراءة الادب الصحيح والانتفاع به والاستمتاع بروعته وجماله أقلّ من القليل كما يقال . فأنيّ غرابة في ان يتردّد الناشرون مخافة ان يتعرض ما لهم وجهدهم للضياع ؟ وأي غرابة في ان يسوء ظنّ الاديب بالاديب ؟ فاذا كان الامر كذلك في بلاد الغرب على كثرة قرائها وشيوع الثقافة العميقة بينهم ، فأجدر

ان تكون الشكوى في بلادنا اشدّ لذةً وامضّ وقعاً
منها في تلك البلاد .

والامر لا يقف عند هذا الحد من الصعوبة والعسر .
فقد اختلطت القيم وتشابهت ، وعميت حقائقها على الناس في
هذه الايام . وكان حظنا من هذا الاختلاط اعظم من
حظ بلاد الغرب لقلة الثقافة العميقة المتينة بين قرائنا .
فكثر بيننا اولئك الذين يطلقون الاحكام اطلاقاً ويرسلونها
ارسالاً لا يتعمقون ولا يتدبرون ، لان وسائل التعمق
والتدبر تعوزهم فهم يحتاجون الى علم بحقائق الاشياء اكثر
مما اتيح لهم ان يعلموا ليروا ويفكروا ويستقصوا قبل ان
يطلقوا ما يطلقون من الاحكام وقبل ان يرسلوا ما يرسلون
من الاحاديث .

فمنهم من يرى ان الادب عندنا قد ضعف وتهاافت لانه
قديم قد بعد عليه العهد ، ولأن اصحابه الذين ينتجونـه
يعيشون في عصور جديدة بالقياس اليهم ، لم يألفوها ، وهي لا
تلائم طبائعهم ، فهم غرباء في هذه العصور قد طالت عليهم
اعمارهم وآن لهم ان يمتوا انفسهم قبل أن يدر كهـم الموت ،
فيأخذوا انفسهم بالصمت ويصدوها عن الانتاج الذي لا
يلائم البيئة الجديدة التي لا تألفهم ولا يألفونها . ولا يقول
هؤلاء الناس لانفسهم ان هؤلاء الادباء هم الذين انشأوا
البيئة الجديدة حين احدثوا ما احدثوا في الادب من تطور
عميق واسع بعيد المدى . فهم ليسو غرباء عن هذه البيئة

لأنها يبتثهم التي صنعوها بأيديهم وارادوها لانفسهم ولابنائهم ،
وانما تعقدت امور الحياة في هذه البلاد كما تعقدت في غيرها
من اقطار الارض ، فصعب الاتصال بين الادب وعامة
الناس لكثرة ما طرأ من وسائل التيسير على الناس فيما
يقرأون ويسمعون وفيما يثقفون به انفسهم من طريق النظر
والسمع والقراءة اليسيرة الخاطفة الرخيصة التي لا تكلف
الناس من الجهد العقلي ومن فراغ البال ما تكلفهم قراءة
الادب الرفيع . ومنهم من يقول ان الناس جميعاً في
حاجة الى ان يقرأوا ويفهموا ويدوقوا ويستمتعوا بالجمال
الادبي ، فيجب ان يكون الادب قريب التناول يستطيع
كل انسان ان يذوقه ويستمتع به ، وليس كل الناس قد تعمق
اللغة وعرف من اسرارها ودقائقها ما يمكنه من اساعة هذا
الادب الذي يحتفظ بجمال الصورة ورونق الاسلوب ،
ويحرص على ان يتخير المعاني الكريمة ويؤديها بالالفاظ
العذبة الرائعة التي يحسن وقعها في السمع وموضعها في
القلب .

فينبغي ان يكون الادب شعبياً يفهمه ذو الثقافة
الممتازة وذو الثقافة المتوسطة وذو الثقافة الضئيلة ولا ينسون
إلا شيئاً واحداً هو ان الادب فن رفيع . والفن الرفيع
لا ينزل ، وانما يرقى اليه طلابه ومحبيه . وليس الادباء
مكلفين ان يعلموا الناس ويبلغوا بهم من التعليم والثقافة
الى حيث يستطيعون ان يذوقوا الآداب الرفيعة والفنون

الجميلة . وإنما يطلب ذلك الى الذين يقومون على شؤون التربية وامور التعليم . وكل ما يُطلب الى الاديب الا يكون ادبه ممعناً في الغرابة متعمداً للغموض ، والا يؤدي في الفاظ واساليب لا تعيش في هذه الايام ، وانما كانت تعيش في العصور القديمة البعيدة العهد . فلا ينبغي لمن يكتب الآن ان يتكلف مذهب ابن المقفع ، أو طريق الجاحظ أو اسلوب الحريري والبديع الهمداني ، ولا ينبغي له ان يرهق الناس من امرهم عسراً فيفرض عليهم الرجوع الى المعاجم في كل سطر .

فالجمل لا يكون في غرابة اللفظ وخشونته ، ولا في خفاء المعنى وغموضه ، ولا في التواء الاسلوب وتعقده ، وانما الجمال شيء آخر يناقض هذه الحُصَال كل المناقضة ويخالفها أشد الخلاف . ولا على الاديب اذا ادى ادبه في هذه اللغة اليسيرة في غير ابتذال ، السهولة في غير اسفاف ، الرصينة في غير اغراب .. لا على الاديب الا يفهمه الذين لم تكمل ادابهم من المعرفة ، ولم يعظم حظهم من الثقافة ، وانما على هؤلاء ان يكملوا معرفتهم ويعظموا حظوظهم من الثقافة . شأنهم في ذلك شأن ذلك الذي قال لابي تمام ذات يوم : لم لا تقول ما يُفهم ؟ فاجابه ابو تمام : ولم لا تفهم ما يقال ؟

ولا تعاب الصورة الرائعة لان غير المبصرين لا يرونها ، ولا تعاب الموسيقى الممتازة لان الذين فقدوا السمع لا

يسمعونها . فكيف بالذين يتعمدون الا ينظروا ويتعمدون
الا يصغوا ، ويريدون ان يلقي جمال الفن في اذواقهم
وقلوبهم القاء دون ان يتكلفوا الاستمتاع به ؟
ويزعمون ان ادب الثورة لم يوجد بعد مع ان الثورة قد شبت
منذ اكثر من عام ، كأنّ الادب شيء يكفي ان يقال له
كن فيكون . او ان يقال له تغير فيتغير بعد يوم وليلة .
انما تغير الثورة اول ما تغير نظم الحكم واوضاع الحياة
العامّة ، وما يحتمل التغيير من الصلات الاجتماعية والسياسية
والاقتصادية بين الناس . فاما الطبائع والنفوس والاذواق
والعقول فيحتاج تغييرها الى وقت طويل جداً لا يحصى
بالعام وبعض العام ، وانما يحصى بالاعوام الطويلة المتتابعة .
والذين يقولون هذا الكلام ينسون او يجهلون ان الادب
يمهد للثورة وينشئها ويشبّ جذوتها في النفوس بما يلقي في
قلوب الناس من الاراء الجديدة ، وبما يصور لعقولهم من
القيم المستحدثة ، وحين ينقل اذواقهم من طور الى طور ،
وحين يبعث اليهم القديم من اوضاعهم الاجتماعية ويدفعهم
الى تغيير هذه الاوضاع . فاذا شبت الثورة كان شبوها
دليلاً على ان الادب قد ادرك النجح وظفر ببعض غاياته .
ثم تعمل الثورة بعد ذلك في الادب عملاً بطيئاً مستأنياً
متصلاً ، فتغيره بعد حين يقصر او يطول . ويكفي ان
تذكر ان الاسلام لم يغير الشعر العربي الجاهلي تغييراً
خطيراً الا بعد ظهوره بنصف قرن ، وان الثورة العباسية

كانت نتيجة الادب الاموي ولم تنشيء ادبها العباسي
الحاصل الا بعد اكثر من نصف قرن .

وقل مثل ذلك في الثورة الفرنسية .. مهد لها ادب
القرن الثامن عشر ، ولم تنشيء ادبها الا في اواسط القرن
التاسع عشر . وقل مثل ذلك فيما شئت من الثورات ،
فالذين كانوا ينتظرون ان يصبحوا في الخامس والعشرين
من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ وبين ايديهم ادب جديد يلائم
الثورة ويطابقها يخطئون اسد الخطأ وأشنعهُ . وحسبُ
الادب ان ينظر فاذا الثورة تلائمه كل الملاءمة وتطابق ما
كان يصور للناس من المثل العليا في الحياة العامة على
اختلاف فروعها . انما الادباء قوم يحملون ، والثورة تعبير
وتفسير لاحلامهم . وستبعث الثورة في نفوس الادباء احلاماً
اخرى اجمل من احلامهم الاولى ، وستعبّر بها الثورة وتفسرها
بما تحدث من تطور وما تبدع من نظام .

كذلك تمضي حياة الناس ، لا سبيل الى تغيير اسلوبها
ولا الى تغيير ما رسمت الطبيعة لها من طريق . فالذين
يذكرون قدم الادب وغرابته في البيئة الحديثة ، والذين
يذكرون صعوبة الادب وارتفاعه على الطبقات القارئة ،
والذين يعيبون الادب بأن الثورة لم تنشئه ، انما يقولون
بغير تدبر ویرسلون احكامهم في غير روية ولا اناة ولا
تعمق لحقائق الاشياء . وحقائق الاشياء تدل في غير غموض
ولا التباس على ان الحياة الانسانية الحديثة قد اثارت

للادب الانساني كله على اختلاف مواطنه وبيئته مشكلات كثيرة صورنا بعضها آنفاً وما يزال بعضها الآخر في حاجة الى التصوير . والادب يشقى بهذه المشكلات في كل مكان ويلتمس لها الحلول . ونشعر نحن بهذه المشكلات اكثر مما يشعر بها غيرنا من الاوروبيين والامريكيين لان أدبنا الحديث ما زال في شبابه ، وقد طرأت له هذه المشكلات قبل ان يمكن له في الارض ، ولان قراءنا قلة ، ولان المثقفين بين هؤلاء القراء اقل من هذه القلة جداً ، ولان مصاعب الطبع والنشر ومشكلات السينما والراديو وما يشبههما من الملهيات والمغريات ايسر من الادب تحصيلاً وأقرب منه منالاً .

فلا تقل ان الادب الحديث ضعيف ، ولا تقل إنه غريب قد نبت به الدار . ولا تقل انه غير ملائم لطبيعة الذين يقرأونه .. ولكن قل انه ممتحن بطائفة من المشكلات اكثرها مشترك بينه وبين الاداب الاخرى ، وبعضها الاخر عارض لا يلبث ان يزول حين تصلح الحياة الاقتصادية وينشر التعليم وتصل المعرفة والثقافة الى اعماق الشعب .

اذا قلت هذا لم تعد الحق ولم تتجاوز الصواب .

الأدبُ والحياة

•

أريد أن اعتذر إلى أصحاب الجدة من قرائنا وهم
والحمد لله ما زالوا كثيرين ، وإنما اعتذر إليهم من أني
سأبدأ هذا الحديث بأشياء يرونها وأراها أوضح من أن
تجري فيها الأحاديث لأنها بديهية مقررة قد اتفق الناس
عليها وأطمأنوا إليها منذ أقدم العهود . ولكن ماذا اصنع
وماذا يصنع غيري من أصحاب الجدة ، إذا اقتضت ظروف
الحياة الأدبية أن نستأنف الحديث في بعض الأوليات التي
كننا نظن أن الإنسانية قد فرغت منها .

وأول ما أبدأ به من هذه البديهيات هو هذا السؤال :
لماذا ينتج الأدباء شاعراً كان أو ناثراً ؟

أما أصحاب الأصالة في الأدب ، فليس عندهم على

هذا السؤال الاجواب واحد وهو ان الاديب انما ينتج لان طبيعته تقتضيه الانتاج ، ولان البيئة من حوله تقتضيه الانتاج ايضاً ، او لان الله قد خلق الجماعة الانسانية وفيها طائفة من الظواهر الاجتماعية ، ومن هذه الظواهر ان ان ينتج الادباء ويسمع الناس او يقرأوا .

ولسنا نعرف بيئة انسانية ، بادية أو متحضرة ، متقدمة في الحضارة او مقصرة فيها ، الا ولها لون من الادب يلائم طاقة ادبائها للانتاج ، وطاقة اعضائها الآخرين للقراءة او الاستماع . ومن اجل ذلك رأينا اهل البادية من العرب قبل ان يمسهم جناح من الحضارة يحفلون بما اتيح لهم في حياتهم تلك من الادب . يقول شاعر القبيلة ، ويسمع له سائرهما ، ويحفظ كثير منهم عنه بعض ما يقول او كل ما يقول . وقد يشيعونه من حولهم في حياتهم تلك المتنقلة ، فيتجاوز شعر الشاعر قبيلته الى قبائل اخرى . ويتفاوت شعر الشعراء في شيوع شعرهم وانتشاره ، وما ينشأ عن ذلك لاصحابه من الشهرة وبعده الصوت .

وقد تغيرت اطوار تلك الامة البادية ، فتحضرت قليلاً أو كثيراً ، ولكنها لم تنس شعرها القديم من جهة ، ولم تكتف به من جهة اخرى ، وانما حفظته ، وازادت اليه وانشأت شعراً متحضراً يشبه او لا يشبه ما حفظت من شعرها القديم .

ثم اغرقت في الحضارة ، وفرضت لغتها ودينها وأدبها

على امم اخرى ، وانشأت لوناً جديداً من الحضارة لم تألفه
في عهودها الاولى ولم تعرفه الامم الاخرى قبل ان تخضع
للسلطان الجديد . وهي في هذا الطور من حياتها لم تنس
ادبها ، ولم تعرض عنه ، ولم تكتف به ، وانما حفظته
واضافت اليه ايضاً ، ثم ادركها شيء من الخمول بعد
النباهة ، ومن الضعف بعد القوة ، ومن التفرق بعد
الاجتماع ، ومن الخضوع بعد التسلط ، فلم تنس قديمها في
الادب ، وانما حفظته وحاولت موفقة او غير موفقة ان
تريد فيه وتضيف اليه . لا نعرف انها اهملت الادب او
اعرضت عنه ، او زهدت فيه ، على اختلاف العصور
وعلى اختلاف الاطوار وعلى تتابع المحن وازدحام الخطوب
حتى صارت الى ما هي عليه الآن ، وحتى اصبح ادبها
اطول الآداب الحية عمراً ، وأشدّها بقاء ، واقدرها على
مقاومة الكوارث والاحداث ..

كل هذه حقائق أولية يعرفها المثقفون جميعاً ، وتدرّس
للشباب في مدارسهم ومعاهدهم ، ولكنني سأنتقل من هذا
السؤال وجوابه الى سؤال آخر ليس اقل غرابة من السؤال
الاول وليس الجواب عليه اقلّ اغراقاً في البداهة من الجواب
على السؤال الأول : فيم كان قدماء شعراء العرب يقولون
الشعر ؟ وفيم كانوا يخطبون ؟ وفيم كانوا يكتبون ؟ واصحاب
الاصالة في الادب يحيبونك بأنهم كانوا ينشئون الادب فيما
كانت طبيعة حياتهم تقتضيه من فنون القول .
كانوا يتغنون الرضى اذا رضوا ، ويتغنون السخط اذا

سخطوا . يتغنون الحزن إن أصابهم الحزن ، والسرور ان
اتيح لهم السرور . كانوا يصورون ما كانوا يجدون من
الوان الحس والعواطف والشعور ، وكانوا يحبون ما يعرض
عليهم ادباؤهم من هذه الصور ، فيتحدثون بحبهم لها ورضاهم
عنها ، وكانوا يكرهون بعض ما يعرض عليهم ادباؤهم من
هذه الصور ، فينصرفون عنها ويسخطون عليها ويتحدثون
عن هذا السخط وذلك الانصراف ، فهم قد عرفوا الادب
ونقد الادب في جميع عصورهم منذ عرفهم التاريخ الى
الان ، وهم ليسوا بدعاً في ذلك من الامم الاخرى لان
الادب ليس ظاهرة عربية فحسب ، انما هو ظاهرة انسانية ،
ولان النقد كذلك ليس ظاهرة عربية فحسب ، وانما هو
ظاهرة انسانية ايضاً .

وما دمت تحرص على ان تسمع او تقرأ ما ينتج
الادباء ، وما دمت تتحدث عما سمعت او قرأت حديث
الراضي او حديث الساخط ، فانت معني بالادب ناقد له
على نحو ما من العناية وعلى نحو ما من النقد .

الادب انساني اذن ، والنقد انساني ايضاً ، والادب
يصور حياة الناس والنقد يبين ملاءمة هذا الادب لاذواقهم
او مخالفته لها . واذن فلا يكون الادب ادباً حتى يصور
حياة الناس ، وليس في الارض ادب الا وهو يصور
حياة اصحابه .

ومن هنا كان الادب مصدراً من مصادر التاريخ

الانساني ، وعسى ان يكون بالقياس الى بعض الامم ،
او بالقياس الى بعض اطوار هذه الامم ، أخطر مصادر
التاريخ .

ولامر ما قال قدمائنا ان الشعر الجاهلي ديوان العرب ،
لانهم لم يكادوا يعرفون شيئاً من امر هؤلاء الجاهليين الا
من طريق هذا الشعر . ومن المحقق ان الشعر الاسلامي
ديوان العرب في القرن الاول للهجرة ، وانك اذا اعتمدت
على المصادر التاريخية وحدها ، اضعت أشياء خطيرة جداً
من حياة المسلمين في ذلك العصر . واكاد أعتقد ان الامر
كذلك بالقياس الى حياة الامة العربية على اختلاف عصورها
واطوارها وبيئاتها . واكاد أعتقد كذلك ان شأن الامم
الاخرى في هذا ، كشأن الامة العربية . فالادب يصور
حياة النفوس والقلوب والاذواق على نحو لا يستطيع
التاريخ ان يصوره ، ولا ان يسجله ولا ان ينقله الينا
نقلًا صحيحاً دقيقاً .

واذن فالذين يقولون يجب ان يكون الادب للحياة ،
ويظنون انهم يقولون شيئاً جديداً ، لا يقولون في حقيقة
الامر شيئاً ، ويخطئون حين يظنون انهم يبتكرون شيئاً لم
يألفه الناس منذ اقدم العصور . فكل ادب في اي امة من
الامم انما هو يصور نوعاً من انواع حياتها ، ولوناً من
الوان شعورها وذوقها وتفكيرها وانعكاس صور الحياة في
نفوسها . واكبر الظن ان الذين يقولون يجب ان يكون

الادب للحياة انما يريدون شيئاً يحسونه في اعماق نفوسهم
ولكن عقولهم قد لا تحققه .

فاذا ارادوا ان يعبروا عنه اخطأهم التعبير ، وعسى
ان يحققوا في نفوسهم اشياء ثم تمنعهم ظروف الحياة على
اختلافها من ان يعبروا عنها في إفصاح ويصوروها في جلاء
ووضوح .

فقد طرأت في الحياة الانسانية الحديثة ظواهر جديدة
لعلها لم تطرأ للامم قبل هذا العصر الحديث . وامس هذه
الظواهر بالادب انتشار المعرفة وتغلغل الثقافة في طبقات
من شعوب لم تكن تصل اليها قبل ان تتقرر حقوق
الشعوب وقبل ان تستمتع الشعوب بهذه الحقوق استمتعاً
واقعاً .

فكان الادب يتجه الى الطبقات المثقفة ولا تصل منه
الى الطبقات التي لم تدركها الثقافة الا اصداء غامضة لا
تبلغ اعماق نفوسها فضلاً عن ان تستقر فيها . فاما الآن
فقد تقرر سيادة الشعوب وتقرر حقها في ان يأخذ
افرادها على اختلافهم بما يتاح لهم من حظ في المعرفة
والثقافة ، واصبح الادب مكافئاً ان يبلغ هذه الطبقات التي لم
يكن يبلغها من قبل . اصبح مكافئاً ان يبلغها مرتين ،
يبلغها اولاً لينقل صور حياتها الى الاديب ، ويبلغها ثانياً
ليرد اليها هذه الصور ، وقد صاغها الاديب في فنه واضفى
عليها ما يقتضيه الفن من الجمال الذي يحجب الخير ويرغب

فيه ويبغض الشر ويصد عنه .

والامر بعد ذلك في حاجة الى كثير من التآني والتحقيق . فالادب في اي امة من الامم انما نشأ شعبياً ثم تطور بمقتضى الحضارة حتى ضاقت ميادينه وانقطعت او كادت تنقطع الصلة بينه وبين طبقات الشعب التي لم يتح لها التعليم .

فالشاعر العربي في الجاهلية وفي القرن الاول للهجرة لم يكن يقول الشعر لطبقة بعينها من الناس ، وانما كان يقوله لكل الذين كانوا يستطيعون ان يفهموه ويذوقوه . وكانت بيئته كلها تستطيع ان تفهم الشعر وتذوقه . والمحقق ان زهيراً مثلاً لم يقل شعره لتفهمه طبقة بعينها من قبيلته ، وانما قاله ليفهمه كل من سمعه من العرب ويذوقه ، لا فرق في ذلك بين القوي والضعيف ولا بين الغني والفقير ولا بين سادة القبيلة وسائر افرادها . ثم لم يكده شعره ينشد حتى فهمته قبيلته وفهمه غير قبيلته من العرب الذين كانوا يعيشون في نجد والحجاز وغيرهما من الاقاليم التي كان اهلها يتكلمون لغة زهير .

وقل مثل ذلك بالقياس الى الشعراء الجاهليين جميعاً وبالقياس الى الشعراء الاسلاميين ايضاً . شعر زهير وامريء القيس والنابغة والاعشى وشعر جرير والفرزدق والاختل كان شعراً يصور الحياة العربية كما كان اصحابها يحيونها ، لان الاغنياء والفقراء والاقوياء والضعفاء كانوا يتكلمون لغة

واحدة ، وكانت حظوظهم من المعرفة والثقافة واحدة او
مقاربة اشد التقارب واقواه .

واذا شق علينا نحن ان نفهم هذا الادب ونذوقه الا
اذا هيأنا انفسنا لذلك تهيئة خاصة بالدرس والاجهد والتحصيل ،
فليس هذا لان هذا الادب لا يصور حياة اصحابه بل
لانه لا يصور حياتنا نحن ولا يشتق منها . وقل مثل هذا
في شعر الشعراء القدماء من اليونان : لم يكن يقال
لطبقة بعينها وانما كان يقال للبيئة التي عاش فيها الشعراء ..
فلما تحضر اليونان وتعددت حياتهم اصبحت شعر اولئك
الشعراء بالقياس اليهم كشعر الجاهليين والاسلاميين بالقياس
اليها .

والمهم هو ان الاديب لا ينشئ ادبه لفرد من الناس ،
ولا لجماعة محدودة منهم ، وانما ينشئه لبيئته التي يعيش
فيها ولهذه البيئة كلها ، وهو واثق بان ادبه سيفهم ويداق .
ولم يكن العرب الجاهليون جميعاً اغنياء ولا اقوياء ، وانما
كانوا كغيرهم من الشعوب فيهم من يتاح له الثراء ومن
يقضي عليه الضيق ..

وقل مثل ذلك في العرب الاسلاميين . والخطأ كل الخطأ ،
أن يظن ظان ان الشعراء حين كانوا يمدحون السادة ،
 واصحاب الثراء ، انما كانوا يقولون الشعر لهم وحدهم . ولو
كان الامر كذلك ما احتفل بمدح بمدح قط . ولو كان
الامر كذلك ايضاً ما عُنِيَ الناس بهذا المدح بعد موت

الممدوحين وبعد العهد بهم . فلم تكن عناية زهير بهرم بن
سنان مقصورة عليه دون غيره من عامة العرب ، وانما مدح
زهير صاحبه ذاك ليأخذ عطاءه من جهة ، وليعجب الناس
بشعره من جهة اخرى ، وعسى ان يكون حرصه على
اعجاب الناس بشعره اشد من حرصه على الظفر بعطاء
الممدوح . ولامر ما قال بعض ولد زهير ان ما نال زهير
من ممدوحه ذاك قد فني وادركه البلى ، ولكن شعر
زهير فيه لم يفن ولا سبيل الى ان يدركه الفناء .

ولقد انقضت الالعب الاولمبية اليونانية وانقضى
المستبقون فيها من السادة والطغاة منذ قرون طويلة جداً ،
ولكننا ما زلنا نقرأ شعر بندار ونعجب به ونحرص عليه
الى الآن . وليس كل الناس يستطيعون ان يقرأوا هذا
الشعر كما انهم جميعاً لا يستطيعون ان يقرأوا شعر زهير
قراءة الفاهم الذائق ، وانما يتاح ذلك لمن هياً نفسه للقراءة
والفهم والذوق .

فلا تقل ان الادب القديم لم يكن بصور الحياة بل قل
انه لم يصبح مصوراً لحياتنا نحن ، وهنا تأتي المشكلة التي
يتورط فيها كثير جداً من دعاة الادب الجديد عندنا في
هذه الايام . فهم يعيبون الادب القديم جملة بانه كان ادباً
بعيداً عن الحياة وبانه كان ادب ملوك وبانه كان ادب
اقطاع ، وينبغي اذن ان نعرض عنه الاعراض كله ،
وان نمقته اشد المقت وننفر منه اعظم النفور ، وننشئ

لأنفسنا ادباً يلائم الحياة . والحياة هنا هي حياتنا نحن
هذه التي نحياها في هذه الايام . ولو حقق هؤلاء الكتاب في
عقولهم هذا الذي يدعون اليه لانكروه اشد الانكار
ولبرأوا انفسهم منه اقوى التبرئة واعنفها ، فهم انما يدعون
الى شيء يسير جداً هو ان نلغي القديم كله الغاء ، ونجتث
الانسانية من اصولها ، وننشئ انسانية جديدة تقوم على
هذه الحياة التي نحياها الشعوب الآن .

وما اعرف ان احداً من هؤلاء السادة يريد ان يلغى
الادب القديم حقاً لان بعضه انشيء للملوك ولاصحاب
الاقطاع ، فهم اعقل عقلاً واحصف رأياً واحسن تقديراً
للأمور ورعاية لحقوق الثقافة من ان يريدوا مثل هذا
او يدعوا اليه . ولست اعرف ادباً انشيء للملوك ،
ولا قصر عليهم ، وانما اعرف ان الملوك واصحاب الثراء
اتخذوا وسائل لانتاج الادب في بعض الظروف .

واؤكد لك اني حين اقرأ قول الشاعر القديم للرشيدي :

وعلى عدوك يا ابن عم محمد

رحوان ضوء الصبح والاضلام

فاذا تنبه رُعْتَهُ واذا غفا

سلت عليه سيفك الاحلام

لا أكاد اقف عند الرشيد ولا عند اخافته للعدو نياماً
وايقاظاً ، وانما الذي يعنيني قبل كل شيء هو ان هذا
الشعر جيد يروع بما فيه من تصوير ما ينبغي ان يكون

عليه الملك اليقظ الحازم الذي يحرص على رعاية الدولة
ويحوطها ، لا من غارة العدو فحسب ، بل من طمعه في
الغارة عليها .

وليس يعنيني ان يكون الرشيد قد كان كما وصفه
الشاعر أو لم يكن ، وإنما الذي يعنيني هو هذا المثل الاعلى
الذي رسمه الشاعر للذين يقومون على شؤون الامم
وينهضون باعباء السلطان فيها ، سواء أكانوا ملوكاً أم
خلفاء أم رؤساء جمهوريات .

وإذا كان هذا كله لا يعنيني فأجدر الا احفل بان هذا
الشاعر قد صدق او كذب . فقد ذهب الشاعر وذهب
بمدوحه وذهب عصره وذهب مع هذا كله صدق الشاعر
او كذبه ، وبقي الشعر صادقاً اروع ما يكون الصدق
في تصوير المثل الاعلى لرؤساء الدول حين يذودون
عن دولهم .

ومثل هذا يقال في المدح الجيد الذي ساقه الشعراء الى
الملوك واصحاب الثراء . ليس المهم ان يصدق الشعراء او
يكذبوا بالقياس الى الذين يمدحونهم ويثنون عليهم وإنما
المهم ان يصدق الشعراء في تصوير المثل العليا فيما ينشئون
من مدح وثناء ، لان المادحين والمدوحين يذهبون وتبلى
اشخاصهم ولكن المثل العليا التي يصدقون في تصويرها تبقى
للناس ما بقي الناس .

وهذا هو معنى ما يقال من ان الادب الصحيح الجدير

بهذا الاسم خالد مهما يصب اصحابه وبيئاتهم من الخطوب
واحداث الزمان . وهذا هو السر في ان التراث الادبي
والفني عزيز على الانسانية المثقفة لانه يصور لها الجمال ،
والجمال خالد لا يدركه الفناء .

وما اظن هؤلاء السادة يريدون ان يلغوا من ادب
شكسبير ما مدح فيه الملوك والاشراف ، لان عهد
الملوك والاشراف قد انقضى . وما احسبهم يريدون ان
يلغوا آثار اصحاب الفن الخالدين من اصحاب التصوير
والنقش والعمارة ، لان هذه الآثار قد انشئت لملك او
امير او شريف من اصحاب الاقطاع .

فقد ذهب هؤلاء جميعاً ، وذهب معهم الذين انشأوا
لهم هذه الآثار ، وبقيت هذه الآثار تراثاً خالداً ، نحوطة
كلنا بما نملك من القوى والجهود ويحرص عليه منا الذين
يحبون القديم والذين يدعون الى التجديد .

والتراث المصري القديم كله على اختلافه فناً كان او
أدباً ، قد انشيء للملوك ، او انشيء في ظل الملوك ، او
انشيء في حياة شديدة التأثير بالملوك واصحاب الاقطاع ،
وما أعرف ان احداً منا يريد ان يلغي هذا التراث او
يعرض عنه او يزهد الناس فيه ..

فالقضية اذن توضع وضعاً خاطئاً من اساسها . فهؤلاء
السادة لا يكرهون القديم لانه قديم ، وهم لا يكرهونه
لانه انشيء للملوك واصحاب الاقطاع ، ولكنهم يرون

حياتنا قد اخذت تتغير وتسلك سبيلها المستقيمة جادة الى
الخير والاصلاح .

وهم يرون كذلك ان اليقظة قد اخذت تبلغ نفوس
الشعب وتتغلغل حتى تصل الى اعماقه ، وهم من اجل هذا
كله يريدون ان يكون ما ينشأ من الادب مصوراً لحياة
الشعب وآماله وآلامه وحاجاته وغاياته ايضاً ..

يريدون هذا كله ولا يريدون ان ينقصوا من قيمة
الادب القديم شيئاً ، ولكن السنتهم تجمع واقلامهم تجور
عن القصد . وهم يرون الناس يكرهون الملوك لسوء آثار
الملوك فيهم ولان الثورة قد طردت ملكاً ، فلا يجدون
بأساً في ان ينتفعوا بهذه الظروف ليروجوا لدعوتهم ،
ويزيدوها الى الناس قرباً والى قلوبهم حباً . وكثير منهم
يخيل الى نفسه انه يرضي الثورة بذلك ، ويتقرب الى
رجالها ، ولكنهم في حاجة شديدة الى الانصاف واخذ
النفس بشيء من الاعتدال .

فالباطل لا يرضي احداً والحق لا يغضب الرجل الرشيد ،
وما احسبهم يستطيعون ان يصارحوا الثورة بان الادب
القديم شر يجب ان يزول ، وفساد يجب ان يلغى ، واثم
يجب ان تمحى آثاره . وبان اول ما يجب من ذلك ان
يتروك القديم لقدمه ، وان نحرق الكتب التي سجلته ونحظر
درسه في المدارس والمعاهد ونعاقب الناس على التحدث به
او التحدث عنه لانه انشيء للملوك واصحاب الاقطاع ، او

انشيء في ظلهم ، وقد الغينا الملكية والغينا الاقطاع ،
فيجب ان نلغي كل شيء انشيء في ظلها .

هذا كلام يمكن ان يقال ، وما اكثر الكلام الذي
يقال ، ولكن الشيء المحقق ان احداً لن يسمع له ، ولن
يحفل به ، ولن يلتفت اليه ، ولن يوجد المعول الذي يعمل
في هدم الاهرام او في هدم مسجد من المساجد التي انشاها
الملوك واصحاب الاقطاع ، ولن توجد النار التي تضرم
لتحريق ديوان من دواوين الشعر او كتاب من كتب
النثر .

ولو قد تحدث احد هؤلاء السادة الى رجل من رجال
الثورة في شيء من ذلك او في شيء يشبه ذلك من قريب او
بعيد لما رأى منه الا ازدياء ولما سمع منه الا زجراً
وانتهاراً ، وما اعرف شيئاً يسوء الثورة والقائمين عليها من
هذا الكلام الذي يقال في غير تفكير ولا قصد ولا تدبر
من قائله .

فليقولوا ولنقل معهم ان حياة جديدة قد اخذت تجري
في شعب مصر ، وان الادب الجديد يجب ان يكون ملائماً
لهذه الحياة ، يصور حقائقها الواقعة ، ويوجهها الى ما ينبغي
ان تتجه اليه ويبصر الناس بما يضرهم ليجتنبوه وبما ينقصهم
ليسعوا اليه .

ونحن حين نقول هذا نرضي انفسنا ونرضي شعورنا بالحاجة
الى التجديد ، ولكن المحقق ان الادب ليس في حاجه الى

هذا القول فهو بطبعه ملائم للبيئة التي ينشأ فيها ، وما
اظن ان اديباً من الادباء المعاصرين يخطر له ان يمدح الان
ملكاً او يثني على اقطاع .

اما بعد فقد خلق الادب للحياة ، وعاش للحياة دائماً ،
ولاءم البيئات التي كان ينشأ فيها على اختلاف العصور
والظروف ، ولن يكون الادب الجديد عندنا بدعاً من
آداب الدنيا كلها .

فليرح هؤلاء السادة انفسهم . وليوجهوا جهودهم الى ما
ينفع الناس ويمجدي عليهم ، والى ما يغني هذا الادب الجديد
ويضيف اليه ثراء جديداً ، ولينقلوا الخصومة من الادب
نفسه الى صورة الادب ، فما عسى ان يكون الادب الذي
يريدون ان ينشأ في حياتنا الجديدة وان يوجه الى الناس ؟
ايكتب في لغة رثة واساليب غثة ولهجة تشبه لهجات
الاحاديث التي تجري في الشوارع والقهوات والاندية ؟ ام
يريدون ان يكون الادب كما عرفته الانسانية دائماً فناً
جميلاً يساق الى الناس في زي جميل ؟

هذه هي المسألة التي ينبغي ان يدور حولها الحديث ،
وانه لحديث طويل .

الأدب والحياة أيضاً

وكذلك غضب الغاضبون ، وثار الثائرون ، وتساءل المتساءلون . منهم من أعلن ذلك في الفصول الطوال والقصار ، ومنهم من استخفى بذلك يتحدث به الى الرفيق والصديق ، ومنهم من كتب اليّ في بعض ذلك الكتب ومن سألني عن بعض ذلك في التلفون ، وهذا كله ليس شيئاً يسيراً بما اردت اليه حين تحدثت عن الادب والحياة ، فقد اردت الى ان يستيقظ النائم ويتنبه الغافل ويخرج الهادي من هدوئه ويُزعج المطمئن الراضي عن اطمئنانه ورضاه ... فما اعرف شيئاً اضر بالحياة العقلية وادفع لها الى البلادة والجذب من هذا الذي كاد شبابنا وشيوخنا من الادباء والمثقفين يتورطون فيه من الجمود والجحود والركود ،

والرضى بما كان ، والاطمئنان الى ما هو كائن ، والاستخفاف
بما يمكن ان يكون ...

وقد تعودت دائماً ان اوثر سخط العقول على رضاها ،
وان احب لها القلق واكره لها ما يمكن ان تضطر اليه
من هذا الامن الخفيف الذي ينتهي بها الى الفتور وايشار
الدعة والاطمئنان الذي يجلب اليها الراحة ويغريها بالكسل
ويزين لها الاستسلام والتسليم ايضاً ..

وما اعرف اني رضيت عن شيء منذ سنين كما رضيت
في هذا الاسبوع عن بعض الاحاديث التي انتهت الي
بالتليفون ، والاسئلة التي وصلت الي في الرسائل ، والاسئلة
التي وجهت الي في الصحف وفي « الجمهورية » خاصة ... فكل
هذا ان دل على شيء فانما يدل على ان في حياتنا العقلية
شيئاً من امل لم يفتقر بعد ولا ينبغي ان يدركه الفتور .
كان هذا بعض ما اردت اليه ، لا كل ما اردت اليه .
فاني لا اقنع بالامل ولا اكتفي بالرجاء ، فالآمال تكذب
وتصدق والرجاء ينجح ويخيب ، وانما اريد ان ينتهي الامل
الى عمل ، وان يؤدي الرجاء الى الجهد والعناء ، والى الجد
والكد ، والى تجديد الادب بالمعنى الدقيق الصحيح لهذه
الكلمة ، بالمعنى الذي لا يقوم على ارسال الاحكام الغامضة
واطلاق الكلام الذي لا محصول له ولا تحقيق فيه .

واحب ان يطمئن الاساتذة الذين يضعون انفسهم موضع
الريبة ويظنون اني اردتهم او اردت بعضهم حين كتبت

ما كتبت ، فاني لم اتحدث عن كاتب بعينه . ولم افكر
في هذا الكاتب او ذاك ، وانما اردت الى هذه النزعة
المبهمة العامة التي اخذت تظهر وتشيع منذ حين والتي
تدعو الى اشياء لا تحققها ولا تعرف لها حدوداً ، وانما تصور
شعوراً غامضاً بالضيق وطموحاً غامضاً الى شيء من السعة
والاسماح . فتعجل وتقضي قبل ان تحقق ، وتقطع في الامور
قبل ان تستبين حقائقها ، وتدعو فيما تدعو اليه الى ان يكون
الادب في سبيل الحياة دون ان تحقق معنى هذا الكلام .
فالادب ليس وسيلة ولا ينبغي ان يكون وسيلة ، والادب
لا ينشئ ادبه ليحقق هذا الغرض او ذاك ولا ليلبغ هذه
الغاية او تلك ، وانما الادب غاية نفسه والادب يكتب لانه
لا يستطيع الا ان يكتب ...

فاما ان يسخر الادب ليكون وسيلة من وسائل
الاصلاح او سبيلاً من سبل التغيير في حياة الشعوب ، فهذا
تفكير لا ينبغي ان نساق اليه ولا ان نتورط فيه . وليس معنى
هذا ان الادب بطبعه عقيم وان الاديب أثر بطبعه ولكن
معناه ان الاصلاح والتغيير وتحسين حال الشعوب وترقية شئون
الانسانية اشياء تصدر عن الادب صدوراً طبيعياً كما يصدر
الضوء عن الشمس وكما يصدر العبير عن الزهرة وكما تشير
الروضة في نفسك ما تشير من الشعور بالجمال . فضاء
الشمس لا يصدر عنها لتحقيق الاغراض وبلوغ الغايات التي

تحققها انت وتبلغها به . وانما يصدر عنها بطبيعتها وتلتفع
انت به وتستمتع به ايضاً وتحقق به اغراضك وتبلغ به
غاياتك وتوجهه من هذا كله الى ما تريد والى ما تستطيع
لانك تجده يغمرك ويتاح لك ، ويهديك ويتيح لك ما
تجد فيه من النفع .

والزهرة لا تنشر عرفها وشذاها لتتلق منك هذا
الحس الذي ركب في غريزتك .

وهي لا تتألق بجمالها ونضرتها وروائها وبهجتها لتتلق
فيك حساً آخر ركب في طبيعتك .

بل هي لا تعرفك وعسى الا تعرف نفسها ، فهي اجدر
الا تريد لنفسها عطراً او جمالاً او رواء فضلاً عن ان
تريدك بهذا كله او بعضه .

وقل مثل ذلك في اشياء كثيرة في هذه الطبيعة بخيل
غرور الانسان للانسان ، وحرص الانسان على منفعة ،
وتهالكه على ما يرضيه واشفاقه بما يسوءه انها تؤدي اليه
ما تؤدي خدمة له وارضاء لحاجاته وتحقيقاً لمنافعه .

مع انها تجهله كل الجهل ، وما ارى انه سيتاح لها في
يوم من الايام ان تعرفه او تفرض له وجوداً .

وماذا تريد من الانسان الذي استقر في نفسه على
اتصال القرون وتعاقب الاجيال انه سيد ، وانه لا بد له
من مسود ؟

وان اغراضه وغاياته ومنافعه ينبغي ان يذل لها الكون .
واذا كان هذا رأيه في الطبيعة ، واذا كان استغلاله للطبيعة
قد خيل له انه سيدها ومالكها وانها خادمته بل أمته ،
يتصرف فيها كما يتصرف السيد الملك ، وأتاح له عقله بما
اهتدى اليه من استكشاف واستغلال لبعض موارد الطبيعة
ان يزداد امعاناً في هذا الغرور وان يفتن بنفسه فتوناً لا
حد ، حتى يلقي في روعها انه يستطيع بعد ان اتيح له
استغلال الطبيعة ان يستغل الانسان ايضاً ويسخره لاغراضه
وغاياته ما صلح منها وما لم يصلح ، ما كان منها مستقيماً ،
وما كان منها معوجاً شديداً الاعوجاج .. ورحم الله ابا
العلاء الذي انفق حياته يدعو الانسان الى شيء من التواضع
والقصد .. ويذكره ان نفعته الذكرى بان الطبيعة ليست
ملكه وبانه ليس فيها الا شيئاً ضئيلاً .. بل يذكره بان
النحل لا تنتج العسل له ، ولا تفكر فيه حين تنتج العسل .
وانما تنتجه لنفسها ولانها لا تجد من انتاجه بدءاً .

غرور الانسان وامتلاؤه بنفسه واعتداده بقوته خيل
اليه ان لكل شيء غاية انسانية يجب ان يبلغها الانسان .
ثم لم يلبث هذا الحيال ان اصبغ في نفسه حقيقة وان
ملأه اعجاباً وتيهياً ..

فسخر من حياته هو كل شيء لتحقيق اغراضه وارضاء
حاجاته كما سخر الطبيعة لارضاء هذه الحاجات وتحقيق تلك
الاغراض . فلا قيمة للادب الا ان حقق نفعاً ، ولا قيمة

للعلم الا ان ارضى حاجة . ثم تجاوز الغرور به كل طور
فظن ان النفع والغاية يجب ان يكونا في تيسير شئونه
المادية وتطويع حياته التي يحياها كل يوم ، فالادب يجب
ان يُقصد به الى الاصلاح والى الترقية والى تغيير حياة
الناس ونقلها من طور الى طور .

والعلم يجب ان ينتهي الى الانتاج المادي الذي يخرج
ما في هذا العالم من ثمرات تجعل العيش يسيراً وثيراً . لكل
شيء ثمن وثن مادي يجب ان تأخذه الايدي وان تتناوله
الافواه وان تحتويه الجيوب . هذه قيم اقل ما يمكن ان
يقال فيها انها وليدة الغرور وسوء التحقيق للاشياء ، وانها
تنتهي بالانسان الى مادية منكرة توشك آخر الامر ان
تجعله اداة انتاج لا اكثر ولا اقل .

وكذلك يجب على الاديب ان ينشئ من الادب ما
يذل الحياة ويبستر وسائلها ويتيح للجائع ان يشبع ، وللعارى
ان يكتسي ، وللمريض ان يصح ، وللظمآن ان يجد الري ،
ويصبح الادب اذن اداة من ادوات وزارة الشؤون
الاجتماعية تستعين بها على تحقيق ما أنشئت له من الاغراض .
والتعليم كله يجب ان يكون ادوات للانتاج الذي يملأ
الارض مالاً وخصباً وثراء بعد ان ملئت عدماً وجذباً
وفقرأ .

والغريب ان الادب في نفسه يحقق للناس كثيراً من
منافعهم ويرضي كثيراً من حاجاتهم ويلأثم دائماً كما قلت

من قبل حياة الناس لانه صورتها التي تشتق منها
وتعود اليها . ولكن الناس في هذه الايام يتعجلون
الامور ويملاً عليهم الشبع والري وامتلاء الايدي ويسر
الحياة نفوسهم وعقولهم وقلوبهم فيطلبون الى الادب منافعهم
في إلحاح مزعج مريب مع انه يحقق لهم هذه المنافع كما
حققتها لهم دائماً ، ولكنه يحققها عفواً على غير تعمد لها ولا
قصد اليها . وهؤلاء الذين يلحسون على الادب في ان
يكون سبيلاً الى تيسير الحياة هم اشبه بمن يلح على الشمس
في ان تجعل ضوءها اكثر نفعاً واعم فائدة ، الا ان الشمس
لا تحفل بمن يلح عليها في ذلك ان وجد لانها لا تسمعه
ولا تعقله ، على حين ان الادب او الاديب على الاقل يسمع
ويعقل ويقدر الامور ويفسد عليه هذا إلحاح امره
ويوشك ان يغله ويرده الى الجذب ويمنعه من الانتاج .
فالادب لا يكره شيئاً كما يكره ان يكون وسيلة ،
والادباء لا يكرهون شيئاً كما يكرهون ان يكونوا ادوات
تستغل وتستذل وتبتغى بها المنافع والحاجات .

وقد قلت في الحديث الماضي ان المادحين من الشعراء
والكتاب ايضاً في العصور القديمة لم يكونوا يتخذون
الادب وسائل الى السادة وانما كانوا يتخذون السادة وسائل
الى الانتاج الادبي ينتفعون بشوقهم الى الممدح ورغبتهم فيه
وبذلهم المال للظفر به . والشيء المحقق ان ابانواس من شعراء
العرب وبندار من شعراء اليونان وهوراس من شعراء

الرومان وراسين او شكسبير من شعراء الفرنسيين
والانجليز لم يكونوا هم وامثالهم يتخذون الملوك والسادة
غايات لادبهم ، وانما كانوا يطلبون عندهم المال والعون
لينفقوهما فيما تتيح لهم الحياة التي كانوا يحيونها وكانت تيسر
لهم الانتاج الادبي الذي نجد فيه الان ومستجد فيه الاجيال
المقبلة غذاء القلوب والاذواق والعقول ..

كل ما يؤخذ به هؤلاء السادة الذين يدعون الى ان
ينشأ الادب في سبيل الحياة هو انهم يريدون ان ينزلوا
بالادب فيجعلوه وسيلة بعد ان كان غاية ، وينكرون ان
يكون الادب اول ما يكون وقبل كل شيء غذاء للارواح ،
توشك المادية الحديثة الجاحمة ان تضطرهم الى جعل الانسان
كله اداة وان تضطرهم الى ان ينكروا ما في الانسان
من روح ، من حقه ايضاً ان يقدم له الغذاء الذي يلائمه ..
ليست الحياة شعباً بعد جوع ، وسعة بعد ضيق ، وغنى بعد
فقر فيحسب ، ولكن فيها شيئاً آخر ارقى من هذا كله
واقوم من هذا كله هو هذا الروح الذي يجب الخير لانه
الخير ويجب الجمال لانه الجمال ، والذي ينبغي ان يكون
الشعب والري والفن وسائل تمكنه من ان يجد غذاءه الفني
الرفيع . ان الذين يتخذون المادة غاية او يتعرضون لاتخاذها
غاية يهدرون ما في الانسان من كرامة ، وسيهبطون به
الى لون من الوان الضعة لا ينبغي ان يهبط اليه .
ولست اسمي احداً بعينه ولا افكر في احد بعينه ،

وانما اذكر هذه النزعة التي اخذت تعم وتشيع والتي اشرت اليها منذ حين . وهذه النزعة لم تأتنا من غير مصدر ، ولم تثر في نفوس اصحابها عبثاً او فجأة ولكنها نزعة معروفة قد اصبحت رسمية في غير موطن من موطن الارض ، وكثر الدعاء اليها في غير مواطنها حتى اصاب كثيراً من الامم شيء من شررها .

وكل ما اتمناه هو الا تتأصل فينا هذه النزعة التي لا يقوم عليها ادب صحيح ، بل لا يقوم عليها علم صحيح ايضاً . فلم يكن العلم وسيلة قبل هذه الظروف الاخيرة التي لا بست حياة الناس في هذا القرن ، وانما العلم معرفة تغني النفوس وترفع الانسان عما حوله من الاشياء والاحياء لا غاية له الا هذا ولا بأس بأن ينشأ عنه ما نشأ من هذه الاختراعات الكثيرة الحصة التي يسرت حياة الناس واتاحت للعلم نفسه ان يرقى ، فالرقي يدعو الى الرقي والفوز بالاستزادة من الفوز . انما العلم والادب غذاء للعقول والاذواق قبل كل شيء .. واذا اخذت العقول والقلوب والاذواق حاجتها من هذا الغذاء كانت خليفة ان تملاً الدنيا من حولها خيراً ويسراً وبهجة وجمالاً .

انما الشيء الذي افهمه واطلبه وألح فيه وارجو ان يشاركني الشيوخ والشباب في فهمه وطلبه والالحاق فيه هو الا يحمّد الاديب ولا تحمّد جذوته ، ولا يكون صدى الماضي ليس غير ، وانما يمضي مع الدنيا من حوله فيتطور

معها ويصورها في حاضر الامر ومستقبله كما صورها في ماضيه . ولست أخشى من هذا كله شيئاً مع إلحاحي في الدعاء الى التطور ، فأدبنا قد تطور تطوراً خطيراً في هذا العصر الحديث لا يشك في ذلك إلا المبطلون والذين في قلوبهم مرض . كان ادبنا في هذا العصر ملائماً عن بعد لما كان يلا الدنيا حوله من الاحداث ، ولما كانت تدفع الدنيا اليه من التطور حين ثار العقاد والمآزني وشكري وطه حسين بشوقي وحافظ والمنفلوطي والمويلحي وامثالهم . وكان هذا الادب ملائماً لما حوله من التطور عن قرب أيّ قرب ، حين ثارت مصر في اعقاب الحرب الاولى ، تريد ان تتحرر من الانجليز . وهو من غير شك سيلائم حياتنا الجديدة في عهدنا الجديد كما لاءم حياتنا من قبل وكما مهد لهذا العهد الجديد ، وخلق له مثله العليا ، ولكن حياتنا في العهد الجديد لم تكد تتحقق ، ولم تكد اعلامها تستبين ، فما زال العهد الجديد يريد ان يحقق نفسه ويبين معالمها . قد انشأ اشياء وهو في سبيل اتمامها . والذي يريد ان ينشئه اكثر من الذي انشأه بالفعل . وتطور الادب محقق ولكنه يتم في اناة وريث ، ويحتاج الى الوقت ليظهر واضحاً جلياً .

وما ينبغي ان نظن ان الادب كالثروة يمكن ان يتغير نظامها بصدور القانون الذي الغى الملكيات الكبيرة ، وأعدّ لتوزيع الثروة توزيعاً قوامه العدل .

فليس الادب أرضاً ، وليس الادب مالا ، وليس
الادب مادة ، وانما الادب روح ، والروح يرى وينظر
ويلح في الرؤيا والنظر ثم يسبح ثم يتمثل ثم ينتج بعد
ذلك في مهل ما اساغ وما تمثل . فالذين يتعجلون تطور
الادب يشبتون على انفسهم وعلى الادب في وقت واحد ،
ولو قد كان الادب يتطور بالقوانين أو يتحقق بمجرد الرغبة
فيه لكنت اسرع الناس الى ان اطلب الى الثورة اصدار
قانون يقضي بهذا التطور وينظمه كما أخذت في تنظيم الاقتصاد
وشئون الحكم . ولكن تأثير القوانين في الادب بطيء لا
يظهر الا حين تتأثر الحياة كلها بهذه القوانين . فليطالب
دعاة التجديد بتطور الادب كما اطالب به ، وليوجهوا هذا
التجديد توجيهاً صحيحاً مستقيماً لا اسراف فيه ولا شطط
ولا جموح .

ويسألني الاستاذ لويس عوض عن هؤلاء الذين ارادوا
هدم الاهرام والمساجد وتحريق الكتب والدواوين لانها
قديمة انشئت في ظل الملوك والاقطاع . وليسمح لي الاستاذ
بأن اكتب عليه عتياً مرآ كما عودته دائماً وكما عودت زميله
الاستاذ عبد الحميد يونس وغيرهما من الذين تفضلوا
فاستمعوا لي .

فهذا السؤال الذي وجهه اليّ ، ليس له موضوع ،
وانما اخطأ الاستاذ قراءة ما كتبت أو قرأه قراءة خاطفة
كما تعود كثير من الشباب في هذه الايام ان يخطفوا القراءة

والكتابة ايضاً لا يستأنون بهما ولا يتمهلون فيهما ، تعجلهم
عن ذلك هذه السرعة التي تقتضيها الحياة الحديثة والتي يجب
على الادب ان يقاومها ويخلص منها . فالسرعة لا تنتج ادباً
وانما تنتج كلاماً ، كما ان السرعة لا تنتج علماً صحيحاً . ولا
اعرف عالماً تعجله الحياة الحديثة عن ان يستأنى ببحثه
وتجاربه ليستكشف ما يستكشف العلماء من القوانين
والظواهر .

لم اقل اذن ان احداً اراد هدم الاهرام والمساجد
وتحريق الكتب والدواوين ، بل قلت في عبارة صريحة واضحة
للذين يستأنون بالقراءة ولا يحفظونها ما اظن هؤلاء السادة
يريدون هدم الاهرام والمساجد الى آخره .

فأنا كما يرى الاستاذ لم اتهمه ولم اتهم زميليه الكريمين
ولم اتهم أحداً غيرهم بمحاولة هذا الاثم العظيم ، بل نزهت
طلاب الجديد عنه تنزيهاً ، وأردت ان ابين لهم بعض ما
في دعوتهم من الاسراف فضربت لهم هذه الامثال التي
روعتهم والتي ضاقوا بها ضيقاً شديداً . ويسألني كذلك
الاستاذ لويس عوض من هم الذين يتقربون الى الثورة
ويتملقونها على حساب الادب وفي غير روية ولا اعتدال ،
واجيبه في صراحة ووضوح ايضاً بأنهم هم هؤلاء الذين
يكتبون اليه في كل يوم ، والذين يلقي ما يكتبون اليه
في سلة المهملات كما يقول . فلم أبعد اذن حين خشيت من
هذا التقرب السخيف الذي لا يراد به الا التملق وابتغاء

وكم اتنى للاستاذ وزملائه من الشباب مع ما اتناه لهم من الاناة والريث إلا يسرعوا الى سوء الظن فان بعض الظن اثم ، وإلا يقدرُوا ان كل ما يقال يمكن ان يتجه اليهم هم دون غيرهم من الناس ، فليس هم الناس جميعاً ، وفي الارض قوم غيرهم كثير ، يفكرون ويكتبون ويخوضون فيما يعرفون وما لا يعرفون .

ولست اذكر ان بين الاستاذ اسماعيل مظهر وبيني خصومة او لجأً لاني لا أعد الاختلاف في رأي من الآراء الادبية والثقافية مصدراً من مصادر الخصومة واللجاج . لم ارد اذن احداً من هؤلاء الثلاثة الكرام الذين يكتبون في الجمهورية ، بل لم ارد احداً بعينه كما قلت ، وانما اردت هذه النزعة الجاححة التي تحتاج الى ان نردها الى شيء من القصد والاعتدال .

واخرى لا اريد ان ادع هذا الحديث دون ان ألمّ بها الماماً سريعاً . وانا في هذا الامام اريد شخصاً بعينه وهو يعرف نفسه وقد يعرفه كثير من الناس دون ان احتاج الى تسميته . وهذا الموضوع الذي اريد ان ألمّ به هو هذه الشعبية الحديثة التي اخذت تمعن في هذه الايام في لون من العنف لا اعرف له موضعاً ولا موضوعاً . فالادب العربي عند هذا الاستاذ الكريم هباء كله لا يغني عن الناس شيئاً لان الف سنة تحول بيننا وبين اعلامه والافذاذ من رجاله ،

فصلتُنا بهذا الادب مقطوعة او كالمقطوعة ، والطلاب في
المعاهد والجامعات اشد حاجة الى ان يدرسوا فولتير وروسو
وبرنارد شو ومن اليهم من اعلام الادب الحديث ، منهم
الى ان يدرسوا ادبنا العربي ذاك الذي بعد به العهد
وطالت عليه القرون . في هذا الكلام سرفٌ يضر كثيراً
ولا يجدي على قائله ولا على غيره من قارئيه شيئاً ، وانما
هو يُحفظ ويسوء ويغري بما لا ينبغي ان يغري به الناس
في هذه الايام ، لانه ينقل الحُصومة من تجديد الادب الى
الادب العربي القديم كله اقيم هو ام سخيّف .. اندرسه ام
لا ندرسه ... انتفع بدرسه ام نضيع ما نتفق فيه من
الوقت والجهد . وهذه الحُصومة كما ترى سخيّف كلها لا تغني
عن احد شيئاً . فان يضير الادب العربي ولن يفض منه ان
يرضى عنه فلان او يسخط عليه ، وقد عملت اجيال كثيرة
من الناس في قرون طويلة من الدهر على ان تفضّ من
هذا الادب فلم تضيع شيئاً . لم يفضّ منه تسلط الترك ولا
غارات التتار ولا الحروب الصليبية ، وانما قاوم هذا كله
مقاومة رائعة وانتصر على هذا كله انتصاراً رائعاً ، واستأنف
من الحياة والقوة والحُصب ما يملأ الارض به جمالاً ونوراً .
ولم يدعُ احد الى اهمال الادب الحديث ، ولم تقصر
جامعة من جامعاتنا المدنية في درسه لطلابنا وهي لم تبلغ
الكمال في هذا الدرس ، كما انها لم تبلغ الكمال في درس
الادب العربي لأن الكمال شيء لا يُبلغ وانما يسعى الناس

اليه وينتفعون بسعيهم اليه . وما اعرف ان جامعاتنا قصرت في هذا السعي او نكلت عنه . ومن السخف كل السخف ان يحكم في سهولة ويسر بالعقم على ادب عاشت عليه الانسانية المتحضرة قروناً واثاح لهذا الادب الحديث ما يمتاز به من قوة وخصب ، من روعة وجمال . وانه لمن المؤلم الممض حقاً ان نقرأ بمصر في هذه الايام كهذا الذي نقرأه بين حين وحين ، وان نقرأ في الوقت نفسه كتباً تؤلف ومقالات تنشر في تمجيد هذا الادب والاشادة به في اوربا هذه التي يُفتن بها بعضنا فتوناً . والاستاذ الذي كتب هذا الكلام يعرف حق المعرفة اني لن أتهم بالغض من الادب الاوروبي الحديث ، وقد كنت من اسد الناس ترغيباً فيه ومشاركة في نشره وتقريبه الى العقول العربية . فاذا ضقت بهذا الكلام الذي يذيعه في غير روية ولا اناة فلا يدفعني الى هذا تعصب للقديم او تعصب على الحديث ، وانما يدفعني اليه ايثار القصد والاعتدال على الاسراف والجروح . وقد قامت حياتنا الحديثة على احياء الادب العربي ودرس الآداب الاوروبية الحديثة . وستقوم دائماً على هذين العنصرين من عناصر الحياة الحُصيبة . وعلى هذين العنصرين نفسيهما ، قامت حياة العرب القدماء او قل حياة الامة الاسلامية القديمة على احياء الادب العربي ودرس الثقافات الاجنبية التي عرفت في تلك العصور . فنحن نسلك نفس الطريق التي سلكها القدماء ، نقيم حضارتنا الحديثة على ما اقام القدماء

عليه حضارتهم تلك المزهرة .

ما اشد حاجة الاستاذ الى القصد في هذه الاقوال التي لا تدل على شيء .

والاستاذ نفسه يسرف ويجمع مرة اخرى حين يزعم ان ادبنا الحديث لم يعرف الثورة ولم يدع اليها لانه قام على الخوف ولان الذين انتجوه كانوا خائفين ، وهو لا يسوء الادباء لان احداً لا يسمع له ولا يصدقه ، بل هو لا يسوء نفسه وان اراد باسرافه ان يسوءها ، فهو من شيوخ الادباء الذين دعوا الى التجديد وشاركوا فيه ومهدوا للثورة فاحسنوا التمهيد .

وخلاصة هذا كله ان حياتنا الالية الحديثة اذا احتاجت الى شيء في هذه الايام فانما تحتاج اول ما تحتاج الى الاعتدال في الحكم وحسن التقدير للامور والتأني والاستبصار قبل الاقدام على الكتابة والاذاعة . ذلك اجدر ان يتيح لادبنا الحديث من النهوض والرقى والخصب وتصوير الحياة والتعبير عنها بعض ما يطمع فيه ويطمح اليه .

صورة الأدب



اما اليوم فاني أريد ان أثير خلافاً جديداً بين الأدباء ،
بعد ذلك الخلاف القديم الذي لم ينقض بعد وما ارى انه
سينقضي اليوم او غداً ، بل ما ارى انه سينقضي قبل ان ترضى
حاجات الناس من حياتهم وإن أتيح لحاجات الناس ان
ترضى في يوم من الايام .

فقد تعلمنا فيما تعلمنا ان الجنة التي وعد الله عباده المتقين
هي التي سترضى فيها حاجات الناس الى اقصى ما يمكن
ان يبلغ الرضى لان فيها كل ما يمكن ان يشتهى وكل
ما يمكن ان يلذ وما لا يخطر على قلوب الناس .

وقد صور ابو العلاء في رسالة الغفران طرفاً من هذا
الرضى الذي سيتاح لاهل الجنة المتقين فأحسن التصوير
وجود فيه ، سواء أكان قد قصد به الى الجذام قصد به

الى الدعاية والفكاهة . والمهم هو ان حاجات الناس في هذه الدنيا لن تنقضي لان حاجة من عاش لا تنقضي كما قال الشاعر القديم .

واذن فسيكون بين الناس دائماً قوم يريدون الادب على ان يكون وسيلة الى إرضاء الحاجات وطريقاً في بلوغ المآرب . وسيكون بينهم قوم آخرون يرتفعون بهذه الحاجات عن الاغراض والاعراض التي يبتغي الناس في حياتهم اليومية المادية ، الى اغراض أخرى تبتغيها القلوب والعقول والاذواق . ولن يكره هؤلاء للادب ان يصور بؤس البائس وجوع الجائع وحرمان المحروم بشرط الا يفرض ذلك عليه فرضاً ولا يأخذه بذلك قانون أو مرسوم او مذهب سياسي محتوم .

سيختلف الناس اذن دائماً في معنى الحياة التي ينبغي ان يكون الادب وسيلة اليها فهي حياة الجسم أم حياة الروح ، أم حياة الجسم والروح معاً .

وكم أحب للاستاذ مظهر وله خاصة ان يتفكر في هذا في أناة وروية وان يخلو به الى نفسه ساعة من نهار أو ساعة من ليل . فقد يتغير رأيه شيئاً وقد يحتاج الى ان يحتاط ويستأني ، فما اعرف انه من الذين يريدون ان ينزلوا بالادب الى حيث يكون وسيلة الى ارضاء الحاجات المادية للناس في حياتهم هذه التي يحيونها ، وإني لاقرأ له بين حين وحين احاديث تروقي وترضيني ، وهي مع ذلك لا تطعم

جائعاً ولا تسقي صادياً ولا تكسو عارياً ولكنها تسلي
البائس عن بؤسه والمحروم عن حرمانه إن كان له قلب
او القى السمع وهو شهيد ، لانها تس مسائل تعني الروح
وحده ولا تعني الجسم من قريب أو بعيد ، تسمو الى ما
بعد الطبيعة وتنأى عن الطبيعة نفسها نأياً شديداً .

ليفكر الاستاذ في هذا كله ، فقد يأخذ أمر الادب
على طبيعته كما ينبغي أن يؤخذ . وقد يراه فناً يلتمس
الجمال حيثما وجد اليه سبيلاً ، يأخذه من بؤس البائس
وسعادة السعيد ، ويأخذه من المادة المظلمة ومن الروح
المشرق ، ويأخذه من الارض إن وجدته في الارض ومن
السماء إن وجدته في السماء ، ويختوره اختراعاً من اعماق نفسه
ان لم يجده هنا أو هناك .

لنختلف اذن في الادب أوسيلة هو أم غاية ، واذا كان
وسيلة فالى أي شيء نتوصل به . ولكني اريد ان أثير
اختلافاً آخر ، فما أحب للادباء ان يطمئنوا ولا ان تستقر
نفوسهم في الوسائل والغايات ، وانما احب لهم ان يختصموا
وان يختصموا دائماً لاني أجد في خصومتهم رضى ومتاعاً .
وعسى ان يكون في خصومتهم للناس مثل ما أجد فيها
من الرضى والمتاع . فما عسى ان تكون صورة هذا
الادب الذي يريده بعضنا على ان يكون وسيلة طبيعة ،
ويريده بعضنا الآخر ان يكون غاية سامية نبيلة ؟ أتكون
هذه الصورة شيئاً نأخذه كما نجده ونقول فيه مثل ما قال

ذلك التاجر العامي للجاحظ في بعض عروض التجارة : كما
يجيء يكون .

او نأخذ كما يقول العامة في هذه الايام حيثما اتفق .
ام تكون شيئاً آخر نستأني به ونتلطف له ولا نخرجه
للناس الا شائفاً رائقاً حسن الموقع في الاذن والقلب
والعقل والذوق جميعاً ؟

هذه هي القضية التي اريد ان اعرف فيها رأي الشباب
من ادبائنا لاني اعرف فيها رأي الشيوخ .

اريد شبابنا ان يأخذوا الادب كما يجيء وان يقولوا
لنا كما يقول بعضهم لبعض وكما كان يقول ذلك التاجر
القديم : كما يجيء يكون ؟ ام يريدون ان يكون الادب
جميلاً في مادته وصورته جميعاً ؟ والجمال لا يأتي عفواً الا
في القليل النادر . وهو يحتاج اكثر الاحيان الى فنون
من الجهد وصنوف من العناء والى كثير من الوقت
وكثير من المحاولة والمزاولة والمطاوله . وما احب ان
يظن الشباب من الادباء اني اثيرهم رغبة في اثارهم ، او
تلهياً بما يكون من أمرهم حين يثورون . فاني اجد في
ذلك شيئاً من الرضى والمتاع من غير شك ، ولكن الرضا
والمتاع وحدهما ليسا هما اللذين يدفعاني الى اثاره هذه
القضية ، وانما يدفعني اليها ما اراه من ميل الشباب الى
التهاون في التعبير كما يتهاونون في التفكير احياناً . تخطر
لكثير منهم القضية فيسرع الى تسجيلها ثم يسرع الى

اخراجها للناس ، لا يحقق معناها ولا يستأنى به حتى يتم
نضجه ، ولا يتأنق في صورتها ولا يجتهد في تسويتها حتى تخرج
نقية رضية تستهوي النفوس ويحسن موقعها في القلوب .

وانا اعلم اننا نعيش في عصر السرعة وان وقتنا يعدل
الاضعاف المضاعفة من وقت القدماء ، فيومنا يعدل شهوراً
من شهورهم ، وشهرنا يعدل اعواماً من اعوامهم ، وعامنا
يعدل من اعوامهم عشرات .

اعلم هذا واعلم ان حاجتنا كثيرة ، وانها عاجلة ،
وانها تزدهم وتختصم ، وتتدافع ويصدم بعضها بعضاً ،
ويناقض بعضها بعضاً ، في كثير من الاحيان ، وهي
بذلك تستغرق من وقتنا اكثره ومن جهدنا اعظمه ،
وتوشك الا تترك لنا شيئاً من الوقت لنستأنى بالتفكير او
سمه شيئاً من الجهد لنتناق في التعبير . واعلم بعد هذا
كله ان كثيراً منا يكتبون ادبهم لينشر في الصحف ،
وللصحف ضروراتها التي تقتضيها السرعة والدقة والنظام .
فالكاتب رهن بكل هذه الضرورات ، ولكني مع ذلك ،
بل على رغم ذلك ، اريد للادب ان يكون عصياً ايّاً لا
يكتب لينشر في الصحف بل ينشر في الصحف لانه كتب .
وانا اريد اكثر من هذا ، اريد الا يكتب الادب لينشر
في الكتب وانما ينشر في الكتب لانه قد انتج واصبح
نشره يسيراً .

ومعنى هذا كله اني اريد للادب ان يكون قبل كل

شيء وعلى رغم كل شيء مقاومة بأدق ما لهذه الكلمة من
 معنى ، مقاومة للنفس التي قد تكره الجهد وتضيق بالعناء
 وتنوء بالمشقات . ولا بد للاديب من ان يروضها ،
 ويسوسها حتى تألف الجهد والعناء والمشقة وترى انها ايسر
 ما يجب لانتاج الادب الرفيع الذي يستحق وحده ان
 ان يسمى ادباً ، ومقاومة للحاجات الكثيرة العاجلة
 المزدحمة . فما ينبغي ان يكتب الادب ليتيح ارضاء
 حاجاته مهما تكن هذه الحاجات ، بل ينبغي ان يكتب لانه
 الح على الاديب واشتد في الاحاح حتى شغله عن حاجاته
 وأهله عن منافعهم ، وانساه انه في حاجة الى الطعام
 والشراب وغير الطعام والشراب من حاجاته الملحة .
 ومقاومة بعد هذا كله لمرض السرعة الذي تفرضه حياتنا
 الجديدة . فليس الاديب محتاجاً الى ان يسرع في الانتاج
 لان الدنيا من حوله تجري حتى توشك ان تنقطع انفاسها ،
 وانما الاديب محتاج الى ان يستأنى ويستأنى والى ان
 يجتهد ويكدّ ويحتمل صنوف العناء ليخرج ادبه كما ينبغي
 ان يكون لا ليجيء ادبه كما يمكن ان يكون . ومقاومة
 بعد هذا وذاك لضرورات الصحف والمطابع . فلا على
 الاديب ان تفوته صحيفته اذا لم يتح له ان يمدها بما تنتظر
 منه . ولا على الاديب ان يغضب اصحاب المطبعة ان
 أبطأ به الانتاج عما ضربوا له من موعد . ذلك كله خير
 له من ان يتعجل فيرضي الصحيفة والمطبعة ويسخط الفن

ويفسد ادبه وقد يفسد معه ذوق كثير من القراء .
وهنا تنكر الصحف وتثور ، فهي لا تستطيع ان
تنتظر الادب حتى يتم نضجه ويصبح نشره شيئاً لا حرج
فيه . فمن اراد ان يكتب لها على شرطها فليفعل ، ومن
ابى الا ان يكتب على شرط الادب فليتمس لنفسه مذهباً
آخر من مذاهب النشر ، وطريقاً اخرى من طرق
الكسب . وهذه مشكلة عرضت للادب منذ كانت الصحف .
وكلت نفسها بنفسها فنشأ لها فنّ بين ذلك ليس هو بالكلام
السوقه الذي لا قيمة له ولا هو بالادب الرفيع الذي
يكلف صاحبه الكد والجهد والعناء ، وانما هو فن وسط
يحتل منزلة بين المنزلتين ، في اكثره من الادب روح وفيه
مع ذلك من اليسر والسهولة واللين والمؤاتاة ما يلائم السرعة
والانتظام .

والخطر كل الخطر الذي يتورط فيه كثير من الناس
وقد تورط فيه جيلنا هذا الذي نعيش فيه اقوماً يَحْصُونَ
هو ان نكتفي بها الفن الوسط فنراه الادب كل الادب .
ونقنع به لنرضي حاجة نفوسنا الى الجمال الرفيع ، وحاجة
قلوبنا واذواقنا الى الغذاء الممتاز .

شأن ما بين ادب يكلف صاحبه جهد النهار وأرق الليل
قبل ان يظفر منه بما يبتغي وبما يرضي ذوقه ان يقدمه الى
الناس ، وكلام آخر يكتب لان الحاجة والصحيفة والمطبعة
اقتضت ان يكتب ويقدم وينشر في اوقات معينة وفي

موضوعات لعلها لم تكن تخطر للكاتب على بال ، ولعل
كثيراً منها ان يكون قد فوجأ الكاتب على غير توقع له ،
ولعل بعضها ان تُفرض الكتابة فيه على الكاتب فرضاً .
ولست ادري اي كتابنا القدماء ذاك الذي اعجب الناس
ببراعته ومهارته واراد بعض الامراء ان يختبر طبعه وقدرته
على الاستجابة لدعوة الفن ، فطلب اليه ان يكتب لساعته
بعض ما تعود من فصوله الجميلة الرائعة . فاقبل على دواته
وقرطاسه وانتظر وأطال الانتظار وجدّ وكلف نفسه من
الجد ما لم تتعود ، ولكنه لم يصنع شيئاً وسخر الناس منه
ولم يكن من حقهم ان يسخروا .

فالادب لا يستجيب لكل دعوة ولا يطيع كل امر ،
وهو لا يجيب الاديب نفسه كلما دعاه ، وانما الاديب هو الذي
ينبغي ان يكون على اهبة لاجابة الادب حين يدعوه .
ولأمر ما قال ذلك المعلم القديم من شيوخ المعتزلة لبعض
الطلاب : خذ من وقتك ساعة نشاطك وفراغ بالك .
وساعة النشاط وفراغ البال هذه لا تأتي حين تريدها الصحيفة
او المطبعة ولا حين يريدها الاديب نفسه ، وانما تأتي حين
تريد هي ان تأتي . والادب بعد ذلك يستطيع ان يؤاتي
الاديب في هذه الساعة كما يستطيع ان يعرض عنه اعراضاً .
وبين الادب والاديب فنون من الحسام والعناد يعرفها
الادباء المطبوعون ، فما اكثر ما يشعر الاديب بالحاجة الى
الكتابة وبالميل اليها والرغبة الشديدة فيها . فيتهيأ لها

ويدعوها بما الف من وسائل الدعاء ولكنها لا تحفل به
ولا تستجيب له فيشغل نفسه بما شاء الله من الوان العمل .
وما اكثر ما يكون الاديب ماضياً فيما يمضي الناس فيه
من امور الحياة ، لا يفكر في نثر ولا في شعر ولا في
شيء يشبه الشعر او النثر من قريب او بعيد ، ولكن
داعي الكتابة يدعوه ويلح عليه ثم يملك عليه نفسه ، واذا هو
ينصرف عما كان ماضياً فيه الى الكتابة والانشاء . وربما
كان من اخص خصائص الادب انه هكذا عصي ابي
متمنع متشدد في التمتع حين يراد على نفسه ثم هو بعد
ذلك رضيّ سمح طبع ، حين لا يدعوه داع ولا يفكر
فيه مفكر .

والادباء يعرفون هذا كما يعرفون انفسهم ، ولهم في
سياسة الادب ورياضته وتذليله وتذليله فنون ومذاهب
يمكن ان يطول فيها القول الذي لا يخلو من طرافة ولا
يتعرض لسامة او إملال .

واذن فكيف ينبغي ان يكون هذا الادب العصي
الابيّ حين يخرج للناس ليهدي اليهم الراحة والروح ،
ويرفعهم الى حيث يستمتعون بالجمال الصفو الذي تأنس اليه
وتنعم به كرام النفوس ؟

يجب ان يكون جميلاً ما في ذلك شك . وما رأيك في
شيء تقرأه فيشعرك بالجمال الذي لا يلبث ان يملأ نفسك
وقلبك وان يأخذ عليك حياتك من جميع اقطارها مع انه

قد يريد الى ان يصور لك القبح القبيح ، واقرأ شعر بودليز
فسترى من ذلك الاعاجيب . وقد ذكرت بودليز وفي
ذهني آخرون من معاصريه او الذين جاءوا بعده من
الفرنسيين والانجليز . ذكرت هؤلاء متعمداً ولم ارد ان
اذكر القدماء من شعرائنا فقد ينبو كثير من شبابنا عن
هؤلاء القدماء لاسباب منها ما يقال ومنها ما لا يقال .
يجب اذن ان يكون الادب جميلاً ، ولكن اين يكون
جماله ! أليكون في معانيه ام يكون في الفاظه ، ام يكون
في نظامه واسلوبه ، ام يكون في هذا كله اجمع ؟
في هذا يختلف النقاد اختلافاً شديداً منذ اقدم العصور
التي فكر فيها الناس في الادب وتحدثوا عنه . فقد كره
كثير من قدمائنا شعر ابي تمام لانه احتفل لمعانيه وأكره
الالفاظ على ان تدعن لهذه المعاني ، وذهب في جمال
الالفاظ والمعاني مذهباً لم يألفه الشعراء الاقدمون . فقالوا
انه اسرف في الاستعارة والمجاز ودفع الى كثير من
الاغراب واتى الناس بما لم يألفوا ، وانحرف عن السنة
الموروثة وعنف باللغة حتى كلفها شططاً .

وقوم آخرون احبوا ابا تمام لهذه الحصال نفسها . رأوا
انه قد مال بهم عن الطرق المطروقة والمذاهب المألوفة
واطرفهم باشياء جديدة شغلتهم عما كان القدماء يبدأون
فيه ويعيدون . ولم يتجه الى آذانهم وحدها ولا الى قلوبهم
واذواقهم وحدها وانما اتجه اليها والى العقول فاضطرها الى

ان تعنى بالشعر وان تقف عنده فتطيل الوقوف ، وان تستخرج مكنونه وتنعم بنتيجة ما تكلفت من جهد وما احتملت من عناء وتشعر كلما فهمت بيتاً او ذقت قصيدة انها قد استخرجت كنزاً من اعماق الارض او لؤلؤاً من اغوار البحر ، ولم تصل الى استخراجها الا بعد المشقة الشاقة والعسر العسير . وقوم ضاقوا بمسلم بن الوليد لانه احتفل بالالفاظ اكثر من احتفاله بالمعاني ، وجعل يتكلف بينها نعتاً من الموسيقى التي تأتي من المطابقة والجناس وما اليهما من هذه المحسنات المختلفة التي تزين اللفظ في الاذن وتخضع المعنى لهذه الزينة ، فتجعله تابعاً ومن حقه ان يكون متبوعاً . وآخرون كلفوا بمسلم لهذه الصفات نفسها فهم قد ألفوا الاستمتاع بالموسيقى واحبوا ان يجدوا هذه الموسيقى في كل ما يرون ويسمعون .

وليس المحدثون من الاوربيين اقل اختلافاً في ذلك من القدماء ، فمنهم من يؤثر جمال اللفظ والمعنى على ان يكون هذا الجمال قريباً داني القطوف ، لا تجد العقول والاذواق والقلوب جهداً ولا مشقة في فهمه وذوقه والاستمتاع به . ومنهم من يناون عن هذا كله وينهون عنه ويضيقون بالحياة كما يحياها الناس ، وبكل هذه الاشياء التي الفها الناس مصبحين وممسين ويلتمسون الجمال الادبي في حياة يتكرونها هم ويخترعونها اختراعاً وهم يأتون في ذلك بالاعاجيب التي اقرأها انا وقرأها كثير غيري فلا نفهم

منها شيئاً ولا نذوق منها شيئاً وربما دفعتنا الى الاغراق
في الضحك المتصل .

والذين درسوا الاداب الاجنبية يعرفون من هذا
الاختلاف شيئاً كثيراً ، ولعل منهم من حاول ان يصنع
في ادبنا العربي مثلما صنع بعض المحدثين من الاوربيين في
آدابهم .

وقد حدثت في اعقاب الحرب الاخيرة بان فتى رومانياً
اقبل ذات يوم الى باريس وله مذهب في الفن الادبي
طريف اراد ان يقنع به شيوخ الادب فلم يجد عندهم
شيئاً ، وحاول ان يفتن به الشباب فاستجاب له بعضهم
وقتاً قصيراً ثم انصرفوا عنه ولم يعودوا اليه . ولست
ادري لام صار امر هذا الفتى . واكبر الظن انه عاد الى
حظيرة الادباء المألوفة او التمس وجهاً آخر من وجوه
الحياة . وكان مذهبه يسيراً جداً ولكنه سخيّف جداً ،
فهو قد ضاق بالحياة التي يحياها الناس وضاق بالادب الذي
يألفونه وباللغات التي يتكلمونها ، واراد ان يحدث الموسيقى
الادبية بالملاءمة لا بين الالفاظ التي تأتلف منها اللغات بل
بين الحروف التي تتكون منها الالفاظ . وتستطيع انت
ان تتصور هذا النوع من الهوس وان تقطع بانه قد انتهى
الى ما لم يكن بد من ان ينتهي اليه .

الادباء اذن يختلفون منذ اقدم العصور في جمال
الادب اين يكون ! ايكون في الفاظه ام يكون في

معانيه ؟ ام يكون في الالفاظ والمعاني جميعاً ؟ وقد رأيت
بعض الشعراء المعاصرين من الفرنسيين من كان يقول
ويكتب في غير كتاب من كتبه ان بين الشعر والنثر
فرقاً خطيراً . فالنثر يُقتل بمجرد ان يفهم ، فانت لا تكاد تقرأ
نثراً في كتاب او مقالة وتفهمه الا قتلته واستلكت روحه
واستأثرت بها ، واصبح الكتاب او المقالة شيئاً هامداً لا
حياة فيه بالقياس اليك ، فهو كدنّ ابي نواس حيث يقول :
ما زلتُ أستلّ روح الدنّ في لطف

وأستقي دمه من جوف مجروح

حتى انثنت ولي روحان في جسدي

والدنّ منطرح جسماً بلا روح

ذلك شأن النثر . فاما الشعر فله شأن آخر لان جماله
لا يأتي من فهم معانيه فلا سبيل الى قتله ولا الى استلال
روحه ، وانما يأتي جماله من الفاظه وصوره وهذه الأخيلة
التي تثيرها ألفاظه وصوره في نفسك والتي لا سبيل الى ان
تستل منه او تفصل عنه ، كما انه لا سبيل الى ان تجرد
الشعر من الفاظه او تنتزع منه صورته انتزاعاً .

فالشعر باقٍ لانه اقوى واشد امتناعاً من ان يفهم ،
ومن اجل ذلك فهو اقوى واشد امتناعاً من ان يدركه
الفناء .

كذلك كان يقول بول فاليري ، وكذلك كان يكتب
في كثير من كتبه ورسائله .

واظن هذا كله يكفي لبيان ما اردت الى تبينه
من اختلاف الادباء في جميع العصور حول الجمال الادبي
ان يكون ؟ ومن ان يأتي ؟ ولكنهم متفقون دائماً على
ان الادب لا يكون الا جميلاً لان طبيعته تقتضي ذلك ،
وهو لم يوجد الا للسمو بالنفس الى حيث تشهد المشاهد
الرفيعة من الجمال . شأنه في ذلك شأن غيره من الفنون
الجميلة ، فانت لا تدري من اين يأتي جمال الصورة التي
تعجبك وتروقك أيأتي من اللون ام يأتي من شيء آخر وراء
اللون . وما عسى ان يكون هذا الشيء ؟ وانت تعلم
حق العلم انك قد ترى شخصاً من الاشخاص فلا يروقك
ولا يشوقك ولا يقع من نفسك موقعاً ذا بال ، ولكنك
ترى لهذا الشخص نفسه صورة قد اتقن المصور تصويرها
فتقف عندها وتطيل الوقوف ولا تكره ان تعود اليها
لتراها حيناً بعد حين .

وانت لا تدري ما مصدر الجمال الذي يروقك ويبهرك
حين ترى تمثالاً رائعاً ، أهو مادة التمثال .. هيهات ،
انك ترى هذه المادة على أصلها فلا تثير في نفسك شيئاً ،
أهو موضوع التمثال ؟ هيهات ، ان امر موضوع التمثال
كأمر موضوع الصورة ، فما اكثر ما يصور المصورون ويمثل
المثالون معاني لا ترى وقيماً تحسها النفوس والعقول .
وانت حين تسمع لحناً رائعاً فيسجرك ويخطف نفسك
فيسمو بها الى حيث لم تكن تقدر ان تبلغ ، لا تستطيع

ان تحدد هذا الجمال ولا ان تعرف معرفة دقيقة من
اين يأتي .

فخذ الادب اذن كما تأخذ الموسيقى والنحت والرسم
والتصوير . خذه على أنه متعة لروحك وغذاء لقلبك وعقلك ،
وليكن جمال الادب حيث يمكن ان يكون . ليكون في
الالفاظ او في المعاني او في النظم والاسلوب او في هذا
كله . والادب آخر الامر فن من الموسيقى يألف من
هذه الاشياء كلها ، من الالفاظ والمعاني والاساليب وما
يعرض من صور وما يثير من عواطف وما يبعث من
شعور . فليكن جماله شيئاً شائعاً لا يستطيع احد ان
يقول انه ينحصر في اللفظ أو في المعنى أو في الاسلوب .
وانما الشيء الذي ليس فيه شك هو ان الكلام لا
يكون ادباً حتى يوجد فيه هذا الجمال الذي تجده فيما
تنتجه الفنون الجميلة الاخرى . وليكن موضوع الادب
بعد ذلك ما يكون . ليكون في الارض او في الجو أو
في نفس الانسان ، واعماق الضمير . ليكون موضوعه جميلاً
أو قبيحاً ، محبباً أو بغيضاً ، فليس يعني من الادب الا
ان يحدث في نفسي ما يجدثه الاثر الفني من هذا الشعور
الرفيع بالجمال . فابن نحن من هذا كله حين نستحضر
الادب وحين نفكر فيه أو نتحدث عنه ، اترانا نستحضر كل
هذه المعاني ، أم ترانا لا نستحضر إلا حاجاتنا وما ربنا
والوسائل التي تبلغنا هذه الحاجات وهذه المآرب ؟ وكذلك

نعود الى حيث ابتدأنا ، مع اني لم افكر قط في ان
أعود الى حيث ابتدأت ولا في ان اتحدث عن الادب ،
اوسيلة هوام غاية .. وانما اردت ان اتحدث عن صورة
الادب . وقد استبان لك كما استبان لي ان من أعسر العسر
ان تفصل بين صورة الادب ومادته . فالادب يوشك الا
يخضع لهذا النوع من التحليل الذي يعمد اليه العلماء
واصحاب الكيمياء منهم خاصة . فاذا عمد النقاد الى تحليله
فهم يقاربون ولا يحققون . وآية ذلك انهم لا يتفقون
ولا سبيل الى ان يتفقوا على حقائق مقررة للنقد كذلك
الحقائق المقررة في الطبيعة والكيمياء وغيرها من العلوم .
ومن هذه الحقائق المقاربة التي يتحدث فيها النقاد فيكثر
فيها الحديث ان اللغة هي صورة الادب وان المعاني
هي مادته ، وهذا كلام مقارب لا تحقيق فيه . فكثير
من النقاد القدماء خاصة تصوروا ان المعاني تشبه الاجسام
وان الالفاظ تشبه الثياب وان المعنى الجميل كالجسم الجميل
يجب ان يختار له الزي الرائق الذي يظهر فيه . وهذا
كلام اذا حاولنا تحقيقه لم نجد وراءه شيئاً ، فنحن نعرف
الاجسام قبل ان تلبس الثياب . ونعرف الثياب قبل ان
تسبغ على الاجسام ، ونستطيع ان نحقق الفصل بينها .
ولكننا لا نعرف المعاني المجردة التي لم تتخذ ثيابها من
الالفاظ . ولا نعرف الالفاظ الفارغة التي تنتظر المعاني
لتلبسها وانما نعرف الالفاظ والمعاني ممتزجة متحدة

لا تستطيع ان تنفصل ولا ان تفترق ، وما اعلم اننا نستطيع ان نتبادل المعاني مجردة دون ما يدل عليها من لفظ أو صورة أو رمز ، وما أعلم اننا نستطيع ان نتبادل الالفاظ الجوف التي لا تدل على شيء فليس ذلك من شأن العقلاء وانما هو شيء قد يعرض للمحمومين والمجانين .

واذن فصورة الادب ومادته شيئان لا يفترقان او هما شيء واحد اذا شئت ، وأضف اليها عنصراً ثالثاً ان صح ان يستعمل العدد في مثل هذا الموضع . وهذا العنصر يلزمهما لزوماً لا فكاً منه وهو عنصر الجمال ، فالناس يتحدثون بالالفاظ التي تدل على المعاني ، وهم يتبادلون ما يدور في رؤوسهم من الخواطر ويحققون بهذه الالفاظ ذوات المعاني ما يحتاجون اليه من الاغراض والآداب ، ولكنهم في احاديثهم وفي قضاء اغراضهم وآراهم لا ينشئون ادباً الا ان يعتمدوا ذلك ويستأنوا به ويقصدوا اليه حين يكتب احدهم الى صاحبه رسالة يضع فيها خلاصة نفسه ، في هذه الصورة الجميلة الرائعة التي نسميها ادباً . وحين يكتب احدهم لخاصة الناس او عامتهم رسالة يتبها لها ويتأنق فيها ويريد ان تبلغ قلوبهم وان تثير فيها ما يريد ان يثير من العواطف والشعور .

وقل مثل ذلك في التحدث الى الافراد والجماعات وفي الاسفار التي تكتب ويراد ببعضها الى الفن الرفيع وبيعها الآخر الى اداء ما يمكن ان يحتاج الناس الى ادائه من

المعاني ، حيثما وجد الجمال في الكلام كان الادب ، وحيثما
خلا الكلام من هذا الجمال كان ما شئت ان يكون !
كذلك فكر الادباء منذ اقدم العصور . وما ارى الا
انهم سيفكرون على هذا النحو ما اتاحت لهم الحضارة ،
وما ارى اننا نستطيع ان نتصور امة بادية او حاضرة
تعيش وتتخذ الكلام لغة دون ان يكون لها من هذا
الكلام ادب على هذا النحو ودون ان يكون لها من هذا
الكلام صور تحمل الجمال الى القلوب والاذواق والعقول .
وما ادري ايفهم ادباء الشباب هنا الادب على هذا النحو
ام لهم فيه مذهب آخر ، فان تكن الاولى فعند الصباح
يحمد القوم السرى كما يقول المثل القديم ، وان تكن الثانية
فما اشد حاجتي الى ان اقرأ لهم وأفهم عنهم وما اشك في
اني سأنتفع وسأستمتع بما يكتبون .

يُونَانِي فَلَا تُقْرَأُ



زعموا ان ناقدًا قديمًا سمع شاعرنا العظيم ابا تمام ينشد قصيدته المشهورة :

أهنيّ عوادي يوسف وصواحيبه

فعزماً فقدماً ادرك السؤل طالبه

فقال له لم لا تقول ما يفهم ؟ فأجابه ابو تمام ولم لا تفهم ما يقال ؟

ذكرت هذه القصة حين قرأت ما وجه اليّ الاديبان الكريمان عبد العظيم انيس ومحمود امين العالم منذ حين في صحيفة المصري الغراء حول ما كتبت عن صورة الادب ومادته . وذلك اني قرأت المقال فلم افهمه فسألت نفسي ما بال هذين الادبيين لا يكتبان ما يفهم ثم قلت لنفسي

قبل ان يقولوا لي ، ولم لا أفهم انا ما يكتبان . واعدت قراءة المقال في اناة وعناية وتنبيه ولكني لم أفهم في القراءة الثانية اكثر مما فهمت في القراءة الاولى . فقلت لنفسي كما قلت لها اثر القراءة الاولى ، ثم اجبت بما اجبت به اثر تلك القراءة ايضاً .

وقرأت المقال للمرة الثالثة فلم ازدد فهماً ، وانما وقفت بعد هذه القراءة أسأل نفسي لم لا يكتب الاديبان الكريمان ما يفهم ؟ ثم اجبت نفسي هذه المرة بأن فهمي هو الذي قل حده وادركه الفتور والقصور فعبجز عن أن ينفذ الى دقائق الادب وروائع ما ينشر للناس .

فالاديبان من غير شك عليان ماذا يريدان ان يقولوا ، ولولا ان علمها بذلك واضح عندهما كل الوضوح مشرق في نفوسهما كل الاشراق لما دفعاه الى صحيفة المصري لتشره ولولا ان الصحيفة فهمته اوضح الفهم ، وذاقته احسن الذوق وادقه لما نشرته ولما شغلت به الناس .

ثم رأيت الاستاذ العقاد يناقش الاديبين في بعض ما كتبوا في شيء من القسوة القاسية والعنف العنيف ، فلم اسك في ان فهمي قد ادركه القصور والفتور حقاً ، فلولا ان الاستاذ العقاد قد فهم عن هذين الاديبين لما ناقشهما في قسوة او في لين ، ولكني قرأت كلام الاستاذ فرأيت يناقشهما بنوع خاص فيما اضاف الى من انه ما زال يذهب مذهب القدماء ويقرأ القصيدة فيعجب منها بالبيت ويرى ان هذا

البيت الذي اعجبه ، يعدل الالوف من امثاله والاستاذ
يرد الاديبيين الى الحق ويبين لهما انه قد خرج على هذا
المذهب القديم قبل ان يولدا في اكبر الظن اي منذ اربعين
عاماً . واذن فقد فهم الاستاذ العقاد ما قيل عنه في ذلك
المقال ولم ينبئنا بانه فهم او لم يفهم ما قيل عن الادب في
نفسه . واكبر الظن انه لم يفهمه كما لم افهمه وكما لم يفهمه
كثير غيره وغيري من الادباء الذين يحسنون القراءة والفهم
فيما علمت بعد شيء من السؤال والاستقصاء عند شباب
الادباء وشيوخهم . واذن فانا اكبر الاديبيين الكرميين من
ان يكتبوا ما لا يفهم وارى ان قصورنا عن فهم ما ارادوا
اليه انما يأتي من ان مدرستها الحديثة تخالف عما الفنا من
مناهج البحث ومذاهب القول واساليب التعبير عن ذات
النفوس وما اريد ان اتجنى عليها ولا ان اقول فيها غير
الحق فاقرا معي بعض ما يقولان :

« ولكن صورة الادب كما نراها ليست هي الاسلوب
الجامد وليست هي اللغة بل هي عملية داخلية في قلب
العمل الادبي لتشكيل مادته وابرار مقوماته . ونحن لا
نصف الصورة بانها عملية ، مشيرين بذلك الى الجهد الذي
يبدله الاديبي في تصوير المادة وتشكيلها ، بل لما تتصف
به الصورة نفسها في داخل العمل الادبي نفسه فهي حركة
متصلة في قلب العمل الادبي ، نتبصر بها في دوائره
ومحاوره ومنعطقاته ، وننتقل بها داخل العمل الادبي من

مستوى تعبيري الى مستوى تعبيري آخر حتى يتكامل
لدينا البناء الادبي كائناً عضوياً حياً . وبهذا الفهم الوظيفي
للصورة تتكشف امامنا ما بينها وبين المادة من تداخل
وتفاعل ضروريين . فمادة العمل الادبي ليست بدورها
معاني - كما يقول عميد الادب والمدرسة القديمة - بل
هي احداث تقع وتتحقق داخل العمل الادبي نفسه ويشارك
التذوق الادبي في وقوعها وتحقيقها .. »

اعربي هذا الكلام أم سرياني ! امكن ان يقرأه الرجل
المثقف ذو الثقافة العميقة الرفيعة او ذو الثقافة المتوسطة
القريبة فيخرج منه بطائل ويحصل منه شيئاً يمكن الاكتفاء
به والوقوف عنده للتأمل والمناقشة ؟ وما عسى ان يكون
هذا العمل الادبي ؟ وما عسى ان يكون قلبه ؟ وما
عسى ان تكون هذه العمليات الداخلية التي تقع في قلب
العمل الادبي ؟ وما عسى ان يكون اشتباك هذه العمليات
وافضاء بعضها الى بعض ليكمل بها العمل الادبي ويستقيم
كائناً عضوياً حياً ؟ لقد كان المثقفون في القرون الوسطى
الاوروبية يجهلون اليونانية فاذا عثروا على ما هو مكتوب
بالحروف اليونانية تركوه وقال بعضهم لبعض : يوناني فلا
يقرأ .

ثم أصبحت هذه الجملة كناية يعبر بها عما يصعب
فهمه ويستعصي تحصيله وتحقيقه كهذا الكلام الذي نقلت
لك طرفاً منه .

والمؤلم حقاً ان الاديبين وامثالهما يظنون انهم يقولون
كلاماً يفهم ويتحدث بعضهم الى بعض بهذا الكلام ويظنون
ان بعضهم يفهم عن بعض ، ثم يتحدثون الى الناس مثل
ما يتحدثون به اذا خلوا الى انفسهم ، فاذا لم يفهم الناس
عنهم رموهم بالجود وقالوا انهم من المدرسة القديمة . وما
عسى ان تكون هذه المدرسة القديمة التي تكتب فيقرأ
الناس ويفهمون عنها ، في غير مشقة ولا عناء ، ويستبقون
الى قراءة ما تكتب والى تذوقه ويرضون منه عما يرضون
ويسخطون منه على ما يسخطون ولكنهم يرضون عن فهم
ويسخطون عن فهم وقد يعيدون القراءة استزادة من المتاع
واستظهاراً لما يحبون ان يستظهِروا منه لا طلباً للفهم
وجداً في سبيل التحصيل والتحقيق وعجزاً آخر الامر
عن الفهم والتحصيل والتحقيق جميعاً .

وكيف يريد الاديبان وامثالهما ان اعرف او انكر
ما يقولون فانا لا نستطيع ان اعرف ولا أستطيع ان
أنكر الا بعد ان افهم واحصل واحقق فأقبل عن بصيرة
او ارفض عن بصيرة . فاما اذا عرضت عليّ الطلسمات
والالغاز التي لا سبيل الى فك رموزها فليست منها في
شيء وليست هي مني في شيء ، وانما اقرأ ثم أقول كما
كان يقال في القرون الوسطى يوناني فلا يقرأ . نعم يوناني
فلا يقرأ حتى اعرف قلب العمل الادبي وحتى اعرف هذه
العمليات التي تقع او تحدث او تجري في داخل هذا القلب

وحتى اعرف هذا الاشتباك الذي يكون بين هذه العمليات وكيف يفضي بعضها الى بعض .

وقد ذكر الاديبان بعض كتابنا القصاص على انهم يحسنون كتابة القصة على هذا المذهب الذي صوره في هذه الطلسمات والالغاز ، وهم الاساتذة محمود تيمور وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ .

وانا ازعم ان هؤلاء الكتاب من قصاصنا المجودين ليسوا احسن مني حظاً حين يقرأون هذا الكلام ، واخشى الا يجدوا مثل ما أجد من الصبر على قراءته مرة ومرة لانهم يؤثرون ان ينفقوا وقتهم فيما ينفعهم وينفع الناس وأن يقرأوا ما يجدون من ورائه طائلاً وما يظفرون فيه بغذاء للعقل او متعة للقلب والذوق .

فاما قلب العمل الادبي وداخله الذي تجري فيه العمليات وما يكون بين هذه العمليات من اشتباك وافضاء ، وهذه الكائنات العضوية الادبية التي تخرج من هذه العمليات فما اظن انهم يحفلون بها او يطيلون عندها الوقوف .

ولولا اني لا احب ان اقسو على الاديبين الكريمين ، كما قسا عليهما الاستاذ العقاد ، لرحمتها واشفقت عليهما من هذا العناء الذي لا غناء فيه لهما ولا لغيرهما من الذين يقرأون هذه الطلسمات التي لا يستطيع ان احقق لها رأساً او ذيلًا ولكن كلاً ميسر لما خلق له كما يقال . وأكبر الظن انها خلقت كما خلق امثالها لهذه الاحاجي والفنون

من الغز ينفقون فيها اوقاتهم ويريحون فيها قراءهم من الكلام الواضح الذي يفهم فيدعو الى التأمل والتدبر والتفكير .

واقراً ان شئت نتائج هذا الكلام التي استخلصها الاديبان من بحثهما هذا العجيب الظريف :
« ونحب ان نستخلص مما سبق ان ذكرنا الامور الاتية :
اولاً - ان مضمون الادب في جوهره احداث تعكس مواقف ووقائع اجتماعية .

ثانياً - ان الصورة الادبية او الصياغة عملية لتشكيل هذا المضمون وابرار عناصره وتنمية مقوماته .

ثالثاً - ان تحديد الدلالة الاجتماعية للمضمون الادبي لا يتعارض مع توكيد قيمة الصورة او الصياغة الادبية بل يساعد على الكشف عن كثير من الاسرار الصياغية .

رابعاً - ان النقد الادبي - على هذه الاسس السابقة - ليس دراسة لعملية الصياغة في صورتها الجامدة فحسب بل هو استيعاب لكافة مقومات العمل الادبي وما يتفاعل فيه من علاقات واحداث عمليات . وبهذا يصبح الكشف عن المضمون الاجتماعي ومتابعة العملية الصياغية للعمل الادبي مهمة واحدة متكاملة .

خامساً - ومن هذا تقرر كذلك ان العلاقة بين الصورة والمادة او بين الصياغة والمضمون لا تكون علاقة متآزرة متسقة الا في الاعمال الادبية الناجحة . اما العمل

الادبي الفاضل كذا .. فهو ذلك العمل الذي يقوم بين صياغته ومضمونه تخلخل وتنافر وعدم اتساق . وعلى هذا فان المدارس الفنية التي تهتم بالشكل كالسريالية كذا والمستقبلية مثلاً مدارس فنية غير مكتملة .

هذه هي الاسس العامة التي تقوم عليها حركتنا النقدية والابداعية على السواء . وبهذه الاسس نعد انفسنا على خلاف بـين مع اصحاب المدرسة القديمة .

وهذا الكلام نفهم بعضه في عناء ولا يفهم بعضه الاخر الا عند قائله او كاتبه ان استطاعوا له فهماً . والذي يفهم منه كلام يقال ، فاذا حققته لم تجد له معنى ذا خطر او قل لم تجده صحيحاً .

كالذي زعم الاديبان من ان مضمون الادب في جوهره أحداث تعكس مواقف ووقائع اجتماعية . فكل اثر ادبي لا يصور المواقف والوقائع الاجتماعية عند هؤلاء السادة ليس ادباً . ومعنى ذلك ان الادب لا ينبغي ان يصف الطبيعة التي نعيش معها على هذه الارض فالانهار والاشجار والجبال والسهول والوديان والحيوان وما شاء الله من هذه الاشياء التي تتألف منها الطبيعة لا تصلح موضوعاً او مضموناً للادب فيما يرون . والسماء ونجومها وكواكبها لا يمكن ان تكون موضوعاً للادب لانها ليست مواقف ولا وقائع اجتماعية . والرياح العاصفة والذسيم العليل والحر والبرد والسحاب والمطر والبرق

والرعد لا يمكن ان تكون موضوعاً للادب لانها ليست مواقف ولا وقائع اجتماعية .

واحساس الفرد وشعوره ومناجاته لنفسه عما يجول في ضميره من الخواطر وما يشور في قلبه من العواطف وما يضطرب في نفسه من المعاني لا يمكن ان تكون موضوعاً للادب لانها ليست مواقف ولا وقائع اجتماعية .

وقس على هذا كل ما يصور شيئاً غير المواقف والوقائع الاجتماعية لا يمكن ان يكون موضوعاً للادب . وكذلك تلغي اكثر الادب القديم والحديث لانه لا يصور البؤس والجوع وحاجة الناس الى ما يبسر حياتهم . فالانسان عند هؤلاء السادة وعند اساتذتهم ايضاً قد خُلق ليأكل ويشرب ويحيا حياة ميسرة ، فجده وجهده وتفكيره وتدبره وتأمله وشعوره وعواطفه - كل هذا يجب ان يتجه الى شيء واحد ليس غير وهو تيسير الحياة الاجتماعية وارضاء حاجات الناس التي تتصل باجسامهم وحدها . فصفوة الشعر الذي قاله القدماء والمحدثون وصفوة النثر ايضاً ليست ادباً لانها لا تصور مواقع ولا مواقف اجتماعية الا قليلاً . فمن شاء ان يلغي عقله وضميره وقلبه وروحه وان يصبح جسماً ليس غير فليسرع الى المدرسة التي يدعو اليها هؤلاء السادة ليأكلوا مريضاً وليشربوا هنئاً وليناموا وادعين وليكونوا كهذه الادوات الكثيرة التي نسيخها لمراقفنا المختلفة .

هذا مثل لما يفهم من كلام الاديبيين الكرمين . فاما ما

لا يفهم منه فكثير لا ادلك عليه لانك لست محتاجاً الى ان يدلك عليه احد . ومن الطبيعي ان يكون هؤلاء السادة على خلاف شديد الوضوح مع المدرسة التي يسمونها القديمة اي التي تقرر ان الانسان ليس جسماً فحسب وانما هو جسم وروح ، وان القيم ليست طعاماً وشراباً ودوراً وثياباً وانما هي خير وشر وحق وباطل وجمال وقبح الى آخر هذه الاشياء التي عاشت عليها الانسانية قبل ان تنشأ هذه المدرسة الحديثة في اواسط القرن الماضي .

ومن هنا نفهم ان يكون شعر إليوت غير ذي خطر لان هذا الشاعر الانجليزي مسيحي متعمق لدينه يؤمن بان له قلباً وعقلاً وروحاً وتسمو نفسه الى ما فوق المادة فهو لا يفرع للمواقف والوقائع الاجتماعية بالمعنى الذي يفهمه هذان الاديبان الكريمان وأمثالهما من اصحاب المادة الخالصة في الحياة .

اما الشاعر الروسي مايكوفسكي فشاعر عظيم حقاً عند هؤلاء السادة لانه يمجّد الحضارة الصناعية التي تتيح للناس ان يأكلوا ويشربوا ويناموا وينعموا بحياة رضية راضية . ومن هنا ايضاً كان الكاتب الايرلندي جيمس جويس غير ذي خطر لانه غني في قصته المشهورة اوليس بالضمير الفردي ووصف الانهيار النفسي وتحلل الشخصية الفردية . فأما الكاتب الروسي ايليا اهرنبورج فكاتب عظيم ما في ذلك شك لانه يصور الحياة الاجتماعية ومقاومة النازية

الالمانية في قصته العاصفة . ومثل هؤلاء السادة عندي مثل ذلك الاعرابي الذي اقبل من سفر بعيد وكان متعباً مكدوداً قد آذاه الجوع فلم يكده يدخل على أهله حتى وجد زوجته قد رزقته صبيّاً اثناء غيبته ، واقبل من في الدار ومن في الحباء يقدمون اليه ابنه ويطرونه فاعرض عنهم مغضباً وقال : ماذا اصنع به أآكله ام أشربه ! وفهمت عنه زوجه العليّة فقالت غرثان فاربكوا له . تريد انه جائع فأعدوا له طعاماً . فهؤلاء السادة لا يعرفون من الادب او لا يحبون ان يعرفوا من الادب الا ما يصور جوع الجائعين الذين يجب ان يقدم اليهم الطعام .

فأما انا فقد شهد الله اني احسست الجوع فلم يشغلني عما يمتع القلب والذوق والعقل ، وأحسست الشبع فلم يشغلني عن جوع الجائعين وحاجة المحتاجين . وانا من اجل ذلك احب الادب الذي يصور المواقف والوقائع الاجتماعية اذا احسن تصويرها ، وأحب الادب الذي يصور حياة الروح وطبيعة الارض والسماء والجو والبحر اذا احسن تصويرها ايضاً . وانا من اجل ذلك اجد المتعة في شعر اليوت وقصص جيمس جويس كما اجدتها في شعر مايكوفسكي وقصص ايليا اهرنبورج .

كل ما فيه روعة وجمال يروقيني ويشوقني ويمتعيني ويرضيني مهما يكن موضوعه . لا انفر من الادب المادي لانه مادي ولا احب الادب الروحي لانه روحي وانما

انفر من الآثار التي لا تحقق معنى الادب ولا تهدي الى
ينبغي ان يهدي الادب اليه من هذا الشعور بالجمال سواء
أصور المادة أم صور الروح .

ولا عليّ ان أكون من المدرسة القديمة او من المدرسة
الجديدة فهذا كله كلام يقال ، ولم يخدعني الكلام عن حقائق
الاشياء قط . وبعد هذا كله أحب ان أسأل هؤلاء السادة
ان يتفضلوا فيبينوا لي في وضوح وفي كلام يفهمه مثلي من
أوساط الناس ما عسى ان يكون مضمون الادب هذا أهو
المعاني أم هو الحقائق المادية والمعنوية التي تنعكس في
هذه المعاني ؟ ما الذي يجدونه في شعر مايكوفسكي حين
يمجد الصناعة ؟ ايجدون المصانع وأدواتها ام يجدون صور
هذه الصناعة والادوات وصور إنتاجها وصور الآثار التي
يحدثها هذا الانتاج في الحياة الاجتماعية . اليسوا يحمدون هذه
الصور حين تحسن التأدية للحقائق الاجتماعية والدلالة عليها ؟
وهذه الصور ما هي أمادة هي أم معنى ؟ فان تكن مادة
فكيف يتاح لهذه المصانع الضخمة وهذه الادوات الثقيل
وهؤلاء العمال ورؤسائهم ومهندسيهم ومديريهم وما ينتجون
وهؤلاء الناس الذين لا يحصون والذين ينتفعون بشمرات هذا
الانتاج ، كيف يتاح لهذا كله ول هؤلاء الناس كلهم ان
يجمعوا اشخاصهم واعيانهم بين دفتي كتاب وان تكن
صوراً ، ففيم الاخذ والرد والجدال الذي لا يغني في ان
نسميها صوراً أو نسميها معاني ؟

وارجو لذلك ان يجيبني هؤلاء السادة في وضوح واضح
وجلاء لا لبس فيه ما عسى ان تكون هذه الصياغة ،
أهي التأليف بين المعاني او بين هذه الصور لتلتئم وتأتلف
والدلالة عليها بالالفاظ التي يؤديها الى القراء ؟ أم هي شيء
آخر ؟ فان تكن الاولى فقيم الاخذ والرد والجدال الطويل ،
وقد قلت لهم ان الالفاظ وحدها لا تغني شيئاً ، وان المعاني
وحدها لا تغني شيئاً ، وان الادب لا يكون إلا اذا اتلفت
المعاني فيما بينها وائتلفت الالفاظ فيما بينها وبين المعاني .
وكان الجمال الفني هو الذي الف بينها فأحسن التأليف .
وان تكن الصياغة شيئاً آخر فما عسى ان تكون !
وأحب ان يريحوا انفسهم ويريحوا قراءهم من قلب العمل
الادبي وداخله والعمليات التي يجري فيه واشتباك هذه
العمليات وافضاء بعضها الى بعض ، فقد احب ان اقرأ لهم
كلام الأيقاظ لا كلام المنام ..

أما بعد فقد شغلني الحديث عن هؤلاء السادة والحديث
اليهم عما كنت اريد ان أوجه الى الاستاذ العقاد من
شكر جميل على ما أهدى الي من تحية كريمة في مقاله
الاخير . وعلى ما اهدى الي من تعزية أيضاً . ولعل الاستاذ
يعلم اني لم احفل قط بأن اكون عميداً لادب قديم أو
جديد ولم اعترف لنفسني قط بعمادة لهذا الادب او ذاك .
ولم يعني قط ان تأتي هذه العمادة من المجددين او
المحافظين لانني لا اعرفها ولا اقرها ، فضلاً عن ان اطلبها
او اطمع فيها أو اتلقاها من أي ناحية تجيء .

كما شغلني الحديث عن هؤلاء السادة واليهام عن ان
أؤكد للاستاذ العقاد أنني قرأت كثيراً جداً من الدراسات
النفسية ، ورضت نفسي على كثير من العناء في قراءة
هذه الدراسات حتى استقامت لي واصبح من اليسير علي ان
اقراها في غير مشقة ولا جهد . فاذا اذن لم انكر اقحام
التحليل النفسي في الدراسات الادبية بالقياس الى القدماء
خاصة عن جهل لهذه الدراسات . وانما انكر ذلك لأن القدماء
لا يصلحون موضوعاً للتحليل النفسي الا على نحو من
التجوز لا يغني من العلم الصحيح شيئاً .

والاستاذ العقاد يعلم ان الدراسات النفسية الوان مختلفة ،
فمنها الدراسات النفسية القديمة التي لم تعتمد على التجربة في
المعامل وانما اعتمدت على الملاحظة .. ملاحظة الفرد لنفسه
وتحليل ما يجد حين يشعر ويفكر وحين يرضى ويسخط
وحين يفرح ويحزن . وملاحظة الفرد لغيره من الناس حين
يقفون هذه المواقف ويتعرضون لمثل ما يتعرض له من
الشعور والتفكير .

ومنها علم النفس الذي يعتمد على التجربة والاختبار في
المعامل المخصصة لها . واحب ان اقول للاستاذ اني حين
كنت عميداً لكلية الآداب منذ وقت طويل جداً جعلت
دراسة علم النفس التجريبي جزءاً اساسياً من الدراسات
الفلسفية في الكلية ، وحاولت اول محاولة لانشاء معمل
لهذه الدراسات التجريبية في علم النفس .. وعلم النفس

التجريبي هذا ليس يسيراً يقتصر على مذهب واحد وإنما هو معقد أشد التعقيد يذهب فيه العلماء مذاهب مختلفة ما اظن الاستاذ في حاجة الى ان ادله عليها . ولست ادري أشهد الاستاذ العقاد تلك المحاضرات التي القاها استاذ عظيم من اساتذة علم النفس التجريبي هو الاستاذ الفرنسي دوما . وكنت انا الذي دعاه الى القاء هذه المحاضرات ، وقد اعتمد في افهام الطلاب والمستمعين ما اراد ان يوجه اليهم من حديث على الصور الشمسية التي عرضها عليهم بالفانوس السحري كما يقال .

فلست اذن غريباً عن هذه الانواع من الدراسات النفسية التي يفرغ لها الفلاسفة ويفرغ لها كثير من الاطباء أيضاً . فاما التحليل النفسي فشيء يعني به الاطباء خاصة ويفرغ له بعضهم ويقفون عليه جهدهم وتعليمهم وتأليفهم . وهو يدرس في بعض كليات الطب الاوروبية ويحمل في بعضها الآخر . وقد قرأت لبعض هؤلاء الاطباء كتباً منها ما انكرته وجادلت فيه لانه اتخذ الذين مضوا من الناس موضوعاً لكتبهم ككتاب الاستاذ لافورج الفرنسي عن تليوان . ومنها ما لم ابج لنفسي الجدال فيه لانه يعتمد على التجربة المباشرة والملاحظة الشخصية . ولست من هذا كله في شيء .

والاستاذ يعلم ان كلية الآداب في جامعة ابراهيم تعنى بعلم النفس التحليلي هذا ، واستاذ طيب تخرج في باريس

وهو معروف في البيئات الاجنبية التي تعني بهذه الدراسات ،
وبينه وبينني خطوط حين يتحدث الى فنون من الاحاديث
في هذا اللون من العلم ، أو بعبارة اصح في هذا اللون من
الدرس . فانا ازعم ان التحليل النفسي بهذا المعنى لم يصبح
علماً بعد ، وانما هو في طور المحاولات التي قد تنتهي الى
ان تصير علماً في يوم من الايام .

ومن الناس قوم يسرفون اشد الاسراف في الاذعان
للتحليل النفسي حتى يبلغوا صور الاضحاك ويتعرضوا
لشيء من السخرية : فقد حدثت ان بعض الاميركيين لا
يعرضون انفسهم على جراح الاسنان الا بعد ان يعرضوا
انفسهم على الطبيب النفسي ، ولا سيما اذا احتاج احدهم الى ان
ينزع احد اضراسه . ومن جراحي الاسنان الاميركيين من لا
ينظر في فم المريض الا بعد ان ينظر الطبيب النفسي في ضميره .
واحب ان اعترف للاستاذ العقاد بأني ما زلت الى
الان غير مؤمن بالعيادات النفسية التي اخذت تكثر في
هذه الايام .

والذي اريد ان اصل اليه من هذا كله هو اني حين
انكرت اخضاع ابي نواس لهذا النوع من التحليل النفسي
كنت اعلم حق العلم ما كنت اقول . وكنت اعمد اليه
عن ارادة وبصيرة وثقة لاني ارى كل ما ينتج من
اخضاع القدماء لهذا التحليل ضرباً من الظن لا يرقى الى
العلم ولا ينتهي باصحابه الى اليقين ولا يلزم قراءه الاقتناع

به والاطمئنان اليه . وما زلت ارى هذا الرأي لم يصرفني عنه الاستاذ العقاد بما كتب في مقاله الاخير ، وما ارى انه سيصرفني عنه الان على اقل تقدير .

وخير من انفاق الجهد في هذه المحاولات ان ينفق الاستاذ وانفق انا ما نملك من الجهد في المدرسة الفنية الادبية لشعر ابي نواس وغيره من الشعراء القدماء . وهنا لا نستطيع ان نستغني عن نتائج علم النفس سواء اقام على الملاحظة ام على التجربة . واقول علم النفس ولا اقول التحليل النفسي فالفرق بين هذين النوعين واضح . احدهما وهو الاول علم لا شك فيه والثاني محاولة لم تصبح بعد علماً .

وملاحظة اخيرة وهي ان عدول ابي نواس عن ذكر الاطلاع لم يكن مقصوداً على ابي نواس وحده في ذلك العصر ، وانما كان نوعاً من البديع الذي ظهر في تلك الايام . واحب ان يفهم البديع بمعنى التجديد . وفي كتب الادب على اختلافها كلام كثير عن تسخيف الذين يذكرون الاطلاع من الشعراء وهم يعيشون في المدن ويذكرون الصحراء وهم لا يرونها ويذكرون الابل وهم لا يركبونها . وابو نواس نفسه يلم بهذا المعنى في القصيدة التي اولها :

صفة الطول بلاغة القدم

فاجعل صفاتك لابنة الكرم

فيذكر في هذه القصيدة ان الذين يصفون الاطلاع من

شعراء الحضر مقلدون يقولون بما لا يعلمون .
افيرى الاستاذ ان كل من ذهب هذا المذهب من
الشعراء والادباء قد كان عليل النفس بالترجسية او غيرها
من هذه العلل التي يذكرها اصحاب التحليل النفسي .
فاما البيت الذي رواه الاستاذ العقاد لابي نواس في ان
خليفة او اميراً او وزيراً امره بوصف الطلول وهو قوله :
دعاني الى وصف الطلول مسلط

تضيّق ذراعي ان اجوز له امرا
فلا غرابة فيه مطلقاً ، فقد كان الرشيد والامين يلومان
ابا نواس في استهتاره بالجديد واغراقه فيه ويعنفان عليه في
اللوم ويحبسانه في الجهر بوصف الخمر وشرها كما يحبسانه في
الشعوبية وذم العرب والاسراف في تفضيل بعض القبائل على
بعض وفيما اتهم به احياناً من الزندقة . فاني غرابة في ان
يأمره احدهما او احد وزرائهما بوصف الطلول تمتعاً به او
امتحاناً له ؟ وما حفظ من هذه القصيدة يدل على ذلك
دلالة واضحة .

واعيد على الاستاذ العقاد ملحاً ان الخير له ولقرائه ان
يبذل في الدرس الفني لابي نواس شيئاً من جهده الخصب ،
ذلك اجدر به واجدى على القراء .

الحياة في سبيل الأدب



نعم الحياة في سبيل الأدب ، ما خطبها ؟ أتستحق أو لا تستحق ان يعني بها الكتاب ويخصصوا لها من حين الى حين فصولاً طوالاً أو قصاراً يعرضون فيها لخطوبها العظام ، واهوالها الجسام ، ومشاكلها التي لا تحصى ؟
فقد شبعنا من الأدب في سبيل الحياة حتى ادركتنا الكظة او كادت تدركنا ، وان كنت انا لم أومن بعد بهذا المذهب الذي نُقل الى مصر نقلاً في غير تثبت ولا تمحيص .

وآن لنا فيما يظهر ان نعرض للحياة في سبيل الأدب ، فقد نجد فيها ما يلذ ، ويمتع وقد نجد فيها ما يسلي الهم ويعزي قليلاً او كثيراً عن هذه المحن الكثيرة المتصلة التي

تصيب الادباء في ذات نفوسهم وفي اكرم الاشياء عليهم
وآثرها عندهم والتي قد تعرضهم للاخطار التي لا سبيل الى
وصفها ولا الى تقديرها لانها قد تنتهي احياناً بالاديب الى
الحنّة الكبرى التي لا علاج لها ولا انصراف عنها ، وهي
الموت في سبيل الرأي او في سبيل كلمة تقال وليس من
قولها بد .

ولامر ما قال الشاعر القديم :

يموت الفتى من عثرة بلسانه

وليس يموت المرء من عثرة الرجل

وعثرة اللسان هذه قد يكون مصدرها الحق وقد
يكون مصدرها حب الحق والحرص على النصح للناس
وان كرهوا النصح والناصحين . والحن لا تعرض للادباء
وحدهم لانهم يقولون ما لا يرضي الناس ، ولكنها تعرض
للفلاسفة . وتعرض للمصلحين وتعرض للذين يحاولون ان
يلقوا في روع الناس ما لم يألفوا وما لم يحبوا ويريدون
ان يحملوهم على منهج جديد من مناهج الحياة مخالف
للمناهج التي آثروها بالحب ووصلوا بها قلوبهم وعقولهم
وصلاً وكرهوا ان يزعجهم الناس عنها بعد ان طال
اطمئنانهم اليها .

وهذه الحن انما تعرض للادباء والفلاسفة والمصلحين لانهم
لم يملكوا السنتهم ولا أقلامهم ، وانما ملكتهم ألسنتهم
واقلامهم فاستجابوا لها ، ولم يمتنعوا عليها لان هذه الاقلام

وتلك الالسنه انما كانت تترجم عن قلوبهم وعقولهم وعما
ملأها من الخواطر والعواطف وعما ملكها من المذاهب
والآراء .

لم يكن سقراط معروفاً بقول الشعر ولم يكن معروفاً
بكتابة النثر بل يحدثنا مؤرخوه بانه لم يترك اثراً مكتوباً
نظماً او نثراً ، وانما انكر كثيراً من حياة معاصريه في
نفسه ثم ملأ عليه هذا الانكار عقله وقلبه ، ثم فاض هذا
الانكار على لسانه ، فانطلق يتحدث به الى الناس في
انديتهم وملاعبهم وفي حوانيتهم ومتاجرهم حتى ضاق به
من ضاق فرفعوا امره الى القضاء الذي قضى عليه الموت
بعد ان سمع لخصمه وسمع له ورأى انه لا ينكر من
آرائه ولا من مذاهبه شيئاً .

فلسان سقراط هو الذي قضى عليه الموت اذن ، لان
سقراط لم يحسن امساكه في فمه ، ولم يمنعه من ان يترجم
عما كان يضطرب في نفسه من الخواطر والآراء .

والادباء والفلاسفة الذين قضت عليهم السنتهم واقلامهم
بالعذاب ثم بالموت والذين عرّضتهم ألسنتهم واقلامهم
لكثير من الخطوب الثقال ، اكثر من ان احاول احصاءهم
في هذا الحديث ، وهم بعد ذلك معروفون لا يجهلهم
المثقفون الذين يعنون بتطور الانسان وتنقله بين هذه
الاطوار المختلفة من الحياة حتى انتهى الى هذا الطور
الحديث الذي يعيش فيه .

وادبنا العربي قد عرف هذه الالوان من الحن وكان

له ضحاياه الذين جرّت السنتهم الموت على بعضهم والعذاب على بعضهم الآخر والحرمان على كثير منهم .
وكثير من ادبائنا الذين قضى عليهم الموت بتهمة الزندقة في بعض العصور انما قتلتهم السنتهم لانها ملكتهم ولم يملكوها ، ولانها اعربت عن ذات نفوسهم وكان من الممكن ان تمسك عن هذا الاعراب . ولست ادري اقتل بشار لانه كان زنديقاً او لانه كان اشد انحرافاً عن حقائق الدين من الذين قتلوه ، ام قُتل لانه لم يملك لسانه فهجا وزيراً من وزراء الخليفة الذي امر بضربه حتى مات ؟ وليس من شك في ان المتنبي قد قتله لسانه حين انحرف به عن العروبة الى مدح الفرس والثناء عليهم ، وكان لسانه خليقاً ان يقتله في غير موقف من مواقفه من اولئك الملوك والامراء الذين اثنى عليهم ثم انحرف عنهم .

وتحضرني وانا املي هذا الكلام قصة ذلك العالم اللغوي الذي كان يؤدب ابناء المتوكل ان صدقني الفكرة ، والذي علمهم فيما علمهم ذات صباح ، ذلك البيت الذي رويته آنفاً :
يموت الفتي من عثرة بلسانه

وليس يموت المرء من عثرة الرجل

فلما حضر الغداء من ذلك اليوم جلس الاستاذ مع تلاميذه الى مائدة الخليفة وكان الخليفة قد سعي اليه بهذا الاستاذ واتهم عنده بالتشيع . فسأله اثناء الغداء كالمداعب : أأبنائي احب

اليك ام ابناء علي ؟ ! واجابه الاستاذ بما لم يرضه لانه لم يملك لسانه فامر الخليفة به فقتل على نحو بشع شنيع .

والادباء الذين تعرضوا للفقر والبؤس والحرمان لا لشيء الا لانهم احبوا الادب وكلفوا به ووقفوا حياتهم عليه اكثر من ان يبلغهم الاحصاء ، وهم ليسوا مقصورين على امة بعينها ، ولا على جيل دون جيل . وما زال في كثير من اقطار الارض ادباء يسعدون بأدبهم فيما بينهم وبين انفسهم ويشقون بأدبهم فيما بينهم وبين الناس ويتعرضون بأدبهم لصروف كثيرة . فمنهم من يتعرض للحرمان او ما يشبه الحرمان ، ومنهم من يتعرض لغضب السلطان سواء اكان هذا السلطان فرداً مستأثراً بالحكم أم برلماناً يدير امره على الشورى ويقيم حياة شعبه على الحرية والديمقراطية .

وحياة هؤلاء الادباء ، من يمتحن منهم بالشر وهم الاكثرون ومن يتاح لهم الخير وهم الاقلون ، جديرة بشيء من العناية وجديرة بشيء من الرعاية ايضاً . فقد ينبغي للانسانية بعد ان بلغت ما بلغت من الرقي وعرفت ما عرفت من الحقوق ان تعصم الذين يحيون في سبيل الادب من التعرض للمحنة والبلاء . ذلك لانهم حين يحيون في سبيل الادب انما يحيون في سبيل الذين يقرأون ادبهم من الاجيال المعاصرة ومن الاجيال التي

تأتي بعدهم ان اتيح لأدبهم البقاء . وما اكثر ما يتبين
الناس بآخرة بعد فوات الوقت حين لا يتاح لهم تدارك
ما فاتهم انهم قصرُوا في ذات هذا الاديب او ذاك وانهم
جنوا على هذا الاديب او ذاك . وخير من ذلك بالطبع ان
يعصم الناس انفسهم من هذا التقصير وان يكفلوا هؤلاء
الادباء ولغيرهم من الذين يحيون لعقولهم من الفلاسفة والعلماء
واصحاب الفن حياة كريمة تنأى بهم عما يهينهم في انفسهم
وعما يشقيهم بحياتهم ، وعما يعرضهم للخطر بسبب آرائهم
التي تملك عليهم نفوسهم والسنتهم واقلامهم التي لا تحسن
السكوت ولا السكون .

ولم يخطيء العباس بن الاحنف حين شبه نفسه بالذبالة
التي نصبت تضيء للناس وهي تحترق . فليس الاديب
والفيلسوف والعالم وصاحب الفن إلا سراجاً يضيء لكثير
أو قليل من الناس سبيلهم في الحياة التي يحيونها ، وهو
يعطيهم من ذات نفسه ويمنحهم خير ما عنده وهو
يشقى ليسعدوا ويبتئس لينعموا ويخاف ليأمنوا ، فلا اقل
من ان يمنحوه من ذات انفسهم مثل ما يمنحهم من ذات
نفسه ، ومن ان يردوا عليه بعض ما يهدي اليهم من
السعادة والمتعة والنعيم والامن وراحة البال .

واول ما ينبغي ان تكفله الجماعة المتحضرة للاديب هو
الحرية . وأريد الحرية الحرة التي يأمن معها الغوائل ولا
يتعرض معها لشر او كيد أو هوان . فالاديب الحق
حر بطبعه لا ينتظر ان تهدي اليه الحرية من احد

غيره ، وانما تولد معه حرية يوم يولد ، وتنمو معه حين ينمو ، وتصحبه منذ يدخل الحياة الى ان يخرج منها . وهو لا يؤثر في الدنيا شيئاً كما يؤثر الادب الحر . وهو يزدي ادبه اشد الازدراء ويضيق به اعظم الضيق ان فقد حرية في يوم من الايام ، وهذه الحرية التي يجب ان تكفل للاديب ولذين يعملون بعقولهم لا تطلب الى الحكومات وحدها وانما تطلب الى الحكومات والى الشعوب ايضاً . وربما كانت الحكومات في هذا العصر اقل خطراً على حرية الادباء والفلاسفة والعلماء واصحاب الفن من الجماعات . فالحكومات آخر الامر لا تحكم لنفسها في الامم المتحضرة . وهي من اجل ذلك لا تطلب الى الذين يعملون بعقولهم اكثر مما تطلب الى غيرهم من الناس . وهي من اجل ذلك لا تستطيع ان تختص الذين يعملون بعقولهم بالشر او الاذى او الاضطهاد . وهي حتى حين تفرض الرقابة التي أمقتها اشد المقت لا تفرضها بالقياس الى هذه الطوائف من دون غيرها من الناس وانما تفرضها بالقياس الى الناس جميعاً لظروف موقوتة . وهذه الرقابة تزول بزوال هذه الظروف ، وقد تخطيء الحكومات حين لا تختص هؤلاء العاملين بعقولهم بالوان من الرعاية تحتاج اليها طبيعة عملهم ، ولكنها على كل حال ليست اشد خطراً عليهم من الجماعات التي تضيق بهم احياناً وتشق عليهم احياناً وتنتظر منهم اكثر مما تعطيهم ، وتسرف عليهم في اللوم

ان اسخطوها وتبخل عليهم بالتشجيع ان ارضوها ، وهي
اشبه شيء بالقطط فيما يقول العامة تأكل وتنكر وتأخذ
وتمنع . وهي ساخطة دائماً بخيلة دائماً ، تلوم الادباء اذا لم
ينتجوا ، وتستغل انتاجهم حين ينتجون ، ولا تكره ان يحرق
الادباء نفوسهم ليضيئوا لها سبلها ، وتكره اشد الكره ان
تتيح لهؤلاء الادباء من الحياة ما يمكنهم من احراق انفسهم
دون ان يحسوا ألم هذا الحريق الذي يصلون حره في
الليل والنهار .

الادب في سبيل الحياة كلمة تقال وتكتب ولا يكاد
الذين يقولونها ويكتبونها يحققون معناها ولا يكادون يحققون
نتائجها ايضاً . فما عسى ان تكون هذه الحياة التي يريدون
ان يجعلوا الادب وسيلة اليها ؟ . اهي حياة الاجسام ام
حياة القلوب والعقول ؟ .. فان تكن حياة الاجسام ،
فما اهون الغاية وما اخطر الوسيلة ، وقد عاشت اجيال
الانسانية الى الان على ان الاجسام وسائل الى ارضاء
العقول لا على ان العقول وسائل الى ارضاء الاجسام .

وان كانت حياة العقول والقلوب والاذواق وملكات
النفس الانسانية كافة ، فالادب والفن والفلسفة والعلم لا
غاية لها الا ارضاء هذه الملكات وتمكينها من النمو والرقى
والسمو الى الكمال بمقدار ما يتاح للناس ان يسموا الى
الكمال . اهي حياة الافراد ام حياة الشعوب ؟ فان
تكن حياة الافراد فما اهون الغاية وما اخطر الوسيلة ،

وويل لادب لا ينشأ الا لينعم به هذا الفرد او ذاك !
وانا بعد هذا لا اعرف هذا الادب الفردي ولا اعلم
انه قد وجد في وقت من الاوقات . فالادب اجتماعي بطبعه
كالانسان الذي وصفه ارسطاطليس بهذا الوصف منذ اربعة
وعشرين قرناً . ولا ينبغي ان تقف عند هذه السخافة التي
كثرت تكرارها والتي تعيب على الادب القديم انه كان
يتجه ببعض فنونه الى الملوك والامراء واصحاب السعة
من الاغنياء . فهذا الادب الذي كان يوجه الى هؤلاء
الناس قلة ضئيلة بالقياس الى الادب الذي كان يوجه الى
الانسان من حيث هو انسان ، وهو على رغم اتجاهه الى
هؤلاء الافراد ادب اجتماعي وكثير منه انساني لا يجادل
في ذلك الا المحققون .

ونحن نقرأ الآن وستقرأ الاجيال غداً وبعد غد ادباً
وجه الى هؤلاء الملوك والامراء واصحاب الثراء منذ القرون
الطوال اشد الطول ، فلم يبق الى الآن ولم يبق الى غد
وبعد غد ، ولم لم يمت مع قاتليه ومع الذين وجه اليهم
من الاقوياء والاعنياء ! اكان بقاؤه ممكناً لو لم يكن فيه
هذا العنصر الاجتماعي الانساني الذي اتاح له البقاء واتاح
للاجيال المتعاقبة ان تفزع اليه تلتمس فيه اللذة والمتاع
ونعيم النفس وغبطة القلب ورضى الضمير ؟

الادب اذن اجتماعي بطبعه ، وهو موجه بطبعه في سبيل
الحياة باقوم معانيها وابقاها وارقاها ... حياة العقول

والقلوب التي لا تموت ولا يدركها البلى ، لا حياة
الاجسام التي تخلق من تراب وتصور الى تراب .
والذين يقولون ويكتبون هذه العبارة النابية - الادب
في سبيل الحياة - لا يحققون نتائج ما يقولون ويكتبون
كما انهم لا يحققون معناه ، كما رأيت . فكلما الحياة هذه
كلمة عامة تطلق في غير تحفظ ولا تثبت ولا تجديد الا
عند العلماء الذين يدلون بها على معنى بعينه يعرفونه احسن
المعرفة ويحددونه أدق التحديد ، ولا يكاد يخطر للذين
يرسلون هذه الكلمة فيما يكتبون من الفصول وفيما يديرون
بينهم من الحديث على بال .

وانما الحياة عند هؤلاء كلمة مهمة مرسله تدل على
اشياء ليست بذات حدود واضحة مبنية . فالطعام
والشراب حياة ، والنوم واليقظة حياة ، والجد واللعب حياة .
والحياة بعد ذلك معنى آخر يحبه الناس لانهم لا يحققونه
ولا يحددونه ولانه يغمرهم من جميع اقطارهم . فالحياة
بهذا المعنى كل شيء اي انها ليست شيئاً ، لان كل شيء
هذه كلمة يراد بها الاحصاء والحصص مع ان الاشياء لا
سبيل الى احصائها ولا حصرها . والادب الحق لا يكره
شيئاً كما يكره هذا العموم الفارغ من كل معنى دقيق .
فاي معنى من معاني الحياة هذه يراد الادب على ان
يكون وسيلة اليها ؟ . اهي حياة العلماء الذين يعملون في
معامليهم ام هي حياة اللاعبين ، ام هي حياة الجادين ؟ ام هي

حياة هؤلاء الذين يريدون أشياء لا يعرفونها ولا تحققها
عقولهم ؟ ام هي كل هذه المعاني جميعاً ؟

كلام يقال ولا يحصل شيئاً . واكبر الظن ، بل
الحق الذي ليس فيه شك هو ان اصحاب الادب في
سبيل الحياة اذا سألتهم عن هذه الحياة التي يريدونها لم تجد
عندهم جواباً مقنعاً ، وانما هي كلمة جاءتهم في بعض ما
يقرأون من الكتب والصحف والمجلات فاخذوها على علانها
واستعملوها على غير تحقيق لها ولا تثبت منها . فليحذروا
ان تفهم عنهم على وجه لم يريدوه ولم يقصدوا اليه . فقد
يفهم منها العامة واشباه العامة ان الادب يجب ان يسخر
في سبيل الطعام والشراب وما يشبه الطعام والشراب من
هذه الحاجات المادية القريبة . وقد يفهم منها بعض المثقفين
ان الادب يجب ان يسخر لمذهب بعينه من مذاهب
الانسانية الحديثة في السياسة والفلسفة والاجتماع ،
وهو ان الادب يجب ان يكون مسخراً لاقناع العامة
واشباههم بان الحياة مادة ليس غير ، وبان الروح وما يتصل
به من العقل والقلب والملكات المختلفة ، اساطير هام بها
القدماء وهي لا تغني عن الناس شيئاً .

وما اظن ان اكثر الذين يرددون عبارة الادب في
سبيل الحياة يريدون هذا المذهب او يفكرون فيه .
فلنتفق اذن ان كان من الممكن ان نتفق على ان الحياة
التي ينبغي ان يتجه اليها الادب والتي يتجه اليها

بالفعل كما يتجه اليها العلم والفن والفلسفة انما هي حياة
 الجماعات الانسانية من حيث انها جماعات طامحة بطبعها الى
 الرقي والسمو الى الكمال بقدر الطاقة في جميع فروع
 النشاط الذي تبذل فيه جهودها على اختلافها .
 واذا اتفقنا على ذلك فاني اتحدى اصحاب الادب في
 سبيل الحياة وأسألهم ان يدلوني على ادب قديم او حديث
 لم يتجه الى ارضاء هذه الحاجة الانسانية ... الى ترقية
 الحياة الاجتماعية وتكميلها ونقلها من طور الى طور .
 وقد يذكرون ادب الذين يريدون الفن للفن ، ولكنني انصح
 لهم بان يحتاطوا ، فالذين يريدون الفن للفن لا يرتفعون
 بانفسهم عن الجماعات الانسانية ولا يجعلون انفسهم ملائكة ،
 ولا يعيشون في السحاب ، ولا يلتزمون هذه الخرافة التي
 تسمى البرج العاجي . ولكنهم يرون للجماعات الانسانية
 نفسها كما يرون لانفسهم ان تخلص بعض وقتها وبعض
 نشاطها وبعض ملكاتها للجمال من حيث هو الجمال ولأداة
 الجمال التي هي الفن الرفيع ادباً كان او تصويراً او
 موسيقى او ما شئت من الفنون الجميلة ، ويريدون للجماعات
 الانسانية كما يريدون لانفسهم الارتفاع بين حين وحين عما
 يتصل بالمنافع العاجلة القريبة الى ما هو ابقى منها وارقي ،
 يرون ذلك حقاً على كل انسان لنفسه لأنه اذكى للعقول ،
 واصفى للقلوب ، وانقى للاذواق ، واظهر للطباع ، واجدر بعد
 ذلك كله ان يتيح الانسان حين يعود الى حياته العملية

ان يكون اخصب نشاطاً ، واكثر انتاجاً ، واكرم على نفسه
من الذين يقفون جهودهم كلها على ارضاء الحاجات وتحقيق
المنافع وقضاء المآرب ... وقد يصيب اصحاب هذا المذهب
وقد يخطئون ، ولكنهم على كل حال يرون الخير لأنفسهم
وللناس فيما يذهبون اليه ، فلا جناح عليهم اذن ما داموا
لا يؤثرون انفسهم بالخير من دون غيرهم ... ولا جناح
على غيرهم ان يخالفهم الى مذهب غير الذي ذهبوا اليه ..
والحق ان الادب الذي لا يتوخى اصلاح الجماعات
الانسانية من بعض وجوها لم يوجد بعد . وان الادب
منذ كان كالفن منذ كان ، وكالعلم والفلسفة منذ كانا ، ظواهر
اجتماعية لا تستطيع ان تبرأ من ذلك حتى حين تحاوله
ولا يستطيع انسان عاقل ان يجادل في ذلك او
يشك فيه ...

وقد يرى اصحاب الادب في سبيل الحياة ان ادباءهم
المصريين الذين سبقوهم الى الانتاج لم يحققوا ما كان الناس
ينتظرون منهم ولم يعرضوا لمشكلات الجماعة المصرية كما كان
ينبغي ان يعرضوا لها ، فليطمئنوا فالادب الذي يحقق كل
ما كان ينتظر منه لم يوجد بعد .. وما ارى انه سيوجد
في يوم من الايام لأن الكمال لا سبيل اليه ، ولأن الجماعة
الانسانية تحيا في تطور متصل ، ومعنى التطور الانتقال
من حال الى حال .. ومعناه أيضاً ان تضيف الاجيال
الى ما انتجت الاجيال السابقة .. ولا ينبغي ان يلام جيل

سابق لأنه لم يحقق ما يريد جيل لاحق .

وانت لا تنتظر من ادباء القرن التاسع عشر في اي بلد من البلاد ان يحققوا ما يريده القرن الذي نعيش فيه ... والعلماء الذين يعيشون الآن ويستكشفون من قوانين العلم ما لم تستكشفه اجيال العلماء الذين سبقتهم لا يعيبون هذه الاجيال ولا ينكرون جهدها ، وانما يحمدون لها ما بذلت من جهد ، ويقدرّون ما استكشفت من العلم ، ويضيفون اليه ما يستكشفون . وقل مثل ذلك في الذين يستغلون قوانين العلم للاختراع والابتكار .

والادباء الذين يدعون شيوخاً الآن لا يلامون لأن ادبهم قد لا يرضي نزعات الشباب ، ولا يلامون لانهم لم يبلغوا ما يطمح اليه الشباب من الكمال الفني ، وانما ينبغي ان يعرف لهم الشباب ما اضافوا الى ادب الاجيال التي سبقتهم وما جددوا بالقياس الى ادب تلك الاجيال .

وقد ينبغي لأصحاب الادب في سبيل الحياة من الشباب ان ينصفوا انفسهم والا يجوروا بها عن القصد والا يورطوها في هذه الاحكام المخطئة الخاطئة .

فليس من الحق في شيء ان الشيوخ من ادبائنا قد اهملوا حياة الجماعة او قصرّوا في علاج مشكلاتها او صرفوا انفسهم عنها عامدين ، او غير عامدين . وانما الحق الذي ليس فيه شك والذي لا يجادل فيه الا المحمقون والجاحدون ، هو ان هؤلاء الشيوخ من الادباء .. قد خاضوا مشكلات

الحياة المصرية في شجاعة وجراءة واقدام اتنى مخلصاً ان
تتاح لهؤلاء الشباب الذين يطلقون فيهم السنتم بغير حساب .
وقف عند اي شيخ من هؤلاء الشيوخ وقفة المنصف
لنفسه ولغيره ايضاً فسترى انه لم ينفق حياته لاهياً ولا
ساهياً ولم يضيعها عابثاً ولا لاعباً ، وانما انفقها جاداً
كاداً وصابراً مصابراً ، ومقاوماً لما رأى انه الباطل اشد
المقاومة واقساها ، ومدافعاً عما رأى انه الحق اغنف الدفاع
واقواه ، ومعالجاً من المشكلات الاجتماعية والانسانية ما
اتاح له علمه ودرايته وطبعه وتجاربه ان يعالجه .

وحدثني عن شيخ من هؤلاء الشيوخ الف كتاباً او
نشر فصلاً لا يريد بتأليفه او نشره الا اللهو والعبث ،
ولا يقصد بتأليفه او نشره الا الى ايثار نفسه بالمتاع ..
بهذا المتاع الباطل الذي يخطر لبعض الكتاب من الشباب
ان الادباء قد يؤثرون به انفسهم احياناً وان كنت لا
اعرف انا واحداً من هؤلاء الادباء ..

قف عند المازني رحمه الله وحدثني عن كتبه التي قرأها
الناس اثناء حياته وهم يقرأونها الان بعد وفاته . وحدثني
اي كتاب من هذه الكتب تستطيع ان تصفه بأنه لغو من
القول لا ينفع قراءه حين يقرأونه . وان كتبه كلها
تضطرب بين كتب تعليمية كتلك التي تناولت النقد الادبي
للقدماء والمحدثين الشرقيين منهم والغربيين ، وكتب اخرى
صور فيها تجاربه ومشكلاته التي تعرض لكثير من امثاله

في اطوار الشباب والكهولة والشيخوخة وبين فيها كيف
لقي هذه التجارب وكيف نفذ منها ، وكيف واجهه
هذه المشكلات وكيف قهرها واقتحم عقابها ، وهو في تصوير
هذه التجارب والمشكلات وفي تصوير ما وجد لها من
حلول يفتح لقرائه ابواباً من التفكير ويعرض لهم وسائل
تتيح لهم لقاء التجارب كراماً والخروج منها كراماً .
وتتيح لهم مواجهة المشكلات مبصرين لما يأتون من الامر
وما يدعون .

وهو بخطيء مرة ويصيب مرات ، شأنه في ذلك شأن
الناس جميعاً لم يفرض الخطأ على احدهم ضربة لازم ، ولم
تكتب العصمة لاحدهم في اللوح المحفوظ ، وانما هم معرضون
للضعف الذي يورطهم في الخطأ وللقوة التي تتيح لهم الصواب .
والشيء الذي لا يريد بعض الناس عندنا ان يفهموه ولا
ان يقبلوه هو ان الخطأ حق من حقوق الانسان لا ينبغي
ان يلام عليه او يدان به او يعاقب على التورط فيه .
وانما ينبغي ان يُدل عليه في رفق وان ينبه اليه في ود
ووفاء . والله الذي هو اقدر القادرين واعدل الحاكمين
لا يعاقب الناس على خطأهم كما لا يعاقبهم على نسيانهم ، وانما
يتجاوز لهم عن الخطأ والنسيان ، وهو قد علمهم ان يبتهلوا
اليه فيسألوه الا يؤاخذهم ان نسوا او اخطأوا ، وهو قد
انباهم بأنه كتب على نفسه الرحمة ، وبأن مغفرته ميسرة
للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من بعد ذلك

ويصلحون ...

فما بال قوم منا لا يعترفون للانسان بحقه في الخطأ ،
وما بالهم يتبعون في ذلك مذاهب الجامحين من اصحاب
الدكتاتوريات الطاغية الجامحة التي لا تعفو لاحد عن خطأ
ولا تتجاوز لاحد عن نسيان .

ودع المازني الى من شئت غيره من شيوخ الادب من
سبق منهم الى جوار ربه ومن لا يزال منهم مجاوراً
للناس . وحدثني عن كتبهم التي يقرأها الناس والتي
اعرض الناس عن قراءتها ، أكتبت لغواً وعبثاً ام كتبت
تعليماً وارشاداً ، وتوجيهاً وعلاجاً لأمر رأها الكتاب
الشيوخ من المشكلات في حياة الناس ، وارادوا ان
يدرسوها ويدينوا للناس مصادرها ومواردها ، وطريق
الخروج منها والتغلب عليها ؟

فما عسى ان يكون الادب في سبيل الحياة اذن اذا لم
يكن ادب هؤلاء الشيوخ في سبيل الحياة ؟

كل ما بين اصحاب الادب في سبيل الحياة وبينني من
خلاف هو ان الادب بطبعه لا يمكن ان يكون الا في
سبيل الحياة . فعبارتهم هذه لا تدل على شيء ولا تجدد
شيئاً ولا تدعو الى شيء . كذلك ارى انا . اما هم فيرون
انهم قد استكشفوا عظيمًا وجدوده تجديداً خطيراً ، فاذا
سألتهم عن هذا الشيء العظيم الذي استكشفوه وعن هذا
التجديد الخطير الذي استحدثوه ، لم تجد عندهم رداً مقنعاً

وانما هو كلام عامّ عموم هذه الحياة التي يريدون ان
يسخروا الادب لها . مع ان الادب مسخر لها بطبعه قبل
ان يريدوه على ذلك بل قبل ان يعرفوه ويشاركوا فيه .
وانا بعد ذلك لا ارى لأحد كائناً من يكون فرداً
او جماعة ان يكلف الاديب ان يوجه ادبه هذه الوجهة
او تلك . وانما الاديب حر يكتب ما يشاء ويكتب
كيف يشاء . والقراء احرار يقرأون ان شاءوا ويعرضون
ان احبوا ويسخطون ان اثار فيهم الادب سخطاً ويرضون
ان اثار فيهم الادب رضى ، وليس بين الادب وبينهم
الا هذا . ليس لهم على الاديب حق ان يكتب لهم ما
يشاءون ، وليس للاديب عليهم حق ان يرضوا عن كل ما
يكتب ، وان لم يعجبهم ولم يقع منهم موقع الرضى .
هذا كلام قلته الف مرة ومرة ولن امل تكراره وان
غاظ بعض الناس واحرج بعض الصدور لان تكرار الحق
لا ينبغي ان يمل .

واعود الى الحياة في سبيل الادب فأسأل اريد الناس
الذين يذوقون الادب ويحبونه ان يقدم اليهم هذا الادب
بين حين وحين ام لا يريدون ؟ فان تكن الاولى فايسرهما
يوجب عليهم ان يخلوا بين الادباء وبين حريتهم في حياتهم
هذه التي يفنونها على الادب وقتاً وان ييسروا لهم هذه
الحياة ويكفلوا لهم هذه الحرية الحصة ان كان فيهم فضل
من خير وبقية من حب لانفسهم ، فهم ينعمون بادب

الادباء اكثر مما ينعم به الادباء انفسهم . وان كانت الثانية
فلا عليهم ان يكتب الادباء او لا يكتبوا ولا عليهم ان
كتب الادباء لهم ما يحبون أو ما لا يحبون . فقد
ينبغي اذا بخلوا باخير على الادباء الا يجودوا عليهم بالشر .
ليصدقني القراء ان شيوخ الادباء في هذا العصر الحديث
وقدماء الادباء في العصور التي سبقت هذا العصر كانوا اعلم
منهم بما للادب عليهم من حق ، وافقه منهم بما للحياة الاجتماعية
نفسها عليهم من حق . فلم يضيعوا وقتهم وجهدهم وقوتهم في
البحث عن الادب ا يكون في سبيل الحياة ام في سبيل الموت ،
وانما انفقوا وقتهم وجهدهم ونشاطهم في قراءة الادب وفهمه
وذوقه وتمثله وفي درس هذه الحياة الخصب الممتعة المليئة بما
يسوء وما يسر وبما يحزن وما يلد ، والتي كتب على
الادباء ان يحيوها . ووجدوا في هذا كله متاعاً لانفسهم
وللناس ونفعاً لانفسهم وللناس . وانا بعد ذلك لا اريد من
الادباء وحدهم ان يحيوا في سبيل الادب لانهم ليسوا في
حاجة الى ان اريدهم على ذلك فهم ميسرون في طبعهم
لهذه الحياة ، وانما اريد من شباب الادباء ان يعرفوا كيف
يخلصون نفوسهم وقلوبهم للحياة في سبيل الادب لا للادب
في سبيل الحياة ..

واريد آخر الامر من القراء جميعاً ان يخلصوا جزءاً
من نفوسهم وجزءاً من وقتهم وجزءاً من نشاطهم للحياة

في سبيل الادب وان يأخذوا انفسهم ساعة من نهار او ساعة من ليل تقصر او تطول ليفرغوا فيها للقراءة والذوق ، يقرأون ويفهمون ويذوقون لا ليقتضوا الوقت ولا ليلتمسوا من القراءة والفهم والذوق منفعة مادية عملية قريبة او بعيدة بل ليغذوا عقولهم وقلوبهم ويمتعوا نفوسهم واذواقهم ، وليسعر كل واحد منهم بان له ساعة يؤثرها على ساعات النهار والليل كلها لأنها تشعره وتسعده بانه انسان بالمعنى الصحيح الدقيق الرفيع لكلمة الانسان .

واذا انفق القاريء اكثر يومه حيواناً يجد ويكد ليعيش هذه المعيشة الدنيا التي يحتاج اليها الجسم فلا اقل من ان ينفق ساعة يعود فيها الى نفسه ويرتفع فيها على حيوانيته ويصير فيها الى انسانيته الرفيعة ويؤمن فيها بان حياته الحيوانية لم تذهب عبثاً ، وانما اتاحت له ان يكون انساناً لحظات مهما تكن قصاراً فانها عذبة نافعة جديرة بان تنفق الحياة في سبيلها .

أَصْدَاءُ



تصل اليّ بين حين وحين في هذه العزلة التي اويت اليها وقتاً ما ، اصدااء ضئيلة نخيلة لحصومات أدبية تثار في مصر .
واحِب ان اشكر قبل كل شيء اجمل الشكر واخلصه
لبعض ادباء الشباب ما يتفضلون به عليّ اثناء غيابي عن مصر
من هذه التحيات الكريمة ، التي ان دلت على شيء فانما
تدل على انهم يذكرونني ولا ينسونني . ولا عليّ بعد ذلك
ان تكون هذه التحيات ثناء او هجاء ، فكل الامرين
عندي سواء .

واحِب ان يعلم هؤلاء الادباء من شبابنا اني لم اتلق
قط ما يهدى اليّ من الثناء الا في كثير جداً من التحفظ

والشك ، ولم اتلق قط ما يهدى اليّ من الهجاء الا في كثير جداً من الغبطة والرضى . ذلك اني اعرف من مواضع النقص في نفسي اشياء قد لا يعرفها الذين يثنون علي ، ولو قد عرفوها لظنوا بثنائهم او اقتصدوا فيه . . واعرف ايضاً من مواضع النقص اكثر مما يعرف الذين يهدون اليّ الهجاء ، فاذا قرأت هجاءهم انتفعت به اولاً وحمدت الله على العافية بعد ذلك .

وقد وصلت اليّ اصداء حملة رقيقة او عنيفة نهض بها بعض الكتاب ليثبتوا اني لا احسن كتابة القصة بل ليثبتوا اني لا احسن الكتابة لا في القصة ولا في غيرها . . وهذا كله حق لا شك فيه . فما زعمت في يوم من الايام اني قاص اجيد فن القصص او اقارب اجادته . ومن اين لي اتقان هذا الفن او مقاربة اتقانه وانا لم ادرسه في مدرسة ولم اتلق اصوله عن استاذ من اساتذة النقد ، ولم احفظ هذه الشروط العشرة او العشرين او التي هي اقل او اكثر من العشرة او العشرين والتي ليس من حفظها بدّ ، وليس من رعايتها بدّ ايضاً ، ليكون الكاتب قاصاً متقناً لفنه ، ولتكون القصة التي ينتجها رائعة بارعة تستحق ان تسمى قصة وتستحق ان يقرأها القراء ، وتستحق بعد ذلك ان يتخذها القصاص الناشئون نموذجاً ومثالاً .

لم ازعم قط اني قاصّ لاني لم اتعلم فن القصة ، ولست ادري اين يستطيع الناس ان يتعلموه ولم يرزقني الله هذه

الموهبة فاتقن فن القصة دون ان اتعلم اصوله .

واحب ان ارضي هؤلاء الادباء الكرام من شبابنا
فاؤكد لهم مخلصاً اني لم اعتقد قط اني كاتب مجيد ، ولم
اصدق قط اني اديب ممتاز ، ولم افهم قط هذا اللقب
الذي اهدي اليّ فجأة ومن غير وجه وعلى غير تواطؤ من
الذين اهدوه اليّ فسموني عميد الادب العربي .

كل هذه الصفات اهداها اليّ القراء دون ان اطلب
اليهم اهداءها ، ودون ان اؤمن لهم بالحق في اهدائها اليّ
دون غيري من الادباء ، ودون ان اطمن اليها حين اهديت
الي . والذين يعرفونني من الخاصة والاصدقاء يشهدون
من غير شك اني لم اسمع قط ثناء عليّ ولا تقريظاً لي
الا رفعت كتفي وهزرت رأسي ساخراً من نفسي ومعرضاً
عن هذا الثناء والتقريظ .

فليطمئن الادباء من شبابنا وليعلموا انهم حين يسيئون
الظن بأديبي وباتقاني لفن القصة او غيره من الفنون لا
يبلغون من سوء الظن بعض ما ابلغ انا حين انظر الى
نفسي وحين انظر الى ما انتج من الآثار .

وانا اريد ان ازيدهم رضى الى رضى واطمئناناً الى
اطمئنان فاؤكد لهم مرة اخرى ان سوء الظن بنفسي
وادبي لا يقف عند هذا الحد الذي صورته لهم ، وانما
يتجاوز الى اشياء اخرى لست ادري كيف لم تحظر لهم
الى الان . فبعضهم مثلاً يراني ازهرياً ، وقد نشأت في

الازهر ما في ذلك شك ، ولكن ما رأيهم في ان الازهرين
قد لفظوني منذ زمن بعيد ؟ اقصوني عن الازهر حيناً
ما ثم ردوني اليه بعد ذلك . فلما تقدمت لامتحانهم نهائياً
وظننت اني سأظفر باجازته الاخيرة ودوني عن هذه
الاجازة اعنف الرد ، فحمدت الله على السلامة ، وقنعت
من الغنيمة بالاياب . انا اذن ازهري عند بعض الناس
وغير ازهري عند الازهرين انفسهم ، فانا ساقط بين كرسين
كما يقول الفرنسيون . يرفضني الازهريون لانهم لم يمنحوني
اجازتهم ، ويرفضني المثقفون ثقافة اجنبية لاني ازهري لا
اعرف من ثقافتهم هذه الاجنبية الا القشور . والغريب
ان كلمة القشور هذه قد كتبت عليّ منذ اول الشباب ،
فقد كان شيوخنا في الازهر يعيبون عليّ طلب الادب
الذي كانوا يرونه قشوراً والتقصير في طلب اللباب الذي
هو العلم الازهري الخالص .

كنت طالباً للقشور عند الازهرين ، وانا متعلق من
الثقافات الاجنبية بقشورها عند المتأصلين في هذه الثقافات .
فانا صاحب القشور شاباً وصاحب القشور شيخاً . قد
كتب عليّ الا اعرف من كل شيء الا قشوره . ورحم
الله ليبدأ فقد احسن لي ولا مثالي النصيحة حين قال :

فاقنع بما قسم المليك فانما

قسم الخلائق بيننا علامها

واذكر اني حين كنت استاذاً في الجامعة كنت اصدر

بعض الكتب كما يصدر الاساتذة الجامعيون بعض الكتب .
فكان الناقدون لهذه الكتب يقولون ما لهذا الرجل وللبحث
العلمي والادبي مع انه ليس منها في شيء ؟ هلا انفق جهده
في هذا الادب الخالص الذي يحسنه ، وفي هذه الفصول
الادبية التي يتقنها وتنشرها له الصحف راضية وبقراءها القراء
مشغوفين بها ؟ فاذا اصدرت كتاباً من كتب الادب
الخالص قال الادباء الخالصون المختصون ما لهذا
الرجل وللادب يخوض فيه وليس منه في شيء وانما هو
صاحب بحث ادبي وعلمي فما له لا يقصر جهده على ما
يحسن ؟ وما له لا يعيش جامعياً كما اراد الله له أن يعيش ؟
وما له يقحم نفسه فيما لا علم له به ولا غناء له فيه ؟
انكرني الجامعيون اذن في بعض الوقت وانكرني غير
الجامعيين من الادباء في بعض الوقت ايضاً .

وكذلك كنت دائماً ضائعاً يأبى الازهر ان اكون
ازهرياً ، ويأبى غير الازهرين الا ان اكون ازهرياً ،
وتأبى الجامعة ان اكون جامعياً ، ويأبى غير الجامعيين من
الادباء ان اكون الا جامعياً . ويصدق في قول جرير في
هجاء بعض معاصريه :

ويسقط بينها المرئي لغواً

كما القيت في الدية الحوارا

والغريب اني لم احاول ان افرض نفسي على الازهرين
ولا على غير الازهرين كما لم احاول ان افرض نفسي على

الجامعيين ولا على غير الجامعيين ، وانما حملني الله عز وجل عبئاً من اعباء الحياة فحاولت ان انهض به كما استطعت ، فارضيت قليلاً من الناس ثم لم البث ان اسخطتهم واسخطت كثيراً من الناس ثم لم البث ان ارضيتهم ، ثم اضطربت الامور اي اضطراب واختلطت اي اختلاط واذا انا الان لا افرق بين الراضين عني والساخطين علي لاني لا اميز اولئك من هؤلاء . واغرب من هذا كله اني لم ارض عن نفسي قط ولم اعرفها في يوم من الايام ، وانما سخطت عليها دائماً وانكرتها دائماً . واشد من هذا كله غرابة اني لا استطيع ان احمل نفسي على الصمت الذي يريحني ويريح مني . لا استطيع ان احمل نفسي على الصمت لانها تأبى الا الكلام حين يوجد موضع للكلام ، ولاني ان اكرهتها على ما لا تحب واضطرتها اضطراراً الى الصمت وحملتها على الاغراق فيه جاءني الراضون عني والساخطون علي فاستكرهوني على القول واخرجوني من العزلة وخلطوني بانفسهم واشركوني في خصوماتهم ومشكلاتهم التي لا تنقضي . ليسخط علي من ادباء الشباب والشيوخ من شاء اذن ، فلن يكون سخطهم عليّ مهما اشتد اعظم من سخطي علي نفسي وليرض عني من شاء من ادباء الشباب والشيوخ ، فلن يستطيع رضاهم عني مهما يعظم ان يرضيني عن نفسي . ولكن هناك شيء لا افهمه على كثرة ما حاولت ان افهمه .

فقد وصلت اليّ اصداء تنبئني بأن بعض أدبائنا لا يرون اني لا احسن كتابة القصة فحسب بل يرون اني عقبة في سبيل اتقان القصة . أعترف بأني لا افهم هذه العقبة ولا اعرف من اين تأتي ولا اعرف كيف تكون . فالاصل ان الذي لا يحسنون فناً من الفنون لا يكونون عقبة في سبيل احسان هذا الفن وانما يمر الموجودون للفن بهم كراماً لا يأبهون لهم ولا يقفون عند فئهم ذاك الرديء . واشهد ان كتاباً مجودين للقصة في مصر قد كتبوا فأحسنوا الكتابة وقصوا فأجادوا القصص ، لم احل بينهم وبين الاحسان والاجادة . فقد أحسن الاستاذ تيمور وجود ، وما اراه شعر قط اني كتبت عقبة في سبيل احسانه وتجويده . واحسن غيره من قصاص الشباب وجودوا ولم يروني عقبة في سبيل احسانهم وتجويدهم .

وما اريد مع ذلك ان اكون عقبة في سبيل احد ، ولكني أحب ان يعلمني هؤلاء الادباء كيف أزيل هذه العقبة من سبيلهم وكيف الغيها من طريقهم الغاء . أياكون هذا بالاعراض عن الكتابة وبالتزام الصمت ، ومن الذي يملك ان يكره انساناً على الصمت أو يخرج عليه في الكتابة .

وقد انبأت هؤلاء الادباء بأني حاولت ذلك فلم تجبني نفسي ولم يجبني الناس اليه . أياكون ذلك باستصدار قانون يكرهني على الصمت اكراهاً ويحظر عليّ الكتابة حظراً ؟

وكيف السبيل الى استصدار هذا القانون والاصل ان القوانين لا تشرع لافراد بأعينهم ، وانما تشرع للكافة ؟ وما أعرف ان حكومة في مصر أو غير مصر تستجيب لمثل هذا السخف فتشرع قانوناً أو تصدر أمراً يفرض الصمت على رجل بعينه من الناس . أياكون هذا باستصدار قانون يحيل الكتاب على المعاش اذا بلغوا سنّاً بعينها ولتكن سن الستين مثلاً ؟ ولكن ما ذنب كتاب آخرين ليسوا عقبة في سبيل القصة وليسوا عقبة في سبيل شيء ولا في سبيل انسان ؟

ما ذنب هؤلاء الكتاب وما ذنب قرائهم الذين يؤثرونهم بالحلب ويقرأون لهم مشغوفين به حراساً عليه ؟ أم يكون هذا بأن يمنع القراء من قراءة ما اكتب لتخلو لهؤلاء الادباء ، وجوه القراء ؟ ولكن كيف السبيل الى منع القراء من ان يقرأوا ؟ أياكون هذا بقانون ؟ فقد عدنا الى الشطط الذي أثرت اليه آنفاً . أم يكون هذا بتكوين عصابات تطوف على الناس وتنقصى امورهم وتعاقبهم إن قرأوا بما اكتب قليلاً أو كثيراً ؟ ولكن كيف يستقيم تكوين هذه العصابات وتعقبها للقراء في بلد متحضر يقوم أمره على حماية الامن والنظام وكفالة الحرية للناس يكتب منهم من يشاء ان يكتب ، ويقرأ منهم من يشاء ان يقرأ ، ليس عليهم حرج فيما يكتبون أو يقرأون ما داموا لا يخرجون على القوانين .

الحق اني لا اعرف كيف الغي هذه العقبة من طريق
شبابنا هؤلاء الابداء . فليدلوني اذن على الوسيلة التي تتيح
لي ان ارضيهم ان كان الى ارضائهم سبيل .
وانا بعد ذلك انصح لهم مخلصاً بأن يكونوا رجالاً
وبأن يكونوا أولي حزم وعزم ومضاء وبأن يقهروا ما
يقوم في سبيلهم من المصاعب والعقاب دون أن يحتاجوا
الى ان يقهرها لهم الناس . فقد كنا شباباً قبل ان يولدوا
وكانت العقاب في سبيلنا كثيرة منبهة فذلناها لأنفسنا
بأنفسنا لم يمهّد لنا أحد ولم ييسر لنا أحد طريقنا ولم ييسر
لنا أحد عسيراً ولم يسع إلينا القراء وانما سعينا نحن إليهم ،
ولم تسقط علينا هذه الاصوات البعيدة التي يتحرقون شوقاً
إليها وانما احتملنا الواناً من الجهد واخذنا انفسنا بضروب
من العنف ، وجاهدنا واجتهدنا وصبرنا وصابرنا واحتملنا
فنوناً من الاذى وبلونا الواناً من المرارة حتى اتيح لنا ما
يحسدوننا عليه الآن ، وأمرهم في ذلك ليس غريباً وإن
كان فيه كثير من القسوة الممضة والجحود البغيض . فما
اكثر ما يتعجل الابناء رحيل الابداء ، وما اكثر ما يتبرم
الشباب بحياة الشيوخ ، وما اكثر ما تستطيل الاجيال
الناشئة اعمار الاجيال التي سبقتها الى الحياة ! والبر كل البر
في غير ما تمثليء به قلوب هؤلاء الشباب .

فليصبروا وان كان الصبر شاقاً ، وليكظموا ذات نفوسهم
وان كان كظم ذات النفوس عسيراً . ولينتظروا بشيوخهم

حتى يفارقوهم في سعة ودعة وليذكروا قول الشاعر
العربي القديم :

ليس على طول الحياة ندم
ومن وراء المرء ما يعلم
يموت والد ويخلف مو
لود وكل ذي اب ييتم



وصدى آخر وصل اليّ في هذه العزلة النائية فانبأني
بخصومة اثارها الاستاذ سلامة موسى بين كبار الادباء .
ولست ادري لماذا اقحمني الاستاذ سامي داود في هذه
الخصومة مع اني لم اعلم بها الا من مقاله هذا الاخير ولم
اشارك فيها بالطبع من قريب ولا من بعيد . ولست
اكتب عنها الآن لاشارك فيها . فموضوع الخصومة في
نفسه اهون شأنًا واقل خطراً من هذا العناء . ومصدر
هذه الخصومة فيما يظهر هو ان الاستاذ سلامة موسى يرى
ان القصة المصرية تافهة وان كتابها تافهون وانه لا يصبر
على قراءة انتاجهم .

ومن الحق المطلق للاستاذ سلامه موسى ان يرى في
القصة المصرية وكتابها ما يشاء ، ومن الحق الذي لا
ينازعه فيه احد ان يصبر على قراءة قصصهم ، او لا
يصبر . ومن حق غيره بالطبع ان يرى في القصة المصرية
وكتابها رأياً آخر يخالف رأي الاستاذ سلامه موسى الى
ابعد آماذ الخلاف . وانا من هؤلاء الذين يرون في القصة

المصرية غير ما يرى الاستاذ الكبير سلامه موسى لاني اقرأ كثيراً بما ينتجه قصاصنا ولا اصبِر على قراءته فحسب بل احرص على هذه القراءة اشد الحرص واجد فيها المتاع كل المتاع . وقد اعلنت ذلك في غير موضع . وانا ارى من السرف كل السرف ان يقضى في كلمتين او كلمات على هذا الفن الرائع الذي استحدثه المصريون في ادبنا المعاصر والذي من حق مصر ان تفاخر بأن ابناها كانوا من السابقين اليه ، ومن المبرزين فيه . وليس على القصاص المصريين بأس ان يغض منهم الاستاذ سلامه موسى ما دام قرائهم يرضون عنهم وما دامت آثارهم قد جاوزت حدود وطنهم المصري وما دام بعض هذه الآثار قد جاوزت حدود العالم العربي نفسه الى العالم الغربي فترجم الى لغات اوروبية مختلفة ...

والذي اعلمه ان آثار تيمور وتوفيق الحكيم ليست غريبة بالقياس الى الفرنسيين والانجليز ، والذي اعلمه ايضاً اني قرأت في هذه الرحلة الاخيرة مقالاً طويلاً قيماً بالفرنسية لاحد الادباء الدومنيكيين عن قصة للاستاذ يوسف السباعي هي قصة السقامات . وان هذا الراهب الدومنيكي قد حدثني عن هذه القصة حديث المعجب بها وسألني عن قصص اخرى مصرية ليقراها ويكتب عنها فدلتته على بعض ما أحب من القصص ، وفي مقدمته قصص الاستاذ نجيب محفوظ . لا بأس على قصاصنا اذن ان يستخط عنايهم الاستاذ

سلامه موسى ما دام غيره لا يرى فيهم هذا الرأي وانما
يقدرهم ويكبرهم ويقرأ لهم ويستزيدهم من الانتاج ، ولكن
الاستاذ سلامه موسى فيما يظهر لم يقف عند ازدراء القصة
المصرية وحدها وانما ازدرى الادب المصري المعاصر كله الا
ادبه هو بالطبع .

ثم لم يقف عند الازدراء بل قضى على هذا الادب بانه
غير صالح للبقاء وبأن شيئاً منه لن يقرأ بعد عشرة اعوام .
ومن حق الاستاذ سلامه موسى كذلك ان يزدرى الادب
المصري المعاصر وان يحكم عليه في عنف او رفق وفي
قسوة او لين .

وليس على الادب المعاصر بأس من حكم الاستاذ عليه
وازدرائه له ، ما دام غير الاستاذ من الناس يستطيع
ان يكبر ما ازدرى وان يعرف ما انكر وان يحب ما
كره . ولكن الشيء الغريب حقاً هو سبق التاريخ
والحكم عليه قبل ان يكون . فمن يدري أبقى الادب
المصري المعاصر حتى يقرأه الابناء والاحفاد ام يلقي عليه
الستار قبل ان ينقضي العصر الذي انشيء فيه ؟ اما انا
فاعترف مخلصاً اني عاجز كل العجز عن ان احكم بان كتاباً
من الكتب صالح للبقاء ، قادر او غير قادر على ان
يعيش حتى يقرأه الابناء والاحفاد . ذلك لأنني لا اعرف
من مزاج هؤلاء الابناء والاحفاد شيئاً يمكنني من ان
الائم بينه وبين ما يكتب الادباء المعاصرون . والله لا

يكلف الاديب المعاصر ان يكتب للذين يعاصرونه من الناس ثم للاجيال التي تأتي بعدهم على مر التاريخ . وانما تلك هبة يتيحها الله لبعض الادباء النابهين المتفوقين ويصرفها عن بعضهم الآخر .

ولست ادري اكان شكسبير مؤمناً بان آثاره سيتاح لها من البقاء والانتشار ما يجعلها آثاراً انسانية خالدة ام كان يرضى من آثاره هذه بان تعجب النظارة حين تعرض عليهم ولا يعنيه بعد ذلك ابقى بعده ام تمضي بعده .

وقل مثل ذلك بالقياس الى اكثر الادباء الذين انتجوا آثارهم في الازمنة والامكنة المختلفة . فكروا في فنهم وفي معاصريهم ، ولم يفكروا في شيء مما وراء ذلك . واتيح البقاء لآثار بعض الادباء لا لانهم ارادوا هذا او قصدوا اليه او اهتموا له بل لانهم وفقوا الى انتاج اشياء كان من حظها الا تموت معهم . وقليل من الادباء فكروا في الاجيال المقبلة ، دفعهم الى ذلك الغرور او دفعهم الى ذلك الاخلاص في حب الناس وفي حب الفن ايضاً ، واستجاب الزمان لبعضهم فأبقى آثارهم ، واعرض عن بعضهم الآخر فطوى آثارهم حين طواهم وبعد ان طواهم بقليل . وما اكثر الادباء الذين بهروا معاصريهم وملكوا عليهم امرهم كله واستأثروا بقلوبهم والبايهم واذواقهم حتى صنعوا صنيع الاستاذ سلامه موسى فسبقوا

التاريخ وقضوا لهؤلاء الادباء ولاآثارهم بالخلود، ثم مضوا ومضى معهم هؤلاء الادباء ومضت معهم هذه الآثار ، فلم يبق منها شيء . والآثار الباقية قليلة جداً بالقياس للآثار الخالية التي التهمها الزمان وما اكثر ما يلتهم الزمان من الناس وآثار الناس . ومن الادباء من لم يحفل بهم معاصروهم ولم يلتفتوا الى آثارهم لانهم لم يذوقوها او لم يفهموها فصنعوا صنيع الاستاذ سلامه موسى وسبقوا التاريخ وقضوا على آثار هؤلاء الادباء بالموت في حياة اصحابها ، ثم انقضت اجيال واجيال واذا هذه الآثار تظفر بحياة لم يكن احد يقدر انها ستظفر بها . واذا الناس يقدرونها ويكبرونها ويتنافسون فيها ويهدون الى اصحابها من الثناء والاعجاب بعد موتهم بالزمن الطويل او القصير ما كانوا في حاجة الى ايسره اثناء حياتهم ليشعروا بشيء من الرضى وليستمتعوا بشيء من راحة النفوس والضماير .

كان الاستاذ سلامه موسى عابثاً اذن حين قضى بغير علم وحين حكم فيما لا يملك الحكم فيه . وكانت الذين خاصموه من الادباء المعاصرين عابثين ايضاً لانهم قضوا بغير علم وحكموا فيما ليس لهم ان يحكموا فيه . وصنع الله للانسان ، فان الغرور يحشمه اهوألاً عظماً . ما الذي يعني الاديب من ان يبقى ادبه بعده او ان يموت بموته ؟ لقد كنت افهم حرص الاديب على بقاء آثاره لو وثق بانه سيحس الرضى والغبطة حين تستبق الاجيال بعد موته الى

آثاره قراءة وشرحاً ونقداً وتحليلاً وتأويلاً وتعليلاً .

ولكن من الذي يستطيع ان ينبيء بان هوميروس يحس شيئاً من النعيم والرضى عن نفسه وعن فنه حين يرى تهافت الاجيال على آثاره ، وحين يرى اساتذة الجامعات يتحدثون عنها الى الشباب ، ويشقون بدرسها وتأويلها اكثر مما شقي هو بانتاجها واذاعتها . ورحم الله ابا الطيب حين قال في آثاره انه ينام ملء جفونه عنها وعن مشكلاتها والناس يسهرون عليها ويختصمون فيها . اتراه رضي وابتهج بهذه الشروح التي لا تحصى لديوانه ، وبذلك العيد الالفى الذي اقامته له البلاد العربية منذ سنين ؟ وقل مثل ذلك بالقياس الى ابي العلاء والى كثير غيره من الادباء الخالدين .

عبث اذن تلك الخصومة بين الاستاذ سلامه موسى والادباء المعاصرين ، ولكن الادب في حاجة الى شيء من العبث وهو كذلك في حاجة الى شيء من الغرور ليعيش ويزدهر وليملأ الدنيا ويشغل الناس .

ومن اجل هذا الفت الاستاذ سامي داود الى شيء من القصد في حكمه على الادباء المعاصرين شيوخهم وشبابهم ، فهم لم يكونوا هدامين حين اختصموا وانما كانوا بنائين . والخصومة قوام الادب ، الخصومة بين الاجيال القديمة والحديثة ، والخصومة بين الادباء الذين يعيشون في جيل واحد . وأكاد اقول ان الخصومة قوام الحياة . ولامر ما

قال الناس منذ اقدم العصور ان الحياة صراع وان الحياة
جهاد .

وهل يعرف الاستاذ سامي داود عصرًا عاش فيه ادباء
دون ان يختصموا ودون ان يعنف بعضهم ببعض احياناً
ويرفق بعضهم ببعض احياناً اخرى ؟ وتبقى خصوماتهم بعد
ذلك متاعاً للأجيال التي تتعاقب على مر العصور .

وهل المذاهب الادبية المختلفة والمذاهب الفلسفية المختلفة
إلا نتيجة للخصومات بين الادباء والفلاسفة ؟ احق ان
الخصومة بين العقاد والمازني وشوقي لم تكن الا تجريباً
وهدماً ؟ ام الحق ان هذه الخصومة قد فتحت للمعاصرين
من الادباء المصريين ابواباً جديدة في الفن وآفاقاً جديدة
في النقد وعلمتهم ان الشعر لا ينبغي ان يكون تقليداً
للقدماء ومحاكاة لهم في رصانة اللفظ وجزالة الاسلوب
وروعة النظم مهما تكن مكانة هؤلاء الادباء ومهما يعظم
حظهم من التفوق والنبوغ ؟ وانما ينبغي ان يكون الشعر
مقتطعاً من الحياة التي يحياها الناس في العصر الذي يقال
فيه ، مقتطعاً منها وسابقاً لها ايضاً ، وفاتحاً لقرائه
وسامعيه آفاقاً جديدة في التصور والحس وفي الشعور
والخيال . ولو لم يكن للعقاد والمازني من فضل في
نقدهما لشوقي خاصة وللمذاهب المقلدين في الشعر عامة إلا
أنهما فتحا للمصريين ابواباً ونوافذ رأوا منها ما كان من
الحق عليهم ان يروا ، وعرفوا منها ما كان من الحق

عليهم ان يعرفوا من المذاهب الحديثة عند الغربيين في
الشعر والنقد والادب بوجه عام ، لكان هذا الفضل عظيماً .
فكيف وهما قد نهضا بهذا العبء في وقت كان التعليم فيه
ضئيلاً هزيباً لا يعني عن المعلمين والمتعلمين شيئاً . والمصريون
بعد ذلك لم يخسروا شيئاً بهذا النقد الذي يسميه الاستاذ
سامي داود تجريحاً وهدماً واسميه أنا تجديداً وبناء .
فالعقاد والمازني لم يهدما شوقي ولم يغضا من قدره
وانما وضعاه من التاريخ الادبي حيث يجب ان يكون .
والناس ما زالوا يقرأون شعره ويتناولونه بالدرس والنقد
ويرون شوقي أمير الشعر العربي في وقته وهم مع ذلك
يقرأون نقد العقاد والمازني فيرون فيه مذهباً أو مذاهب
جديدة في الادب كان لها آثارها الخطيرة فيما انتج العقاد
والمازني وغيرهما من شعراء الشباب وكتابهم في ذلك
الوقت .

وقد ذكر الاستاذ سامي داود أني بايعت الاستاذ
العقاد بامارة الشعر في وقت من الاوقات وان هذه البيعة
كانت سياسية ، اقتضتها ظروف خاصة . وأحب ان
أؤكد للاستاذ أني لم أباع العقاد بامارة الشعر وما كان لي
أن ابايعه لاني لم اكن شاعراً وانما قلت مخلصاً غير محابٍ
ولا متأثر بالسياسة ولا مستعد للرجوع فيما قلت .
قلت ان الشعراء يستطيعون ان يدفعوا لواء الشعر الى
العقاد بعد ان مات حافظ وشوقي فهو يستطيع ان يحمل

هذا اللواء مرفوعاً منشوراً وان يحتفظ لمصر بمكانتها في الشعر الحديث .

ولم اغير ولن اغير مما قلت شيئاً الا ان يظهر شاعر جديد يتفوق على العقاد . فلعقاد شعر رائع بارع رصين متين لا يخدع ببهرج اللفظ ولا يسجر بروعة الاسلوب وانما يعجب باللفظ والاسلوب والمعنى جميعاً .

وللعقاد شعر اقل ما يوصف به انه يدل على شيء ، ويدل على شيء من حقه ان يحب الشعر الى الناس . وقد خاصمت العقاد في غير موطن من موطن الخصومة . خاصمته في السياسة وخاصمته في الادب ، وخاصمته في غير السياسة والادب ايضاً . ولكن هذه الخصومة لم تغض من قدر العقاد في نفسي وما اظن ان بين لدات العقاد واترايه ومعاصريه من يقدره ويكبره مثل ما اقدره انا واكبره . وليس يعني ان يكون رأي العقاد في كراي فيه ، وانما الذي يعني ان اقول الحق وان كرهه الكارهون وان كرهه العقاد نفسه .

والذين عاصروا خصوماتي للعقاد يذكرون من غير شك اني اثنت على ادبه في جريدة السياسة حين كانت الخصومة بين الوفدين والدستوريين كأعنف ما تكون الخصومات . لم يمنعني ذلك من ان اسجل انه كاتب عظيم وشاعر ممتاز . وقد كانت الحرب سجالاً بينه وبينني فلم يمنعه ذلك من ان يقوم مقام الرجل الكريم في مجلس النواب ، فيدافع

عني حين كان الوفديون جميعاً عليّ حرباً .
وقد خاصمت الرافعي رحمه الله كما خاصمه العقاد ،
وخاصمت المازني وهيكلاً وغير المازني وهيكلاً كما خاصموني ،
ولكن ذلك لم يمنعنا في يوم من الايام من ان نكون
صديقاً يعرف بعضنا لبعض حقه ويضمر بعضنا لبعض ما
يضمّر الصديق للصديق من الوفاء .

وما اعرف ان الخصومة بين العقاد وبينني قد انقضت .
فما دام كلانا يكتب فالخصومة بيننا ممكنة . ولكننا قوم
نعرف كيف نختصم دون ان تفسد الخصومة رأي احد منا
في صاحبه .

وقد خاصمت توفيق الحكيم او خاصمني توفيق الحكيم .
وسله ان شئت عما تركت هذه الخصومة في نفسه ولا
تسلني أنا عما تركت هذه الخصومة في نفسي ، فكل الناس
يعرف ان الخصومة بين الناس وبينني مهما تشدد فهي اهون
شأناً وأقل خطراً من ان تترك في نفسي أثراً .

وقد تعلم الاستاذ سامي داود في الجامعة فيما تعلم ان
جريراً والفرزدق والاخلط قد انفقوا اعمارهم يهجو بعضهم
بعضاً فلم يهدم احد منهم احداً ، ولم يخرج احد منهم
احداً من زمرة الادباء . وآية ذلك اننا ما نزال نكتب
ويقرأ الناس . وآية ذلك ان الاستاذ سامي داود ما زال
يسمينا ادباء كباراً سواء أكان يريدنا كباراً في السن او
كباراً في المقام .

ما زال يرانا ادباء وما زال ينتظر آراءنا في كثير
من المشكلات الادبية التي تعرض بين الشيوخ والشباب .
ولعل الاستاذ سامي داود يعرف الان طرفاً من رأني في
كتاب الشباب وفي قصاصهم خاصة . وانا اريد ان يطمئن
وان يرضى فانا اكثر الناس قراءة لادب الشباب اقرأه
مطبوعاً وأقرأه مخطوطاً واشجع اصحابه على الانتاج سرّاً
واعلاناً والقي في ذلك قليلاً من الوفاء وكثيراً من
الجحود . فاشكر للاوفياء وفاءهم واعفو للجاحدين عن
جحودهم لانني حين اكتب لا انتظر من الذين اكتب عنهم
جزاء او شكوراً ، ولا ارهب منهم غضباً او نفوراً ، وانما
اكتب لان كلمة الحق يجب ان تقال .

اما بعد فاني قد اسرفت في هذا الحديث ومن حقه
ان يقف عند هذا الحد . ولكني اهدي الى الاستاذ سامي
داود تحية صادقة واتمنى عليه ان يكون مثلي حريصاً على
ان تشتد الخصومة بين الادباء شيوخهم وشبابهم . فالادب
جذوة يذكيها الوقود وتوشك ان تتمد اذا لم تجد هذا
الوقود .

فلتذكُ جذوة الادب اذن وليسطع لهبها ، ولا بأس
بأن نكون نحن الادباء وقوداً لهذه النار .

أَدَبُ الثَّوْرَةِ وَثَوْرَةُ الْأَدَبِ



لم تكذب ثورتنا تنشب وتغلا أحداثها وظواهرها قلوب
الناس وعقولهم في مصر وفيما حولها من البلاد العربية ، حتى
أخذ فريق من الكتاب يتساءلون في الحاح : « اين أدب
الثورة ؟ »

ثم لم تكذب الثورة تبلغ من عمرها أشهراً قصاراً ، حتى
أخذ هؤلاء الكتاب يظهرون اليأس وخيبة الأمل لأن
أدب الثورة لم يستجب لهم حين دعوته ، ولم يهبط عليهم من
السماء كما يهبط الغيث ، ولم تتفجر عنه ينابيع الأرض كما
تتفجر عن الماء والبتروول .

ثم لم يلبثوا ان قرروا فيما بينهم وبين انفسهم ، ثم فيما
بينهم وبين قرائهم ، ان الأدب المصري قد أخفق لأنه لم

يردد أصداء الثورة ولم يصور حقائقها ، ولم يلائم ما تتصل به نفوس الناس وقلوبهم من هذه العواطف والخواطر التي اثارها الأحداث ، ولا سيما بعد أن أخرج فاروق من مصر ، وبعد ان ازيلت اسرته كلها وصار الأمر كله الى المصريين يدبرونه بأنفسهم ، لا يتنزل عليهم وحي من العرش ولا من سلطان المحتلين .

وما اكثر ما كانوا يقولون ، وما اكثر ما يقولون الآن ايضاً ، ان الأدب المصري يعيش في واد على حين يعيش المصريون في واد آخر .

وكذلك تقرر في نفوس كثير من الناس ان أدبنا المعاصر مقصر أشد التقصير ، مخفق اعظم الاخفاق ، لأنه لم يحس بما تجيش به الصدور ولم يصبح مرآة للحياة التي يحياها الناس . ونشأ عن هذا الحكم الخاطف ان فريقاً من الناس استيأس من الادب المعاصر وكاد يستيئس من الادب كله ، وأعرض عن قراءة الأدب وانصرف الى قراءة الصحف يجد فيها ما يعينه على قطع الوقت وتجديد النشاط ، ويجد فيها كذلك اصداء ما يلائم حياة الناس من الأحداث .

واقبل فريق من الكتاب على انشاء ادب يلائم ما يطلبه هؤلاء السادة من تصوير الثورة وحقائقها ، وابتهاج الناس بما ظهر من نتائجها .. وتوقب الناس لما لم يظهر بعد من هذه النتائج . فأخرجوا لنا أدباً يحسبونه أدب

ثورة وليس هو من أدب الثورة في شيء . وإنما هو كغيره من الأدب الذي انشيء قبل ان تنشب الثورة بالاوقات الطوال والقصار . ومصدر هذا الحكم باخفاق الأدب وخيبة الأمل فيه إنما هو هذا الخطف الذي نهت اليه غير مرة في هذه الاحاديث ، والذي يأتي من القصور عن تعمق الاشياء وفهم الحياة الاجتماعية على وجهها ووضع الأشياء في مواضعها .

فليس من فقه الحياة في شيء ان ينجم الادب فجاءة من الأرض او ينصب فجاءة من السماء ، لأن الثورة شبت في الثالث والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ ، وإنما نشوء الأدب وتطوره من هذه الظواهر البطيئة التي لا تستجيب للناس حين يتعجلونها ولا تستأخر عن ابانها ، وان تمنى الناس عليها الاناة والابطاء .

وأكد اعتقد ان القدماء من مؤرخي ادبنا العربي كانوا افقه بالحياة واحسن لها فهماً وتقديراً من هؤلاء المعاصرين الذين يخطفون احكامهم خطفاً ويظنون ان ظواهر الحياة خاضعة لسلطانهم : يدعونها فتستجيب ، ويهملونها فتنتظر ، ويرجئونها فتزجيء نفسها .

فنحن نقرأ في بعض الكتب العربية التي حاول اصحابها منذ اكثر من الف عام ان يؤرخوا الأدب العربي القديم اشياء لا يكاد المعاصرون يسيغونها او يطمثون اليها ، لأنها بجانب ما ألفوا من السرعة وتخالف ما استحبوا من

هذا الاستعجال البغيض .

تقرأ مثلاً عند بعضهم ان ظهور الاسلام قد اضر
الشعر العربي الى الضعف والتهافت ، لأن العرب بهرهم
القرآن وشغلتهم احداث النظم الجديدة وما استتبع من
الفتوح ، عن الفراغ لقول الشعر وتجويده والتأنق فيه كما
كان الجاهليون يصنعون . والقدماء يستنبطون هذا من
إعراض لبيد عن قول الشعر بعد ان أسلم ومن اشتغاله
بقراءة القرآن وحفظه ، ويستنبطونه كذلك مما عرض
لشعر حسان من الضعف في اكثر شعره الاسلامي ، بعد
ما كان شعره الجاهلي يمتاز بالرصانة والقوة والفحولة . كما
يستنبطونه من ان بعض شعراء النبي صلى الله عليه وسلم
كانوا يكثرّون في هجاء قريش فلا يبلغون منها شيئاً ،
لأنهم كانوا يعيبونها بالكفر والشرك وينذرونها بعذاب الله
في الحياة الآخرة . ولم تكن قريش تحفل بشيء من هذا
حين كانت تعارض الاسلام وتنصب له الحرب .

ومع ان رأي القدماء هذا لم يكن دقيقاً كل الدقة
ولا صادقاً كل الصدق ، لانه لم يقيم على الاستقراء
الصحيح ، فانه كان يصور حقيقة واقعة .. وهي ان
الشعراء الذين ارادوا ان يجددوا انفسهم بعد ان اسلموا ،
وان يلائموا بين فنهم وبين دينهم الجديد لم يوفقوا في اكثر
الأحيان الى ما كانوا يريدون ، لأن الطبع لا يستكره
على ما لا يحب في كثير من الأشياء .. وفي شئون

الأدب والفن بنوع خاص . ولم يخطيء ابن دريد حين
قال :

والشيخ ان قوّته من زيفه

لم يقم التثقيف منه ما انحنى

وهؤلاء الشعراء كانوا قد جاوزوا سن التطور ، فلم
يكن من السير ان يرجعوا ادراجهم ولا ان يبتكروا
لأنفسهم طبعاً جديداً . فكان تجديدهم تكلفاً وكان اعراض
ليبد عن الشعر نوعاً من اليأس ، لأنه عرف انه لا يستطيع
ان ينشيء فناً يجمع بين الملاءمة لحياته الجديدة التي ادركها
شيخاً وبين الروعة التي اتاحت له فيما أنشأ من الشعر قبل
ان يعتنق الاسلام .

وليس ادل على ذلك من ان شعراء آخرين أسلمت سنتهم
واستجابت ظواهر امرهم للنظام الجديد وظلت طباعهم
جاهلية كما كانت فقالوا الشعر في الفنون التي ألفوها قبل
ان يسلموا ولم يتعرض شعرهم لضعف او تهافت أو خمود ،
وانما احتفظ بقوته كاملة كدأها حين كان اصحابها جاهليين .
فالخطيئة مثلاً لم يتغير فنه بعد اسلامه لأنه لم يحاول
لفنه تغييراً ، ولأن الاسلام لم يصل الى اعماق نفسه ،
فظل مساماً في ظاهر امره وفيما كان يبدو من بعض سيرته
الاجتماعية ، ولكنه ظل جاهلي القلب والذوق والضمير ،
يقول الشعر هاجياً ومادحاً وواصفاً كما تعود ان يقوله في
العصر الجاهلي . وامثال الخطيئة كثيرون نستطيع ان نقرأ

شعرهم فيما حفظ لنا من شعر القدماء ، فلا نرى فيه انحرافاً
عن السنة الجاهلية ولا تأثراً عميقاً بالثورة الاسلامية الخطيرة
التي قلبت حياة العرب رأساً على عقب ، وغيرت امورهم
كلها تغييراً لم يكن لهم ببال .

ومن اجل هذا صنع بعض الذين ارخوا الشعر العربي
القديم صنيعاً أقل ما يوصف به انه ملائم للدقة والصدق
وصواب الحكم اشد الملاءمة وأقواها . فلم يطلقوا وصف
الشعراء الاسلاميين الا على فريق بعينه يتألف من اولئك
الذين لم يدركوا الاسلام شباباً ولا شيخوخاً ، وانما ولدوا
في الاسلام ولم يعرفوا العصر الجاهلي الا كما يعرف التاريخ .
فالشعراء الفحول كالاخطل والفرزدق وجريز اسلاميون
لأنهم ولدوا بعد ان اسلمت الجزيرة العربية ، وبعد ان
فاض الاسلام منها على ما حولها من الاقطار . وعمر بن
أبي ربيعة شاعر اسلامي لأنه ولد - فيما يقول الرواة -
في اليوم الذي مات فيه عمر بن الخطاب رحمه الله . وقل
مثل ذلك بالقياس الى عامة الشعراء الذين ولدوا أيام الخلفاء
وشبوا وادركتهم الشيخوخة أيام بني أمية .

هؤلاء شعراء اسلاميون لم يدركوا الجاهلية ، ولم
تدركهم الجاهلية ، وانما رويت لهم أحداثها كما ستروى
أحداث العصر الذي نعيش فيه للذين اخذوا يولدون منذ
سبقت الثورة . فهم قد نشأوا نشأة اسلامية . رأوا آباءهم
يخضعون للنظام الجديد يؤدون الواجبات الدينية والواجبات

السياسية الجديدة، ويقرأون القرآن ويروون الحديث ويتحدثون
عن النبي واصحابه وخلفائه ويختلفون الى المساجد مصبحين
ومسرين وبين الصباح والمساء .

وهؤلاء المؤرخون عندما عرضوا للشعراء الذين ادرکوا
الاسلام أو ادرکهم الاسلام وهم شباب أو شیوخ لم یسموهم
شعراء اسلاميين ، انما عدّهم بعضهم في صراحة شعراء
جاهليين .. لانهم تأثروا بالحياة الجاهلية التي انضجت قرائحهم
وكونت اذواقهم فلم يستطيعوا لطبائعهم تغييراً .

وبعض هؤلاء کره ان یسمیهم جاهليين .. لانهم
اسلموا وكثير منهم كان عمیق الاسلام حسن البلاء في ذات
الله فسموهم مخضرمين : أي مختلطين . عاشوا بعض اعمارهم
جاهليين وبعضها الآخر مسلمين .

ومعنى هذا كله ان القدماء من مؤرخي الادب العربي
فهموا حقيقة الصلة بين الثورة والادب خيراً مما يفهمها كثير
من کتابنا المعاصرين .

عرفوا ان الثورة مهما تكن خطيرة ومهما تكن بالغة
عميقة الاثر في حياة الافراد والجماعات ، لا تغير الادب
فجأة ، ولا تحوّل طبيعة الفن إلا تحويلاً يسيراً اقرب الى
التكلف منه الى الفطرة التي تستجيب لما حولها من حقائق
الحياة في غير جهد ولا عناء .

وهناك وجوه اخرى للصلة بين الادب والثورة لا
یحققها کتابنا المتعجلون . فالادب یهد للثورة وينشئها لانه

يثير نفوس الناس ويبغض اليهم بعض اطوار الحياة التي يحبونها ، ويعرض عليهم مثلاً جديدة يجيبها اليهم ويزينها في قلوبهم ويطبعها في نفوس الناشئين والشباب الذين لم تتقدم بهم السن بعد .

وهو بهذا يفتح للثورة ابواب النفوس والضائير ويمهد لها الطريق في حياة الافراد والجماعات ، يتاح له النجاح احياناً ويدركه الاخفاق احياناً اخرى . فاذا اتيسر له النجاح لم تتغير طبيعته فجأة . وانما ظل كعهده مضطرباً بين القديم الذي هدمه وبين الجديد الذي انشأه ، حتى اذا استقرت امور الثورة واصبحت طبيعة للأجيال الجديدة الناهضة كما يقال في هذه الايام ، نشأ الادب الذي يمكن ان يضاف الى الثورة حقاً وصدقاً .

ويكفي ان تفكر في حياة الفرنسيين اثناء القرن الثامن عشر ، فسترى طائفة من الادباء والفلاسفة والمفكرين انكروا حياة العصر الذي كانوا يعيشون فيه ، وحملوا الناس من حولهم على انكارها وطبعوا هذا الانكار في نفوس الناشئين والشباب الذين لم يتم نضجهم بعد . فأنشأوا جيلاً جديداً هو الذي ألهب نار الثورة وملأ بها الدنيا وشغل بها الناس ، وغَيَّرَ بها حياة فرنسا وأوروبا وأجزاء أخرى كثيرة من العالم .

ولكن هؤلاء الأدباء والفلاسفة والمفكرين لم يدركوا الثورة التي أنشأوها ، وانما اطفأ الموت جذوة نفوسهم قبل

ان يشعلوا هم جذوة الثورة فماتوا قبل الثورة بوقت قصير
أو طويل .

والذين ثاروا بالفعل وملأوا الدنيا هولاً وإصلاحاً في
وقت واحد ، لم ينشئوا أدباً ذا خطر . شغلوا بالعمل
عن الفن وشغلوا بصنع التاريخ عن كتابته وابتكروا
للادباء الذين جاءوا بعدهم موضوعات أنشأوا فيها أدباً حياً
رائعاً أتيح البقاء لكثير منه وذهب بعضه مع ما يذهب
من آثار الناس .

وابحث ان شئت عن الاديب الفرنسي الذي عاصر
الثورة وأنشأ في أثناءها أدباً جديراً بالبقاء ، فلن تجد هذا
الاديب مهما تطل في البحث والتنقيب ، بل تستطيع أن
تقرأ ما تركه رجال الثورة انفسهم من الخطب والاحاديث
التي ألهمت نفوس المعاصرين ودفعتهم الى النهوض بالاعباء
الثقال وتحقيق الامور العظام ، فلن تجد في هذه الخطب ما
يلائمه ذوقك الفني : بل لن تجد فيها ما يرضي عقلك
المستأنى وحكمك الذي يريد ان يتدبر قبل ان يصدر ،
لانها كانت خطباً وأحاديث تلائم الظروف والاوقات التي
أغرت بها ودفعت اليها ، فلما تغيرت تلك الظروف وانقضت
تلك الأوقات ، أصبحت تلك الخطب والأحاديث تاريخاً
من التاريخ ، لا تصلح إلا لقراءة الباحثين الذين يريدون
ان يؤرخوا للأحداث . ولكن انظر بعد ذلك فيما أنشأ
الكتاب والشعراء الفرنسيون بعد ان استقرت الامور في

وطنهم ، وبعد ان تأثرت حياة بلادهم بالثورة واصبحت الحرية لهم طبعاً والرقى لهم غاية لا يستطيعون عنها نكولاً فستوى الادب الحق والفن الجدير بالبقاء .. وستوى أن ادب الثورة انما يأتي بعد الثورة لا اثناءها .

وما أشك في أن هذا النحو من تصوير الصلة بين الأدب والثورة هو الذي يلائم حقائق الاشياء ، ويفسر ما بين الادب والسياسة من تضامن وتعاون وتفاعل كما يقول المعاصرون . فالادب يثور قبل ان تثور السياسة . وثورة الادب هي التي تمهد الطريق لثورة السياسة .. لأنها تهيب قلوب الناس ونفوسهم وعقولهم . تبغض اليهم نظاماً قائماً ، وتجيب اليهم نظاماً تحقق لهم آمالاً تمتد اليها عقولهم وتقصر عنها ايديهم ، وليست الثورة السياسية آخر الامر إلا استجابة لثورة العقول والقلوب والنفوس التي يحدثها الادب وتحديثها مع الادب مؤثرات اخرى ، يتصل بعضها بالحياة المادية للناس ويتصل بعضها بالحياة المعنوية . ويأتي بعضها من الصلة بين الامة وبين امم أخرى تحيا حياة خيراً من حياتها ، وادنى الى العدل والحرية وانصاف المظلومين من الظالمين والمساواة بين المستأثرين الذين يجدون كل شيء والمحرومين الذين لا يجدون شيئاً .

ولست اعرف ثورة سياسية بالمعنى الحديث او القديم للفظ الثورة ، إلا وقد سبقتها ثورة ادبية عقلية كانت هي التي أغرت الناس بها ودفعتهم اليها وأخرجتهم عن أطوارهم

فلم يستطيعوا صبراً على ما يكرهون ولا إبطاء عما يريدون .

هناك اذن ثورتان ، اولاهما ثورة العقل التي يصورها الادب ، والثانية ثورة السياسة التي تعتمد على القوة فتغير نظاماً وتقيم مكانه نظاماً آخر . وهناك ادبان : ادب يسبق الثورة ويدفع اليها ، وادب يأتي بعد الثورة فيصورها أولاً ويصور آثارها في حياة الناس ، ويحجب اليهم هذه الآثار ويدفعهم الى الأمام في ميدان الرقي والاصلاح والتجديد . والادب في اثناء الثورة حين تضطرب نفوس الناس بالامل والطموح ، ونفوس فريق منهم بالخوف والحفاظة ، متواضع مقتصد يمشي على استحياء - ان امكن وصف الادب بالمشي وبالحياء ايضاً - لان الناس مشغولون عنه بأحداث الثورة مما يقع وما ينتظر وبما تدفع اليه هذه الأحداث ، ولأن الادب - ولا سيما في هذا العصر الحديث - انما يستمد حوله وطوله وقوته وروعته من الحرية الكاملة التي لا معقب عليها . وهذه الحرية موقوفة بطبيعة الاشياء اثناء الثورة ، سواء اراد الناس ذلك ام لم يريدوه . والادب يجاهد في سبيل الحرية ويحتمل في هذا الجهاد الوان المكروه على اختلافها قبل ان تصبح الثورة السياسية امراً واقعاً .

وهو يجهاده وبجمله الخطوب يدفع الى الثورة دفعاً ، لانه يقاوم الاستبداد والعسف ويدعو الناس الى مقاومتها .

وهو في اثناء الثورة لا يستطيع ان يقاوم الثورة لانه
يقاوم نفسه إن قاومها ، فالثورة ابنته وثمرته . وهي لا
تقف الحرية الا لتطلقها بعد حين يقصر او يطول .

فالادب الذي ينشأ اثناء الثورة إما أن يجري على
طبيعته الاولى فيكون اتصالاً للادب القديم ، واما ان
يحاول مجاراة الثورة السياسية فيكون دعوة لها واغراء بها .
وهو في هذه الحال ادب ضعيف فاتر لان الاحداث المادية
الواقعة اقوى منه وأظهر أثراً ، يراها الناس ويجسسون
آثارها في نفوسهم وفيما حولهم من الحياة والاحياء .

وهذا هو الذي يعلل ما اصاب شعر حسان من
الضعف . كانت الثورة الاسلامية اقوى من شعر الشعراء
وكان كل فن بالقياس اليها اثناء قيامها فاتراً ضئيلاً .

وهو يعلل في الوقت نفسه انصراف بعض الشعراء عن
الشعر ، لأنهم لم يروا لانفسهم فيه ارباً . وهو يعلل
كذلك اتصال الشعر الجاهلي بأساليبه القديمة عند شعراء
الأعراب الذين قال الله عز وجل فيهم : « قالت الاعراب
آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل
الايمان في قلوبكم » .

واقراً ان شئت فيما يتصل بالأدب الفرنسي اثناء الثورة
ما كتبه شاتوبريان في مذكراته عن المامه بباريس حين
كانت النفوس مضطربة ثائرة ، فستراه يصف اندية الادباء
في تلك الاوقات بالضعف والفتور وقلة الغناء .

ليس هناك معنى اذن لمطالبة الأدباء المعاصرين بانشاء
أدب الثورة ، لأن أدب الثورة الحق لم يأت وقته بعد .
وسياتي وقته حين يخرج الشباب الذين تطبع الثورة نفوسهم
بطابعها ، والذين يتعلمون الان في المدارس وفي الجامعات
ان شئت ، اي ان هذا الادب لن تظهر بواكبه الا
بعد اعوام نرجو ألا تكون مسرفة في الطول . ولست
اسك في ان ادب الثورة هذا الذي اتحدث عنه سيكون
مغايراً مغايرة شديدة لأدبنا الذي ننتجه ونعيش عليه
الان . فيستخلص الجيل الناشيء من تعقيدات مختلفة
قاومناها نحن ما وجدنا السبيل الى مقاومتها . ولكننا لم
نستطع ان نعفي انفسنا من آثارها واعقابها . لن يحتاج
الجيل الناشيء الى ما احتجنا اليه دائماً من مداورة السلطان
والاحتياط من شره والاستخفاء بكثير من آرائنا ، نكتمها
احياناً في نفوسنا فنشقى بكتمانها ، ونعرب عنها احياناً في
في كثير من الالغاز واصطناع المجاز والافتتان في التنكر
والتستر والاستخفاء . لن يحتاج الجيل الناشيء الى شيء من
هذا لأنه لن يجد أمامه النظام الملكي المستأثر بالامر من
دون الشعب . وسيخلص الجيل الناشيء من تعقيد آخر
قاومناه ما استطعنا ان نقاومه ولكنه كان يؤثر في حياتنا
العقلية حتى اثناء مقاومتنا له تأثيراً بعيد المدى . وهو
تعقيد الاحتلال الاجنبي الذي كان يتغلغل في اعماق حياتنا
المادية والسياسية ويتدخل في كثير من مرافقنا ويؤثر

بذلك في مصالح الافراد والجماعات ويخالف النظام الملكي
حيناً فيثقل علينا المول ، ويخالفه حيناً آخر فيأخذنا الشر
من جميع اقطارنا ونضطر الى كثير من المصانعة والموادة ،
ونلاين حيناً ونخاشن حيناً آخر ونشقى بتفرق الأهـواء
واختلاف الميول والنزعات من حولنا . ونجد العناء كل العناء
في التماس ما نلتمس لانفسنا من طريق الى التفكير والتعبير .
لن يشقى الجيل الناشيء بهذا الاحتلال لانه سيحيا في
وطن لا يتسلط الأجنبي عليه من قريب او بعيد . سينشأ
حرّاً في وطن حر بأوسع معاني هذه الكلمة وأعـمقها .
وسيخلص من عقدة الاستعمار هذه التي شقيت بها الاجيال
من قبله دهرّاً طويلاً .

وسيخلص الجيل الناشيء من عقدة اخرى غير هاتين
العقدتين . وهي عقدة النظام الاقتصادي البغيض الذي
شقيت به الأجيال من قبله ، والتي قسمت الشعب الى
الأغنياء المترفين الذين ينفقون بغير حساب فيما لا يغني عنهم
ولا عن غيرهم شيئاً ، والفقراء المعدمين الذين يشقون بغير
حساب لأنهم لا يجدون ما يقيم الود او يرضي حاجة
الانسان الذي يستطيع أن يكون انساناً .

وكلمات المرض وال فقر والجهل والاعداء الثلاثة التي
كانت الحكومات تتشدد بها فيما مضى ، كلمات يسيرة
حين تنطق بها الالسنه ولكنها عسيرة معقدة حين نحاول
ان نحقق معانيها في نفوسنا . فهي تصور أسقى ما يمكن

ان يفرض على الناس من ضروب الحياة ، وهي تمتحن نفوسهم بألوان لا تحصى من التعقيد الذي يمت القلوب ويفلّ الحدد ويلغى النشاط ويبغض العيش الى الناس .

هذا الذي لا يجد ما ينفق وله قلب ذكي وعقل راجح وقدرة على العمل الحُصْب والنشاط المنتج ، ولكنه لا يستطيع ان يعمل ولا ان ينشط لانه لا يجد الى العمل ولا الى النشاط سبيلاً ، وكيف السبيل الى العمل والنشاط اذا لم تجد من الطعام والشراب ما يمسك عليك الحياة . وهذا الجاهل الذي لا يفرق بين الخير والشر ، ولا

يميز بين ما ينفعه وما يضره ، وله فضل من قوة وحظ من أئد ، ولكنه لا يعرف كيف يوجه قوته ولا فيما ينفق جهده ، فهو يتخبط بين الشر اليسير والاثم المفسد لحياته وحياة من حوله من الناس . وامض ما شئت في تصوير ما يثير المرض والفقر والجهل في حياة الناس من شر وما ينشيء في نفوسهم من عقد ، وما يبث أمامهم من عقاب ، وتصور جيلاً يتاح له في يوم من الايام ما لم يتح للأجيال الماضية من صحة الاجسام وذكاء القلوب ونفاذ البصائر وسعة المعرفة ، وانظر ما عسى ان يكون من الفرق بين هذا الجيل السعيد وبين الاجيال التي سبقته من الاشقياء ، ثم وازن بين ما يمكن ان ينتجه هذا الجيل السعيد من الوان النشاط في حياته المادية والعقلية والفنية وبين ما انتجته اجيال الشقاء من قبله فسترى الفرق عظيماً خطيراً

بين انتاج الموفورين ، وانتاج المحرومين ، وبين انتاج
السعداء ، وانتاج الاشقياء .

واذا بلغت هذه الغاية من الموازنة فقد عرفت ان
ادب الثورة الذي يستحق هذه الاضافة ليس هو الادب
الذي انتجناه أو الذي ننتجه الآن ، وانما هو الادب
الذي سينتجه ابناؤنا واحفادنا حين يتاح للثورة ان تبلغ
غايتها وتحقق اغراضها ، وتضع عن المصريين إصر حياتهم
تلك التي ضاقت بهم وضاقوا بها ، وتتيح لهم حياة أخرى
لا يجدون فيها قهراً ولا عسفاً ، ولا يخضعون فيها لبأس
أو ظلم ، ولا يشقون فيها بفقر أو جهل أو مرض ،
وثق بأني لا اخدع نفسي عن حقائق الاشياء ولا اخدعك
عن هذه الحقائق ، فلست انا من السذاجة بحيث اظن ان
الثورة ستتيح للاجيال المقبلة سعادة دائمة ونعيماً مقيماً ،
فالسعادة الدائمة الكاملة لم تتح للناس ولن تتاح لهم في هذه
الحياة الدنيا ، والنعيم المقيم مدخر للصالحين من الناس في
حياتهم الثانية ، وليس معجلاً لهم في حياتهم هذه الاولى ...
ولكن الشيء الذي اثق به كل الثقة ، وأؤمن به
اعمق الايمان هو ان الثورة ستتيح حين تبلغ غايتها للاجيال
المقبلة من قوة النفوس وصلاح الحياة ما يمكنها من طلب
السعادة والنعيم قادرة على طلبها ، ومن مقاومة البؤس
والشقاء قادرة على مقاومتها ..

وليس هذا بالشيء القليل ، وما أعظم الفرق بين أدب

يقبل عليه اصحابه وهم آمنون مطمئنون لا يسعى اليهم
الخوف ولا يدبر لهم الكيد ، وأدب ينتجه قوم يختلسون
الفراغ له اختلاساً ويسترقون العناية به استراقاً ، ويجدون
من حولهم ما هو خليق ان يبعض اليهم الادب ويصرفهم
عنه صرفاً ، يشقون في انفسهم ويشقون بشقاء من حولهم
من الناس ، ولا تتاح لهم الوسائل اليسيرة للاعراب في
صراحة وأمن عما يجدون من شقائهم وشقاء الناس .

فانتظر اذن أدب الثورة بمعناه الصحيح من الجيل الناشئ
يوم يتاح له الانتاج ، واقرأ ادبنا هذا الثائر ان شئت ،
وأعرض عنه ان احببت ، فانا لا نملك ان نعطيك الا
ما في ايدينا ، وفي ايدينا ادب ثائر لا ادب ثورة ، وما
اعظم الفرق بين الادبين !

الكنوز الضائعة



هي هذه التي تمتليء بها الارض على اختلاف اقطارها ومنذ العصور القديمة التي فكر فيها الناس ، وعبروا عما يفكرون ، تعبيراً صالحاً للبقاء بالكلام ، او بالتصوير أو غير الكلام والتصوير من هذه الفنون المختلفة التي يؤدي بها الناس ما يجدون في نفوسهم وعقولهم من ضروب العلم والشعور ومن ألوان العاطفة والطموح الى الخير والحق والجمال .

هذه كنوز تمتليء بها الارض ولا يكاد الانسان يحصيها ، ولكنه ان كان مثقفاً رشيداً طمحت نفسه دائماً الى ان يستقصيها ويجمعها كلها ان أتيح له جمعها ويفرغها في عقله وقلبه . وأخص ما تمتاز به العلوم والفنون انها بطبيعتها

شركة بين الناس يستطيع كل فرد من الافراد ان يستمتع بها كلها او بعضها دون ان يجرم غيره من ان يتيح لنفسه بها الغبطة والسعادة والرضى كما اتاح لنفسه بها كل هذه الحُصَال .

فالعلم والفن والمعرفة على اختلاف موضوعاتها كنوز لا ينقص منها انتفاع الناس بها وتها الكهم عليها وازدحامهم على الامعان فيها ، وانما يزيد بها ذلك خصباً الى خصب وثراء الى ثراء . ولو لم يقرأ القدماء ويدرسوا لما انتج المحدثون شيئاً من علم او فن . ولو لم يظهر بعض المحدثين على آثار بعض لما ازدهر العلم ولا تألق جمال الفن ولا عظم تراث الانسانية من المعرفة .

فهذه كنوز يزيد فيها الاخذ منها وينقصها الاهمال لها والاعراض عنها ، أو قل انها تحيا بالاقبال عليها وتموت بالزهد فيها . وهذه الكنوز ضائعة بالقياس الى الذين لا يعرفونها ثم لا يحرصون على اقتنائها والامعان فيها بالانتفاع والاستمتاع والاستهلاك . ولست اكتب هذا لاجدد العلم به فالناس يعرفونه منذ اقدم العصور ، وانما امليه لاصل منه الى وصف هذا الشعور الذي أجده قوياً ملجأً بمضاً

أحياناً كلما فرغت من قراءة كتاب رائع او اخذت في قراءة كتاب شائق . وهو شعور الضيق الذي يبلغ اللوعة والحسرة أحياناً بأني أقرأ هذا الكتاب دون اطمئنان الى ان المصريين جميعاً يقرأونه كما أقرأه ويجدون من المتعة به مثل ما

أجد أو أكثر مما أجد .

هو هذا الشعور بأن هذا الكتاب أو هذا الفصل كنز من هذه الكنوز التي لا ينعم بها المصريون كلهم كما انعم بها . ولا أكاد أجد هذا الشعور حتى أحاول أن اتعزى عنه بأن في الأرض كنوزاً أخرى لا تحصى مضيعة بالقياس إلى التي لم أعرفها ولا ينتظر أن أعرفها ، لأن الإنسان الذي يتاح له أن يحيط بكل ما عرف الناس من علم أو فن وبكل ما ورث الناس من العلوم والفنون والآداب لم يوجد بعد وما أرى أنه سيوجد في يوم من الأيام .

وليس المهم أن يقرأ الإنسان كل ما كتب أو يحيط بكل ما أنتج غيره من الناس ، وإنما المهم أن يظفر الإنسان بالوسائل والأدوات التي تتيح له أن يضيف في كل يوم إلى علمه علماً وإلى ثروته العقلية والشعرية ثروة ، فإن أتبع له مع ذلك أن ينتج ما ينفع الناس ويزيد في تراثهم من العلم والفن والمعرفة بوجه عام فهو عندي الإنسان السعيد حقاً .

وأنا أنظر إلى المصريين من حولي فأرى كثرتهم الضخمة وقد حيل بينها وبين أيسر الثقافة التي تمكنها من الانتفاع ببعض هذه الكنوز ، حال بينها وبين هذه الثقافة الجهل الذي فرضته عليها العهود المظلمة التي تطاولت وتطاولت حتى كأنها الليل سرمدي المقيم .

وما أذكر أني قرأت كتاباً ممتعاً أو فصلاً رائعاً إلا

وددت لو اتيح لي ان أصبه في قلوب الناس من حولي
وعقولهم وان اؤديه اليهم وهم أيقاظ او نيام ليجدوا من
اللذة والمتاع والغنى مثل ما اجد . ورحم الله ابا العلاء
فما كان اصدقه حين قال :

ولو أني حُبِيتُ الخلد فرداً
لما احببت في الخلد انفراداً

أو حين قال :

فلا نزلت عليّ ولا بأرضي
سحائب ليس تنتظم البلاداً

وأشق من هذا الشعور بالحزن والحسرة شعور آخر
فيه أفكر في أن من حولي كثيراً من المصريين اتاحت
لهم هذه الثقافة التي تمكنهم من ان يضيفوا الى ثراء عقولهم
آراء جديدة في كل يوم ، ولكنهم يصرفون انفسهم عن
هذا صرفاً وينفقون أوقات فراغهم فيما لا ينفع الناس من
هذا اللغو الكثير الذي ينفق فيه المثقفون او اكثر المثقفين
عندنا آخر النهار واول الليل .

ونحن نسأل انفسنا ما بال ادبنا لا ينمو او ما بال
فننا لا يزدهر .. وما بال ثقافتنا معرضة دائماً للجمود ،
تنقص ولا تزيد . ويسرع الى نازها الخمود ، تنقص وكان
من حقها ان تذكو وان تملأ النفوس في مصر ومن حول
مصر اشراقاً ونوراً . . ثم نحمل على الادباء تبعه هذا كله
وننسى ان نشرك معهم غيرهم من الناس في احتمال هذه

التبعة .

فلو قد اقبل الناس على القراءة والانتفاع بهذه الكنوز
الكثيرة المضیعة لدعتهم القراءة الى القراءة ولاغراهم العلم بالعلم
كالذي يكسب المال القليل من تجارة او صناعة فيطمع في
ان يضيف اليه مثله او امثاله . ويتاح له من ذلك ما يريد
بمقدار ما يبذل في سبيله من الجهد وما يلقي في سبيله من
العناء .

ولكننا لا نجد في الاستزادة من المعرفة ولا نكلف
نفسنا عناء لنضيف الى ثروتنا العقلية ثروة اخرى ، وانما نحن
نكتفي بما علمنا وربما ضقنا به وزهدنا فيه واهملناه حتى
نسئله وحتى لم يبق لاحدنا به عهد .

ونحن لا نقرأ ادباءنا الذين يعيشون بيننا ويصرون
من حياتنا ما يستطيعون تصويره فكيف نقرأ غيرهم من
ادباء الامم الاخرى ؟ وكيف السبيل الى ان تعرف ما
انتجوا فيها مضى من الدهر وما ينتجون في هذه الايام
التي نعيش فيها وكيف السبيل الى ان نتهياً للعلم بما قد
ينتجون غداً او بعد غد ؟

نحن لا نبذل ابسر الجهد لفهم الحياة التي نحياها ، وكيف
السبيل ان نحيط بيسير الحياة التي يحياها غيرنا من الناس فضلاً
عن دقائقها وما يثار فيها من المشكلات التي ان لم تعرض لنا
الان فستعرض لنا من غير شك في يوم قريب أو بعيد ،
لان حياتنا متصلة بحياة الشعوب الاخرى متأثرة بها مؤثرة

فيها سواء اردنا ذلك ام لم نرده بعد ان الغيت الآماد
والابعاد وأوشك العالم على اختلاف شعوبه وألوان الحياة
فيه ان يصبح عالماً واحداً يتأثر بمؤثرات متشابهة او متحدة .
والغريب اننا نشعر بهذا الاتصال في حياتنا اليومية بل
في كل ساعة من ساعات حياتنا اليومية . نشعر به حين نقرأ
الصحف وحين نسمع الراديو ، وحين نشهد السينما او
التمثيل وحين نرضي حاجتنا المادية او القريبة او البعيدة ،
وحين ننقل من مكان الى مكان لارضاء هذه الحاجات ،
ثم نحزن على رغم هذا كله لا نجد الشعور بالحاجة الملحة
الى ان نعرف من حياة العقول والقلوب والاذواق في العالم
الخارجي مثل ما نعرف من آثار التجارة والصناعة والانتاج
المادي فيه .

وأشد من هذا خطراً واعظم منه نكراً اننا قد جهلنا
او كدنا نجعل انفسنا ، فنحن لم نخرج فجأة من الارض
ولم نهبط فجأة من السماء ، ولم 'نخترع في هذا العصر الحديث
من لا شيء ، وانما تحدثنا من اجيال سبقتنا . ولهذه الاجيال
حياة قد اثرت في حياتنا وفي طبيعتنا ، فلنا ماض من
الحق علينا لانفسنا ان نعرفه ، وسبيلنا الى معرفته ان نقرأ
ونفهم ، وندرس ونذوق ، وما اشد زهدنا في القراءة والفهم
والدرس والذوق !

وسل ان شئت كثرة الذين وقفوا حياتهم على ان
يعلموا اجيالنا الناشئة القراءة والفهم والدرس والذوق ماذا

يقرأون ، وماذا يفهمون ، وماذا يدرسون ، وماذا يذوقون
بعد ان ظفروا بالاجازات التي تتيح لهم ان يعلموا ؟ لقد
اقبلوا على صناعاتهم كما يقبل كل انسان على صناعته يؤدون
واجبهم ويحتملون في تأديته ما يحتملون من المشقة والجهد .
فاذا فرغوا من اداء هذا الواجب لم ينسوا الاشياء واحداً ،
وهو الواجب الذي ينبغي ان يؤدوه الى انفسهم . فقد
يجب على المعلم ان يتعلم ، وان يكون تعلمه متصلاً ، وان
يضيف الى ما عنده شيئاً كثيراً مما ليس عنده وان يحدد
نفسه في كل يوم ليقبل من الغد على تلاميذه بشيء جديد
يحبيه اليهم ويزيد شوقهم الى الاستماع له والانتفاع بما
يقول ، وهو اذا لم يفعل جدير ان يمل نفسه وان يمل
غيره من التلاميذ ، وان يصبح اشبه شيء بالبيغاء التي تردد
ما حفظت لا تجده ولا تغيره ولا تزيد فيه

واكبر الظن ان كثيراً من المعلمين عندنا لو حاسبوا
انفسهم حين يخلون اليها ان اتاحت لهم الخلوة اليها لاستيقظوا
انهم يملون انفسهم ويملون تلامذتهم ولكنهم لا يفرغون
لحساب انفسهم ، يشغلهم اداء الواجب المفروض عليهم في
كل يوم ، فاذا اتيح لهم الفراغ منه اسرع بعضهم الى
بعض يتحدثون فيما كان وفيما هو كائن وفيما يمكن ان
يكون من هذه الاحداث اليسيرة التي تلهي الناس عن
انفسهم وتخيل اليهم أنهم ايقاظ وهم نيام . واذا لم يقرأ
المعلم لم يحدث في نفس تلميذه الشوق الى القراءة ، ولم

يجد فيها الرغبة الى الاستزادة من المعرفة . ولذلك يصح
التعليم صناعة جامدة لا حظ لها من الحياة الحصة التي تنفع
اصحابها وتنفع الناس من حولهم .

والعلم الذي لا يتجدد كالماء الراكد الذي لا يلبث ان
يأسن ويسرع اليه الفساد . وانا اعلم ان هذا القول سيشق
على كثير من الصديق الذين احبهم وأكبرهم ، واعلم
كذلك انهم سيضيقون بما اقول وسيسألون انفسهم ويسألوني
كيف السبيل الى ان يقرأوا وقد اثقلتهم واجبات الدرس
في المدرسة وخارج المدرسة ، ولكن الذي اعرفه هو ان
القراءة لمن يحب القراءة شيء لا سبيل الى التخلص منه ،
يحتال صاحبه في الوصول اليه والظفر به مهما يكلفه ذلك
من الجهد ، ومهما يحمله من المشقة والعناء . وليس
المعلمون وحدهم هم الذين لا يقرأون ، وليس التلاميذ وحدهم
هم الذين يشبهون اساتذتهم في الاعراض عن القراءة ، ولكن
المثقفين جميعاً لا استثني منهم الا قلة من اليسير احصاؤها -
لا يقرأون ولا يحبون ان يقرأوا . لا تقل انهم يقرأون
الصحف وهي كثيرة ، ولا تقل انهم يقرأون هذا الادب
اليسير الذي يلقاهم به الباعة في الطريق ويطوفون به عليهم
في القهوات . فما الى هذه القراءة اردت ، وما يعنيني امر
هذه القراءة في قليل او كثير . انما القراءة التي اريدها
واننى ان يكون لكل مثقف منا حظه منها في كل يوم
سواء اكان هذا الحظ قليلاً او كثيراً هي هذه التي يفرغ

القاريء فيها لكتاب قيم تحتاج قراءته الى الجهد ويحتاج فهمه وذوقه الى شيء من المشقة والعناء ، والتي ينصرف عنها من يقبل عليها ساعة او بعض ساعة وقد اضاف علماً الى علم ومعرفة الى معرفة ، ووجد هذا المتاع الحصب القيم الذي يكسبه اصحابه كسباً ويظفرون به بعد الجهد في سبيله واحتمال العناء لاستخلاصه والوصول اليه .

هذا النوع من القراءة الذي يحتاج الى ان يخلص الانسان له نفسه ساعةً من نهار او ساعة من ليل ويخلصها له من كل شاغل من شواغل الحياة مهما تكن ومهما تكن اعباؤها وظروفها . هذا النوع من القراءة التي هي اشبه شيء بالرياضة ، رياضة النفس على مزاولة ما يستعصي عليها من الاشياء مزاولة ملحة حتى تبلغ منها ما تريد . هذا النوع من القراءة هو الذي احبه وادعو اليه واتمنى ان يروض المثقفون انفسهم عليه حتى يصبح لهم عادة لازمة لا يستطيعون عنها سلوكاً . وانا واثق اعظم الثقة بانهم سيجدون فيها بعد ان يروضوا انفسهم عليها ، نعيماً ايّ نعيم ... نعيم المتعة بما يقرأون ونعيم الكسب لما يكسبون ونعيم تجديد انفسهم والشعور بالقدرة على احتمال المشقة وتكليف العسر ورياضة النفس على ما لم تألف ، ونعيم التخفف ساعة من اثقال الحياة والتخلص ساعة مما يسر فيها وما يسوء ، ونعيم الشعور آخر الامر بان الانسان قد خرج من هذه الحياة الآلية التي يحياها نهاره وليله الى حياة اخرى

عاملة يعطي فيها جهده ويأخذ فيها جهد غيره ويحس فيها
بالقدرة على انه انسان يستطيع ان ينفع وينتفع بالمعنى
الحصص القيم لهذه الكلمات .

اذا راض المثقفون انفسهم على هذا النوع من القراءة
لم تصبح الحياة بالقياس اليهم عملاً يؤدي واجراً يقبض
وطعاماً يؤكل ويهضم ، ونوماً يقبل مع الليل ، ويمضي
حين يسفر الصبح ، وعبثاً لا يغني عن اصحابه شيئاً ، وكلاماً
يذهب مع الريح ، وانما تصبح شيئاً آخر يتمتع اصحابه
ويمتع باصحابه الناس . واصبحت شيئاً آخر يشير في
اصحابه نوعاً من هذا النهم الحصب الذي لا سبيل الى
ارضائه ، والذي يجد اصحابه اللذة كل اللذة حين يحسونه
وحين يشعرون بالحاجة الملحة الى ارضائه ، وحين يسعون
جادين ويتكلفون اليسير والعسير ليلبغوا من ارضائه ما
يريدون . والقراءة الممتعة تدعو الى القراءة الممتعة ، فاذا
رضت نفسك على ان تقرأ ساعة في كل يوم والفت هذه
القراءة فستشعر بالحاجة الى ان تجعل الساعة ساعتين ، وستقرأ
الكتاب القيم فتحتاج الى ان تعيد قراءته لتحسن استيعاب
ما فيه ، وستقرأ الكتاب فتشعر بالحاجة الى ان تقرأ غيره بما
يشبهه أو يخالفه ، وسيعجز مالك المقدور لك عن اسعافك
من الكتب بما تريد وستلمس ما لم تستطع شراءه في
المكتبات العامة والخاصة وستعجز المكتبات عن اسعافك
ايضاً فتتكلف الممكن وغير الممكن لتظفر بما تحتاج اليه

من الكتب ، وستستيقن بأن حياتك قد أصبحت شيئاً يستحق ان يحتمل وان تحتمل في سبيله ضروب المشقات ، وستلوم المؤلفين لانهم لم يؤلفوا ، والناشرين لانهم لم ينشروا ، والمترجمين لانهم لم يترجموا ، واذا كثر امثالك من القارئ الملحين في القراءة المحتاجين اليها في كل يوم والذين لا يجدون ما يقرأون فستطالبون بتيسير أسباب القراءة وستضطرون الدولة الى ان تستجيب لكم فتعنى بالترجمة والتأليف والنشر وانشاء المكتبات وتنمية الوجود منها اكثر مما عنيت الى الان ، وستنظرون فاذا الحياة من حولكم قد تغيرت واذا انتم قد انشأتم جواً جديداً يحيا فيه العقل ويحيا فيه القلب والذوق ، واذا انتم قد اصبحتُم مثلاً للناسئين فأحبوا من هذه الحياة الممتازة ما تحبون وجدوا في سبيلها كما تجدون ، وعسى ان يكونوا اكثر منكم لها حباً واعظم منكم في سبيلها جداً ، واشد منكم اليها سعياً .

وكذلك تقرب الكنوز المضیعة من مصر فتملاً عقول ابناءها وقلوبهم علماً ونوراً . ثم لن تقنعوا بالقراءة والامعان فيها بل ستحتاجون الى ان يفضي بعضكم الى بعض بما يقرأ ، وستصنعون ذلك في احاديثكم ، وقد لا تقنعون بالاحاديث فتكتبون وتحبون الثقافة والعلم والادب في وطنكم اكثر مما تحيا ، وتغرون غيركم بأن يصنع صنيعكم ثم تنظرون بعد ذلك فاذا انتم لا تنفعون انفسكم وحدها ولا تنفعون مواطنكم وحدهم ولكنكم تنفعون اجيالاً اخرى

من الناس قريبة منكم او بعيدة عنكم ، واذا انتم لا تستهلكون فحسب ، وانما تستهلكون وتنتجون ولا تأخذون ، فحسب وانما تأخذون وتعطون ، واذا انتم لستم عيالاً على الانسانية المتحضرة وانما انتم مشاركون في بناء الحضارة وتنميتها وتذكية جذوتها واذا انتم قد رددتم وطنكم مصر الخالدة الى ايامها تلك القديمة التي كانت تعطي فيها اكثر مما تأخذ وتنفع فيها اكثر مما تنتفع ، واذا انتم لا يستحي احدكم ان يلقى من شاء من ابناء الامم الراقية المتحضرة لقاء الاكفاء لا لقاء المنتفعين الذين لا ينفعون .

ما اشد حاجة المصريين الى ان يقرأوا هذا النوع من القراءة التي ادعوهم اليها حين يفرغون ، بل ما اشد حاجتهم الى ان يتكلفوا لانفسهم الفراغ لهذه القراءة ساعة من نهار او ساعة من ليل ، وان حملهم ذلك من الاعباء اكثر مما تعودوا ان يحتملوا ، وان حرّمهم ذلك لذة الاختلاف الى القهوة والاستمتاع بما تعودوا ان يستمتعوا به وان حرّمهم ذلك الفراغ لما يحتاجون اليه اشد الاحتياج ويقيمون حياتهم عليه .

اني اعرف قوماً يؤثرون ان يقرأوا على ان يطعموا وعلى ان يناموا وان يغذوا عقولهم وقلوبهم ويوفروا لها المعرفة والمتاع على ان يغذوا اجسامهم ويوفروا لها الراحة واللذة وخير ما في الحياة المادية من الوان الترف .

ما اكثر ما في الارض من كنوز العلم والادب والفن

وما اقل حظنا من هذه الكنوز وما اشد حاجتنا الى ان
 نأخذ منها اعظم حظ يمكن بل الى ان نأخذها كلها ان
 استطعنا الى ذلك سبيلاً . وما اقدرنا على ذلك ان اردنا ،
 فهل نريد ؟ هذه هي المسألة المعقدة اشد التعقيد كما كانت
 يقول بعض الممثلين . فليس من اليسير ان يستغني كثير
 من شيوخنا وشبابنا عن هذه الساعات الطوال او القصار
 التي ينفقونها كل يوم جلوساً في القهوات لا يصنعون شيئاً
 الا الماضي في هذا اللغو الذي لا ينفعهم ولا ينفع معهم
 احداً ، ولا ينفع بهم احداً ايضاً . وانما هم يجعلون انفسهم
 في هذه الساعات عيالاً على الوطن والمواطنين . وما حاجة
 الوطن والمواطنين الى قوم يرضون لانفسهم ان يضيعوا
 وقتاً يستطيعون ان ينفعوا به وان ينتفعوا ، وما اكثر
 ما نردد ان الحياة جهاد ولكننا على ذلك لا نجاهد انفسنا
 أيسر الجهاد واقومه مع ذلك واجدره ان ينفعنا وان
 ينفع الناس ، فنخلص للقراءة الممتعة في كل يوم ساعة من
 نهار او ساعة من ليل ونحن نعلم ان لو فعلنا لا يقطننا مصر
 بعد نوم وجعلناها وطناً كريماً يعيش فيه قوم كرام .
 ولا تقل اني ادعو غير مجيب واتحدث الى اذان غير
 واعية فلا اقل من ان ادعو ولا اقل من ان اتحدث ،
 وقد صدق ابو تمام حين قال :

وركب كأطراف الاسنة عرسوا

على مثلها والليل تسطو غياهبه

لأمر عليهم ان تتم صدوره

وليس عليهم ان تتم عواقبه

علينا اذن ان ندعو وان نلح في الدعاء ولا علينا الا
يسمع الصم ولا يجيب الكسالى .

ومن يدري لعل منا على كل حال من يسمع ومن

يجيب !

بين الفصحى والعامية



كل شيء ممكن حتى ان يرجع الزمن ادراجه ، ويمشي الى وراء بعد أن كان يمضي الى أمام . ولا اريد بالزمن هذه المعاني التي يختلف الفلاسفة في تحقيقها وتحديد لها ، فليس هذا الحديث من فلسفة الفلاسفة ولا من علم العلماء في شيء ، وانما أريد بالزمن أمور الناس التي تستغرق اوقاتهم وجهودهم وتستنفد قواهم ونشاطهم ، فتتقدم احياناً وتتأخر احياناً اخرى ، وتقدم مرة وتجهجم اخرى . وما اشك في أن وقتاً من الاوقات قد مر بنا وامورنا اللغوية تمضي الى امام ، وحياتنا الادبية تقدم غير مترددة ولا مستأنية كأنما كانت تريد ان تسبق الاحداث والخطوب وان تتعجل دورة الفلك لتبلغ القرن الحادي والعشرين قبل أن تبلغ نصف

القرن العشرين ، فضلاً عن أن تصل الى آخره .
في ذلك الوقت كان التعليم قليل الانتشار بالقياس الى
ما اتيح له في هذه الايام من السعة والتغلغل في اعماق
الشعب . وكان شيوخ الادب الذين استأثرت بهم رحمة الله
وشباب الادب الذين اصبحوا شيوخاً في هذه الايام
كاتبون باللغة العربية الفصحى ويتنافسون فيما بينهم ايهم
يكون اشد لها تطويلاً واعظم لها تيسيراً واقدر على ان
يسوغها من المعاني والحواطر والاراء ما لم تكن تعودت
ان تسيع دون ان يشق عليها او يرهقها من امرها عسراً
او ينحرف بها عن طريقها التي رسمتها لها طبيعتها ومزاجها .
وكان اصحاب الثقافة الممتازة واصحاب الثقافة المتوسطة
 واصحاب الثقافة المتواضعة والذين لا يكادون يظفرون من
الثقافة بشيء ، كل اولئك كانوا يتنافسون في القراءة
ويختصمون فيما بينهم ، يرضى فريق ويسخط فريق ،
ويضطرب ثالث بين السخط والرضى . وكان الزعماء
السياسيون يؤثرون بعض الادباء على بعض ، وينهون
اتباعهم عن قراءة ما يكتبه الادباء الذين كانوا يسخطون
عليهم ، وربما حرموا عليهم قراءة صحف بعينها ، وربما
اعلنوا اليهم انهم ينوبون عنهم في قراءة تلك الصحف .
وكان الاتباع يسمعون ويصفقون فاذا تفرقوا عن زعمائهم
اسرعوا الى الصحف المحظورة فاشتروها ودسوها في جيوبهم
حتى اذا راحوا الى دورهم خلوا الى تلك الصحف فقرأوها ،

ممعنين في قراءتها غير حافلين فيما بينهم وبين انفسهم بنهي
الزعماء عن هذه القراءة ، وحظرهم لها .

وكانت تلك الصحف تنشر باللغة العربية الفصحى ، وكان
كتابها يتنافسون في تجويد اللغة وتنسيق الاسلوب ، قد
اتخذوا لانفسهم في الادب مثلاً رفيعة لا يعرضون عنها
ليتكلفوا رضى القراء ، وانما يسمون اليها ليغروا قراءهم
بشاركتهم في هذا السمو . وكان بعض الشباب في تلك
الافاق يحاولون ان يكتبوا باللغة العامية وان يروجوا لها
ترويجاً لا ليمتلقوا قراءهم بل ليلبغوا منهم مواطن الفهم
والذوق والاستجابة ، ولكنهم كانوا يظفرون بعكس ما
كانوا يريدون فيزور عنهم القراء وتسخر منهم طوائف
المثقفين ، ويضطرون الى الرجوع عن عاميتهم الى اللغة
الفصحى . وكان حافظ رحمه الله يهذر بشعره السياسي ،
وكان شوقي رحمه الله يعنى بشعره التمثيلي والسياسي ، وكلاهما
يذهب مذهب القدماء في لفظه واسلوبه وفي وزنه وقوافيه ،
وكان الذين يسمعون للشاعرين العظمين او يقرأون لهما
يرضون ويعجبون ويحفظون شعرهما عن ظهر قلب لا
يجدون في رصانة هذا الشعر وجزالته ولا في تقليده للقدماء
ما يصرفهم عنه او يخوفهم منه او يزهدهم فيه . وكنا نعيب
الشاعرين العظمين بامعانهما في تقليد القدماء وتقصيرهما في
التجديد وغلوهما في المحافظة على مذاهب القدماء ، فكان
الناس يقرأون لنا فتوضى منهم قلة قليلة جداً هم اصحاب

الثقافة الرفيعة ، وتسخط منهم كثرة كثيرة جداً هم
اصحاب الثقافة المتوسطة والضيئة .

كان ذلك منذ ربع قرن او اكثر من ربع قرن .
و كنت اعيب على المحافظين في اللغة والادب تقديسهم
للغة واحاطتهم لها بهذا الاجلال الديني الذي يعصمها من
التطور ويحميها من التجديد . و كنت اقول ان اللغة العربية
هي لغة القرآن ما في ذلك شك ، ولكنها في الوقت نفسه
لغة الذين يتكلمونها فمن الحق عليها ان تستجيب لاصحابها
وان تسير تطورهم وتجاري حياتهم في ظروفها المختلفة .
وهي قد فعلت في العصور الاولى ، فلم تكذب تخرج من
البادية العربية حتى لاءمت الحضارة الجديدة ووسعت علومها
وفلسفتها وحتى تطور ادبها نفسه مع هذه الحضارة فأدى في
يسر وإسماح ما لم يكن يخطر للاعراب البادين على بال
من الحواطر والمعاني والاراء .

وكان الناس ينكرون عليّ هذه المقالة اشد الانكار
ويرون اني قد جاوزت في الاسراف كل حد ، واني قد
غلوت في التجديد حتى اخرجته عما ينبغي له من القصد
والاعتدال ، ومن الرفق والاناة ، وحتى ذهبت به مذهب
الثورة لا مذهب التطور والانتقال . و كنت اضحك من
الدرس الاول الذي كان طلاب الازهر الشريف يسمعون
حين يبدأون دراسة النحو . فيقرأ عليهم الشيوخ قول
المؤلف رحمه الله : الحمد لله الذي جعل لغة العرب افصح

و كنت اقول ان لغة العرب فصيحة ما في ذلك شك ،
ولكن في الارض لغات اخرى ليست اقل منها فصاحة
وجزالة وامتيازاً . وكان المحافظون يرون هذا القول مني
جموحاً واهداراً للقيم الموروثة وثورة بالسنن التي تلقاها الابناء
عن الاباء . و كنت اتندر بما كان بعض القدماء يختصمون
فيه من ان لغة اهل الجنة في الدار الآخرة هي اللغة
العربية او اللغة السريانية ، فكان غلاة المحافظين يضيقون
مني بذلك اشد الضيق .

واذكر اني حين هممت بالسفر الى اوروبا لأتمام الدرس
سألني الشيخ بخيت رحمه الله : ما الذي تريد ان تدرسه في
اوروبا ؟ فقلت له متضاحكاً : اريد ان ادرس اللغة
السريانية . فقال : ولم تدرس اللغة السريانية ؟ قلت : لاحسن
الرد على الملكين حين يسألاني في القبر لانهما يسألان باللغة
السريانية . ورويت له ما كنت احفظ من قول بعض
الازهرين القدماء .

ومن غريب ما ترى العينات
ان سؤال القبر بالسرياني

افتي بهذا شيخنا البليغي .
فغضب الشيخ وضحك الحاضرون ، وكانت كثرتهم من
المطربشين . ولقيت الشيخ بعد عودتي من اوروبا فسألت
عليه ولم اقبل يده ، واراد ان يشعرني باحتقاره لي

وازدرائه لما تعلمت في اوروبا ولما اتخذت من زي جديد
فلم يكن يدعوني الا طه افندي .

وحسبك بهذا الدعاء احتقاراً وازدراء .

كذلك كانت حالنا منذ اكثر من ربع قرن ثقة باللغة
العربية الفصحى وايماناً بقدرتها على البقاء ، ومطاوله الزمان
ومغالبة الاحداث التي تجدد حياة الناس من يوم الى يوم
لا من عام الى عام . وليس من شك في ان جيلنا ذاك
القديم قد ظفر بالنجح كل النجاح فيما كان يحاول من تجديد
الادب ورد الشباب الى اللغة بعد ان ادركتها في القرون
الاخيرة اعراض تشبه اعراض الشيخوخة والهرم .

لم ينكر علينا احد في تلك الاوقات اغراباً في اللفظ
او التواء في الاسلوب او غموضاً في المعاني . وانما كان الناس
يتابعوننا راضين عنا ، مشجعين لنا يشعرون باننا كنا نردّ
اليهم شيئاً عزيزاً عليهم اثيراً في نفوسهم بعد عهدهم به ،
واشند شوقهم اليه ، وهو هذا الجمال الفني الذي يأتي من
سماحة اللفظ وسجاحته ومن يسر المعاني ووضوحها ومن
صفاء الاساليب ونقاؤها . لم يكن المازني رحمه الله يتخرج من
احياء تلك الاساليب القديمة التي كان يجدها عند عبد القاهر
الجرجاني وعند الذين سبقوه من اصحاب النقد والبيان ،
وكان الناس يقرأون له ويعجبون به ويستزيدونه من فنه
ذاك الجديد القديم .

ولم يكن مصطفى عبد الرازق رحمه الله يتخرج من

اصطناع الاناة المستأنية في انتاجه الادبي . فكأن يفرغ
الوقت الطويل لكتابة المقال القصير يحرق معانيه ويجود
الفاظه ويصفي اسلوبه تصفية حتى كنا نشبه آثاره الادبية
بذلك الحلي الذي يتأنق فيه صناعه ويخرجونه روعة للناظرين
لا سبيل الى التعليق عليه بعيب ظاهر او خفي .

وكان الناس يتحدثون عن هذا الكاتب او ذاك فيقولون
انه يذهب مذهب الجاحظ او مذهب ابن المقفع يرون ذلك
ثناء عليه واطراء له . ولم نكن نرضى بهذا الاطراء وذلك
الثناء لاننا لم نكن نحبي تلك الاساليب فحسب وانما كنا
نحسبها ونغنيها ونؤدي بها معاني وارااء وخواطر لم تكن
تخطر للجاحظ وابن المقفع على بال .

كنا نترجم فيها شعر الشعراء ونثر الكتاب من اعلام
الادب في الغرب لا نجد في ذلك مشقة ولا حرجاً . وكنا
نؤدي بها من ذات انفسنا ما يلائم العصر الذي نعيش فيه
من شئون هذه الحياة التي لا تشبه من قريب ولا من
بعيد حياة الكتاب القدماء في البصرة والكوفة وبغداد .
وكنا نغيط حافظاً وشوقي وغيرهما من الشعراء حين
نتحدث بان النثر العربي هو الذي ارتقى حقاً في هذا
العصر الحديث لانه ابتكر اشياء لا عهد للقدماء بها دون
ان يخل بفصاحة اللغة ورصانتها ودون ان ينحرف عن
اصولها المقررة او طبيعتها الخالدة ، على حين لم يستطع الشعر
الا ان يجي مذاهب العباسيين متأثراً لهم ومتأثراً بهم

ايضاً .

و كنت اغلو في مضايقة الشاعرين العظمين ، فارد بعض قصائدهما الى نماذجها القديمة من شعر البحري وابي تمام والمتنبي - وكانا يضيقان بذلك أشد الضيق ويجاولان التجديد والابتكار ويوفقان منهما الى شيء كثير .

فاين نحن الآن من تلك الحياة التي كنا نحياها منذ ربيع قرن والتي لم ارو من امرها الا اطرافاً قصاراً والتي تشهد بها نصوص ما يزال الناس يقرأونها ويكثرون من قراءتها ويستعينون بكثير منها على احتمال الحياة التي يحيونها الآن ؟ وليس من شك في ان اسباباً مختلفة كثيرة قد دعت الى ما نحن فيه الآن من هذا الاضطراب الادبي الخطير الذي يظهر في صور متناقضة اشد التناقض . فعقول شبابنا خصبة وقلوبهم ذكية وبصائرهم نافذة لا ينكر ذلك الا المكابرون . وفيهم من اجل هذه الحاصل قدرة رائعة على الانتاج الفني ولهم من اجل هذه الحاصل انتاج يعصم من اليأس ويفتح ابواباً لآمال عراض ، لا ينكر ذلك الا المكابرون ايضاً .

ولكن ادباء الشباب هؤلاء اشقياء بفنهم . وقراؤهم ليسوا اقل منهم شقاء لسبب يسير جداً وهو ان وسيلة الاداء تعوزهم اعوازاً مروعاً حقاً . فآثار كثير منهم اشبه شيء بالجمال البارع الساحر الذي يعرض في الازياء الرثة المهلهلة التي تشوه براعته وتفسد سحره وتعلق القلوب تعليقاً مؤلماً

بين الاقبال عليه لاصالته وصدقه ، والانصراف عنه لثأته
صوره وغثاثة الفاظه . وادباؤنا الشبان يحسون ذلك من انفسهم
ومن قرائهم احساساً دقيقاً ، ويضيقون به ضيقاً شديداً
ولكنهم لا يحاولون له طبعاً ولا علاجاً .. وانما يعنون
فيه ، امعان المستبئس ويلهبون به لهج المكابر المعاند
الذي يعجزه الحسن فيهم بالقبح ويفوته الكمال فيستمسك
بالنقص ويتخذ مذهباً ومنهاجاً .

ثم هم لا يكتفون بما يتورطون فيه من العناد في غير
موضع للعناد والمراء في غير موضع للمراء ، ولكنهم يتكلفون
الغض من الذين سبقوهم ، ثم الخروج على ما الف الناس
من صور البيان وايتار الفصاحة على الركافة والرقى
على الاسفاف . فاذا لم يغن عنهم هذا كله شيئاً ثاروا باللغة
نفسها ونصبوا لها حرباً اقل ما توصف به انها عقيم لا تغني
عنهم شيئاً ولا تنيلهم خيراً قليلاً أو كثيراً . فليس من
الحق في شيء ان اللغة العربية الفصحى قد ماتت أو أشرفت
على الموت ، بل ليس من الحق ان اللغة العربية الفصحى قد
قد ادركها ضعف او فتور أو قصور . وآية ذلك ان الناس
يعربون بها عن ذات انفسهم حين يكتبون ما يريدون
ان يكتبوا في الموضوعات المختلفة لا يجدون في ذلك حرجاً ،
ولا يحتملون فيه عناء ، يؤلفون الكتب ويترجمون ما
يؤلف غيرهم من الاجانب في اقطار الشرق والغرب ،
وينشرون الصحف والمجلات ، والناس يقرأون ما يؤلف من

الكتب وما يترجم كما يقرأون ما تنشره الصحف والمجلات
 لا يجدون بذلك بأساً ولا يشكون منه جهداً . وآية ذلك
 ايضاً ان الناس ينشرون الكتب القديمة التي كتبت بالعربية
 الفصحى في عصورها المختلفة فيقرأها اصحاب الثقافة العميقة
 الواسعة واصحاب الثقافة المتوسطة الضيقة ، واكثرهم لا يقرأها
 مكرهاً على قراءتها ، واكثرهم كذلك لا يقرأها بالجمان
 وانما ينفق في قراءتها الوقت والمال والجهد عن حب لها
 ورغبة فيها ، وحرص عليها . وليس هذا شأن اللغة التي ماتت
 او أوشكت أن تموت . وليس هذا شأن اللغة التي ادركها
 الضعف او الفتور او القصور وانما هو شأن اللغة التي ما
 زالت حية قادرة على الحياة قوية قادرة على مغالبة
 الاحداث والخطوب التي تغير حياة الناس من يوم الى يوم .
 وادبائنا الشبان يتورطون في خطأ أيّ خطأ حين
 يظنون ان اللغة العربية الفصحى لا يمكن ان تصح وأن
 تستقيم إلا إذا اتخذت ذلك الشكل القديم الذي يألّفونه في
 في شعر القدماء ونثرهم اثناء القرون الثلاثة او الاربعة
 الاولى للهجرة . وهم حين يتورطون في هذا الخطأ يجدون
 التطور وينسون حقائقه الاولى . فلغة القرن الاول للهجرة لم
 تكن مطابقة كل المطابقة للغة الجاهليين ، ولغة أبي نواس
 واصحابه لم تكن مطابقة كل المطابقة للغة الفرزدق وجريز ،
 ولغة المتنبي ومعاصريه لم تكن هي لغة ابي نواس ولداته
 واتباعه ، واللغة التي اتحدث اليهم بها الان والتي يتحدث اليهم
 بها غيري من الكتاب ليست هي اللغة التي كان يتحدث

بها كتاب القرن الثالث الى قراءهم . ومعنى هذا كله ان
 حياة اللغة شيء وجودها واستعصاءها على التطور شيء
 آخر . واصحابنا هؤلاء من ادباء الشباب يتورطون في خطأ
 آخر ليس اقل من هذا الخطأ نكراً . فهم قد قرأوا في بعض
 الكتب ان اللغة اللاتينية قد كانت حية قوية منتشرة في
 غرب أوروبا ثم ماتت ونشأت عنها لغات مختلفة في بلاد
 كثيرة من أوروبا الغربية هذه . وما اسرع ما يشبون
 من هذا الذي قرأوه الى ان اللغة العربية الفصحى لغة
 قديمة قد نشأت عنها لهجات عامية فهي اذن قد ماتت
 وقامت اللهجات العامية مقامها . وقد قلت الف مرة ومرة
 اني لا اشفق على شبابنا من شيء كما اشفق عليهم من
 التفكير السريع والاحكام الخاطفة . فاللغة اللاتينية لم تمت
 فجاءة ، واللغات الحديثة لم تقم مقامها فجاءة ، واللغة اللاتينية
 لم تمت لان الشباب من ابنائها قضوا عليها الموت في يوم
 من الايام ، وقرروا ان تقوم اللهجات العامية مقامها ، وانما
 ماتت اللغة اللاتينية في بطن بطيء جداً بعد خطوب طوال
 ثقال ليس هنا موضع الحديث عنها . وقد تعرضت للغة
 العربية الفصحى لخطوب طوال ثقال ايضاً حفظتها كتب
 التاريخ ولكنها انتصرت الى الان على هذه الخطوب فلم
 تمت ولم يدركها فتور أو قصور ، وانما قاومت وغالبت
 واتيح لها الغلب والانتصار ؛ فظلت حية قوية متطورة
 وظلت اللهجات العامية ضعيفة ضئيلة لا تصلح للاداء الادبي

قليلاً او كثيراً . وآية ذلك اننا لا نعرف أثراً أدبياً رائعاً خالداً ، كتب في لهجة من هذه اللهجات الى الان . وليس يكفي ان نقرر ان لغة من اللغات قد ماتت لتموت ، وليس يكفي ان نقضي الموت على لغة من اللغات ليصبح قضاؤنا ضربة لازم و لتموت هذه اللغة لاننا اردنا لها الموت . كل هذا عبث من العبث ، واضطراب فيما لا ينفع ولا يفيد ولا يغني عن الناس شيئاً ، واستجابة للكسل الذي يثبط الهمم ويفل الحد ويميت القلوب . وخير من هذا كله ان نستقبل امور اللغة العربية الفصحى ومشكلاتها كما نستقبل غيرها من الامور والمشكلات ، فنلتمس لها ما يلائمها من الحلول ولا نستئس من الظفر بهذه الحلول .

وللغة العربية الفصحى مشكلات خطيرة ليس في ذلك شك . وقد تنبهنا لهذه المشكلات منذ اواخر القرن الماضي ، ولكننا لم نجد الشجاعة الى الآن حلها في غير تردد ولا تلوؤ ، وانما صانع منا المصانعون ، وداور منا المداورون ، وتركنا الامور تمضي كما تستطيع فعرضنا لغتنا وادبنا لشر عظيم .

ولست اذكر الآن من هذه المشكلات الا اثنتين كاتهما خطيرة اشد الخطورة . فاما اولاهما فهي الكتابة العربية التي طالب الناس باصلاحها منذ اواخر القرن الماضي فيما اذكر دون ان يظفروا بشيء . والثانية هي علم النحو الذي حاول الناس اصلاحه منذ اوائل هذا القرن فلم

يظفروا بشيء أيضاً .

والاصل الذي يجب ان ينتبه اليه الناس هو ان الكتابة كانت فيما مضى كما كان النحو مقصورة على قلة قليلة من الناس فاصبحت بحكم النظم الحديثة مفروضة على الشعوب كلها . كانت ارسقراطية فاصبحت ديمقراطية ان صح هذا التعبير . واذا كانت الارسقراطية تستتبع الصعوبة والعسر والضيق لانها تصور الاستئثار والاحتكار واقامة الحواجز والمصاعب دون ما يستأثر به السادة الممتازون ، فان الديمقراطية تستتبع السهولة واليسر والاسماح وازالة المصاعب وتذليل العقاب . واذا اردت ان تطاع فاطلب ما يستطيع . ونحن نريد ان يكون الشعب كله كاتباً قارئاً فلنيسر له الكتابة والقراءة حتى يبلغ حاجته منها في سعة ودعة ، وفي يسر ولين .

ونحن نكتب الآن كما كنا نكتب منذ اكثر من الف سنة حين كانت الكتابة امتيازاً تستأثر به قلة من الناس . فاذا الغيت هذا الامتياز فألغ ما كان يقتضيه من ضروب المصاعب والعقاب ، ويسر الكتابة والقراءة ليستطيع الناس جميعاً ان يكتبوا ويقرأوا دون ان يضيعوا من الجهد والوقت ما لا يملكون .

ومن الحق الاحمق والجهالة الجاهلة حقاً ان تطلب الى عامة الشعب ان تحسن الفهم لتحسن الكتابة والقراءة . فالاصل ان يكتب الناس ويقرأوا اولاً وان يفهموا بعد ذلك ،

وقل مثل هذا بالقياس الى النحو فنحن نعلّم صبيتنا وشبابنا اصول اللغة العربية وخصائصها كما كانت تعلم منذ اثني عشر قرناً في البصرة والكوفة وبغداد ، وقد تغيرت الحياة وتغيرت العقول واصبح النحو القديم تاريخاً يدرسه الاخصائيون ولم يبق بد من نحو ميسر ، قريب لتفهيم هذه الملايين الكثيرة من التلاميذ .

والصبية والشباب يتعلمون اللغات الاوروبية ، فلا يجدون مشقة ولا عسراً في فهم النحو لهذه اللغات ، لان نحوها قد تطور حتى لاءم الحياة الجديدة والعقل الجديد .

واغرب من هذا أن اللغة اللاتينية الميته تدرس للصبية والشباب في اوروبا ، ولا يجد الصبية والشباب مشقة ولا عسراً في فهم النحو اللاتيني لانه قد يسر حتى لاءم الحياة الجديدة والعقل الجديد . وقل مثل ذلك بالقياس الى اللغة اليونانية القديمة . فاعجب للغات ميته يدرس نحوها الآن في يسر اي يسر وللغة حية هي لغتنا العربية يدرس نحوها في عسر عسير ، ولا ينتهي بتلاميذه الا الى جهله وبغضه وبغض اللغة العربية كلها من اجله .

وانا مطمئن كل الاطمئنان الى ان اصلاح الكتابة العربية وتيسير النحو العربي كفيلاّن باراحة الجيل الناشيء من شبابنا من هذا العناء الثقيل الذي ينوء بالكتاب المعاصرين من شبابنا الادباء الذين تعلموا اللغة العربية على

اساليب لا تلائم عقولهم وامزجتهم فلم يحسنوها ولم يطمئنوا اليها ، واضطروهم ذلك آخر الامر الى ما يشقون به ويشقى به معهم قراؤهم من هذا الانتاج الادبي الذي يجمع بين الجمال والقبح والجودة والرداءة في وقت واحد ، ومن هذه الشكوى التي لا تنقضي من صعوبة اللغة الفصحى واستعصائها ، ومن هذه المطالبة الممضة بالالتجاء الى اللهجات العامية واقامتها مقام اللغة العربية الفصحى التي تشقى باساتذتها ومعلميها .

وأحب آخر الامر ان الفت ادباءنا الذين يطالبون بالالتجاء الى اللهجات العامية الى شيء خطير ما ارى انهم قد فكروا فيه فاحسنوا التفكير وهو ان العالم العربي الآن وكثيراً من اهل العالم الشرقي كله يفهم اللغة العربية الفصحى ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه وللتواصل الصحيح القوي بين اقطاره المتباعدة .

فلنحذر ان نشجع الكتابة باللهجات العامية فيمضي كل قطر في لهجته وتمعن هذه اللهجات في التباعد والتدابرو يأتي يوم يحتاج فيه المصري الى ان يترجم الى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين ، ويحتاج أهل سوريا ولبنان والعراق الى مثل ما يحتاج اليه المصريون من ترجمة الكتب المصرية الى لهجاتهم كما يترجم الفرنسيون عن الايطاليين والاسبانيين وكما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين .

ولنسأل انفسنا آخر الامر ايها خير ان تكون للعالم

العربي كله لغة واحدة هي اللغة الفصحى يفهمها اهل مراکش
كما يفهمها اهل العراق ام ان تكون لهذا العالم لغات بعدد
الاقطار التي يأتلف منها ، وان يترجم بعضه عن بعض
كما يترجم بعض الاوروبيين عن بعض ؟ اما انا فأؤثر
وحدة اللغة وأثق كل الثقة كلها بان لها النصر آخر الامر ،
واری غير متردد ان وحدة اللغة هذه خليفة بان يجاهد في
سبيلها المؤمنون بها وبان يضحوا في سبيلها بكل ما
يملكون .

مُطَه



لفتني اليها صديق كريم في كتاب تفضل بكتابته اليّ
بعد ان قرأ الحديث الذي نشرته لي « الجمهورية » في الاسبوع
الماضي عن الفصحى والعامية ، وأعترف بانني لم أكد افرغ
من قراءة ذلك الكتاب حتى استيقنت ان ذلك الصديق قد
صور المشكلة فاحسن تصويرها ، وان هذا الحوار الطويل
الذي اسرف الناس فيه حتى ملوا واملوا حول الفصحى
والعامية ليس الا دوراناً حول المشكلة دون تعمق لها او
احاطة بها فضلاً عن حلها والتغلب عليها . وقد كان يقال
لنا حين كنا طلاباً في الازهر الشريف ان الحكم على
الشيء فرع من تصويره ، وكان يراد بهذا الكلام ان الذين
يريدون القول في امر من الامور يجب ان يحسنوا العلم به

والفهم لدقائقه قبل ان يقولوا فيه وقبل ان يحكموا عليه .
 وكنا نتندر في تلك الايام بشيخ من شيوخنا رحمه
 الله كان يقول في كل شيء دون ان نفهم عنه شيئاً . وكان
 رحمه الله يتمدح فيقول انه يستطيع ان يتكلم ساعتين دون ان
 نفهم نحن عنه شيئاً ودون ان يفهم هو عن نفسه شيئاً ، وكان
 يرى ذلك نعمة اسبغها الله عليه وفضلاً اختصه الله به والله
 يؤتي فضله من يشاء ... وليس من شك في ان شيخنا رحمه
 الله كان يقول فيكثر القول في الاشياء التي لا يحسن فهمها
 وكان كلما احس منا قصوراً او عجزاً عن اتباعه اغرق في
 القول وتأنق في التعبير وعابنا بالغباء ، ودعانا باسماء
 الحيوان لا يتردد في شيء من ذلك ولا يصطنع فيه تلطفاً
 ولا احتشاماً . فاذا تحدث اليها فيما يحسن من العلم لم
 يحتاج الى اطالة او الى افتنان في التعبير ولم نحتاج نحن الى
 سؤاله او استعادته ، ولم نتعرض لنكون حمراً او ثيرة او
 خنازير وبتفخيم الحياء . ومعنى هذا كله ان من فهم شيئاً
 حق الفهم استطاع ان يعرب عنه حق الاعراب اذا احسن
 لغته وملك اداته ، ولا خير في فهم لا يؤدي عنه اللسان ،
 ولا خير في لسان لا يؤدي عن القلب والعقل فيحسن
 الاداء . ولم يخطئ الشاعر القديم حين قال :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

فلم يبق الا صورة اللحم والدم

والشيء المحقق هو ان الذين يضيّقون باللغة الفصحى وينفرون منها ويفزعون الى ما يسمونه اللغة العامية لا يعرفون اللغة العربية الفصحى حق معرفتها قبل كل شيء لانهم لم يتعلموها كما كان ينبغي ان يتعلموها . شقت عليهم في المدرسة ولم يحسن اساتذتهم تحبيبها اليهم فاتخذوا دروسها وسيلة الى النفوذ من الامتحان لا وسيلة الى التعبير عن ذات نفوسهم . وانقطعت الصلة بينها وبين قلوبهم وعقولهم فلم يعرفوا الا لغة الحديث هذه التي يديرون بها السنتهم حين يلقون اصحابهم وحين يتحدثون الى الآباء والامهات والاخوان والاخوات . وربما نشأ عن هذا شيء خطير جداً وهو ان قصورهم عن العلم باللغة قد اضطرهم الى القصور عن فهم كثير من العلم الذي كان يلقي اليهم في المدارس والمعاهد والجامعات . فهذا العلم كان يكتب لهم باللغة الفصحى فيما يقرأون من الكتب ويلقى اليهم بلغة مختلطة بين الفصحى والعامية ، فيفهمون قليلاً ويعجزون عن فهم الكثير ، ويحفظون ما في الكتب والمذكرات عن ظهر قلب ليعيدوه حين يدعون الى الامتحان ولينسوه بعد ان يفرغوا من الامتحان فهم يملكون بالمدرسة مرأً فيحفظون منها شيئاً ويجهلون منها وما يلقي فيها اشياء . فاذا ظفروا بالاجازة المدرسية او الدرجة الجامعية رأوا انفسهم علماء بحكم القانون وبشهادة الدولة ، ولم ير الناس علماء عندهم او شيئاً يشبه العلم لانهم

لم يتعلموا كما تعلم الناس ولم يفهموا كما ينبغي للناس ان يفهموا .
وآية ذلك ان العلم في بلادنا لا يكاد يثمر مع ان ذكاء القلوب
ونفاذ البصائر وقدرة العقول على الفهم والبحث والاستقصاء كل
ذلك لا ينقصنا ، وانما الذي ينقصنا هو تمرين القلوب والبصائر
والعقول على الشعور والفهم والبحث والاستقصاء .

والامر بالقياس الى اللغة الفصحى لا يعدو ان يكون
كما هو بالقياس الى اي لون من الوان المعرفة امر العلم
والجهل . نحسن العلم فنحسن التعبير ونخطيء العلم فيخطئنا
التعبير ... واذا اتيج للتعليم ما ينبغي له من الاصلاح
ففهم التلاميذ والطلاب عن اسانذتهم حق الفهم وامتزج العلم
بعقولهم وقلوبهم واصبح جزءاً من نفوسهم لا شيئاً يستعار
اليوم لينطرح غداً اتيج للمتعلمين ان يعربوا عما عرفوا من
العلم واتيج لهم كذلك ان ينتجوا فيما عرفوا من العلم
واتيج للعلم ان يتوطن في مصر كما يتوطن فيها أبنائها
وان يستقر فيها استقرار المواطن ولا يلمّ بها إلمام الغريب ..
وما يقال بالقياس الى العلم يقال بالقياس الى الادب
وبالقياس الى الفن وبالقياس الى ما شاء الله من الواث
الثقافة وضروب النشاط العقلي على اختلافه .. فلأمر ما
نفر الفن من مصر على حظ مصر في عصورها القديمة من
اتقان الفنون والتفوق فيها ..

ولامر ما ظلت الموسيقى في مصر ، كما يقول ذلك
الصديق الكريم الذي كتب الي ، في طور السجع والجناس

والطباق متكلفة لا تصور شيئاً ولا تدل على شيء .
ومن خصائص الادب انه لا يخضع لما تخضع له الوان
المعرفة الاخرى من هذه القيود التي تفرض في المدارس
والمعاهد والجامعات . فانت لا تستطيع اصطناع مهنة
الطب او الهندسة الا اذا اذنت لك الدولة في ذلك بعد
اعوام معينة تقضيها في الدرس النظري والعملي ، وبعد
امتحانات معينة تجوزها في يسر او في عسر . ولكنك لا
تحتاج الى اذن الدولة لتكون اديباً وانما يكفي ان تحسن
تناول القلم واجراءه على القرطاس بما يمكن ان يقرأه الناس
لترى نفسك اديباً ان شئت ، وليراك الناس اديباً ان
اعجبهم ما تذيع فيهم من فنون القول . وقد اتاحت المطبعة
واتاحت الصحافة في هذا العصر الحديث فأصبح من الممكن
لكل كاتب ان ينشر ما يكتب في كتاب او في صحيفة ،
فاذا رأى كلامه مطبوعاً في كتاب او منشوراً في صحيفة
ظن انه اديب . فاذا احس رضى الناس عما يكتب استيقن
انه من قادة الرأي . واذا احس اعراضهم عما يكتب لم
يشك في انه مظلوم مغبون لا يستطيع الناس ان يفهموا
عنه او يقدروا انتاجه الرفيع ، واذا احس سخطهم على ما
يكتب لم يتردد في الثقة بأنه قد سبق العصر الذي كان
ينبغي ان يعيش فيه وبأن ادبه قد جاء قبل ابانه وبأن
الاجيال المقبلة ستقدره خيراً مما قدرته الاجيال المعاصرة
وستفهم عنه خيراً مما فهم عنه المعاصرون .

ولست ادري يجرب الادباء ما اجرّب من هذه
الصور الكثيرة التي تصبّحني وتمسّيني في كل يوم والتي
يعرضها علي اصحابها ليعرفوا رأيي فيها وحكمي عليها وهم
واثقون قبل عرضها عليّ أنّها جيدة كل الجودة متقنة كل
الاتقان . وهم يرضون عني كل الرضا اذا شجعتهم ،
واثبتت عليهم . ولكنه رضى موقوت لا يلبث ان يستحيل
الى سخط وانتهام بالحسد والجحود والعقوق ايضاً ، اذا لم
امض في الثناء والتشجيع . وهم يسخطون عليّ اشد السخط
اذا رددت اليهم آثارهم متلطفاً ولم امنحهم من الثناء
والتشجيع ما كانوا ينتظرون . يرون ذلك اثره وبخلاً
واسفاقاً من منافستهم لي وتفوقهم عليّ .

وكذلك يكثر الكاتبون عن علم وعن غير علم وينشر
من الكلام ما يقرأ وما لا يقرأ ولا سبيل الى ان تتقي
هذا ، وتصد الناس عنه . فالصحف محتاجة لان تفيض
انهارها وما اكثر ما تفيض الانهار بالغث والسمين . واذا
رأى صاحب الكلام الغث ان كلامه قد نشر الى جانب
الكلام القيم لم يفرق بين هذا وذاك ولم يشك في انه أحسن
واجاد . ولم يزد هذا الا غروراً وامتلاً بنفسه ثقة بأنه
يستطيع ان يخوض في كل شيء وان يقضي في كل شيء .
وويل للذين لا يدعون لقضائه حين يقضي ولا يؤمنون
بقوله حين يقول .

والصحف لا تستطيع ان تطالب كتابها بالتجويد الفني

لان نظامها يعجلها ويعجلهم عن ذلك . وليس المهم بالقياس الى الصحف ان تنشر الادب الشائق الرائق فحسب وانما الذي يعينها قبل كل شيء ان تنشر ما يفهمه الناس منها على اختلاف طبقاتهم ، وهي لا تحفل بترقية الذوق ولا بتهديب الطبع الا قليلاً وانما تحفل باذاعة الانباء واثارة الميل الى الاستطلاع . فهي اشد حاجة الى ما يبلغ ذلك من نفوس قرائها منها الى ما يمتنع عقولهم واذواقهم ويصلح قلوبهم ويهذب طباعهم . ومن الصحف ما لا يعينها ذلك قليلاً ولا كثيراً . والذي تقوله في الصحف تستطيع ان تقوله في الاذاعة التي تتجه الى الكثرة لا الى القلة والى الكافة لا الى الصفوة . وكذلك تختلط القيم اشد الاختلاط ولا يفرق القراء او كثرتهم على اقل تقدير بين الاديب والكاتب الصحفي الذي لا حظ له من عناية بالادب او مشاركة فيه .

والناس يتناقلون الاخبار والاحاديث بينهم باللغة التي يتكلمونها لا يتألقون في ذلك ولا يحتفلون له . فلم لا تلقي الصحف اليهم انباءها واحاديثها بهذه اللغة التي يتكلمونها ؟ ذلك أيسر على كتابها حين يكتبون وأيسر على قرائها حين يقرأون . فاما التألق والاحتفال فصناعة الفارغين للادب . وليس العصر الذي نعيش فيه عصر فراغ للادب او عكوف عليه او اناة في انتاجه ، واذا كثر نشر الكلام الذي يكتب في يسر ويفهم في يسر ولا يحتاج كاتبه الى اناة

في كتابته لان الصحيفة تعجله عن الاناة ولا يحتاج قارئه الى الاناة في قراءته لان اعباء الحياة تعجله عن الاناة ، اذا كثر نشر هذا الكلام السهل وكثرت معه القراءة السهلة الف الناس هذه السهولة وضاقوا بالمشقة وكرهوا الجهد واحتمل العناء ، واصبح الكسل لهم طبيعة وزهدوا في الفن وما يكلف اصحابه من انفاق الوقت والقوة واحتمل المشقة الشاقة والعناء المرهق . وماذا يصنع الطالب والتلميذ بين دروس تلقى اليه القاء مهملاً وصحف تلقي اليه الاخبار والاحاديث القاء مهملاً واذاغة تصبغه بالكلام الكثير المختلف الذي يلقي اليه القاء مهملاً ايضاً ؟ لم لا تصبح حياته كلها اهمالاً في التفكير ، واهمالاً في التعبير ، واهمالاً في البحث والاستقصاء ، واهمالاً في الحكم على الاشياء وفي تقدير الاشياء بينه وبين نفسه ؟

ويزيد في خطورة هذه الظواهر كلها ان الحياة العقلية جديدة بالقياس الى هذه الكثرة التي اخذت تشارك فيها فئة معينة وانتصر التعليم واستيقظ الضمير العام بينها . فعلمنا الحديث وادبنا الحديث وثقافتنا الحديثة كل ذلك لا يعتمد على سنة موروثة ولا عادات يتلقاها الابناء عن آباءهم . وانما هو شيء طارئ ، بعد ان لم يكن ، وهو طارئ بالقياس الى فريق من الناس دون فريق .

فالمتعلم غريب بين الذين لم يتعلموا ، والابناء الذين يختلفون الى المدارس والمعاهد والجامعات غرباء حين

يرواحون الى بيوتهم ويتحدثون الى آباءهم وامهاتهم بل هم غرباء حين ينصرفون عن مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم . وهم بحكم هذه الغربة معرضون لكثير من الشر ، معرضون لهذا الجهل الذي يغمرهم ويأخذهم من جميع اقطارهم . والاستسلام أيسر من المقاومة والكسل ايسر من العناء . فما لهم لا يعيشون في بيئاتهم اذن ، وما لهم لا يحيون حياتين مختلفتين احدهما عسيرة يحيونها في معاهد العلم والاخرى يسيرة يحيونها في الشوارع والاندية والملاعب والدور ؟ وكذلك يكون حظ الجهل من حياة الشباب اكثر من حظ العلم ، واثر الجهل في نفوسهم اشد من اثر العلم والادب والفن ... اشياء يتكلفها الشباب تكلفاً ولا تستجيب لها طباعهم وعقولهم وقلوبهم الا قليلا . والنتيجة الطبيعية لهذا كله لو استقامت العقول وصح تقديرنا للاشياء وحكمنا عليها أن نقاوم الجهل وتأثيره في نفوس الشباب ما استطعنا الى مقاومتها سبيلاً وان نكره الى شبابنا هذه السهولة التي يألفونها والتي تغريهم بالكسل وترغبهم فيه ، ونحبب اليهم الجهد وتزينه في قلوبهم ونغريهم بصعاب الامور وندعوهم الى الدخول من الابواب الضيقة لا من الابواب الواسعة التي لا تكلف الداخلين منها مشقة ولا جهداً . والذي اعرفه ويعرفه كثير من الناس ان في الارض بلاداً اخرى كثيرة غير بلادنا يحيا فيها الشباب حياة تدفعهم دفعاً الى الاستزادة من العلم والمعرفة في كل لحظة من لحظات

النهار والليل وتدفعهم دفعاً الى محاولة الجهد واحتمال المشقة وعدم الاستسلام لهذا الكسل الذي يمت القلوب ويخمد جذوة العقول . وهم من اجل ذلك لا يضيقون بلغاتهم لان العلم بها يدعوهم الى شيء من الجهد الكثير او القليل . وهم من اجل ذلك لا يفرضون لغة الشارع على ادبائهم وشعرائهم وانما يرفعون انفسهم بين حين وحين ساعة او ساعات في كل يوم من حياة الشارع هذه الى حياة الكتاب والشعراء في كتبهم ودواوينهم وإلى حياة العلماء في كتبهم ومعاملهم وإلى حياة الفنانين مستمتعين بما ينتجون من ضروب الفن الجميل على اختلافها . لا يمنعهم ذلك من النهوض بأعباء الحياة اليومية بل يشجعهم على احتمال هذه الاعباء ، يقبلون عليها ويشقون بها مطمئنين الى انهم سيتخففون منها آخر النهار بقراءة الشعر أو النثر وبالاستماع الى آيات الموسيقى ، وسيتخففون منها يوم الراحة بالاختلاف الى المتاحف يستمتعون بما فيها من روائع الفن القديم والحديث وبالتنزه في الحدائق والرياض ينعمون فيها بجمال الطبيعة وسحرها . وهم بذلك يحيون حياة الانسان الجدير بهذا الاسم يؤدون للجسم حقه ولملكاتهم العقلية والشعورية حقها . في تلك البلاد يحاول بعض الكتاب ان يكتبوا بلغة الشارع فلا يتاح لهم الا الاخفاق لأن الناس ينفقون اكثر وقتهم في التحدث بلغة الشارع والاستماع لها ويريدون ان يستريحوا منها الى لغة الكتاب

والشعر والتصوير والموسيقى والى لغة الطبيعة التي لا تتحدث
الى وحدها وإنما تتحدث الى نفوسهم بغير واسطة .

ما أشد حاجتنا الى ان نفهم حياتنا التي نحيها حق
فهمها ونعلم أننا أشبه شيء بالغريق الذي يقاوم النهر لانه
ان استسلم له ادر كه الموت . ونحن نسبح في بحر لا في نهر
من الجهل والغفلة ومن الابتذال والاسفاف . فمن الحق
علينا لانفسنا ولوطننا وللاجيال المقبلة من ابنائنا واحفادنا
ان نقاوم هذه الامواج الجاهلة التي توشك ان تطفى علينا
وتضطر نفوسنا الى الموت وتتركنا اجساماً تحيا حياة
الانعام لا حياة الناس .

ما أشد حاجتنا الى ان نبذل اقصى ما نستطيع من
الجهد لتصبح حياتنا العقلية كلها تعليماً لا تجهيلاً .

التمثيل



وهذه خصومة جديدة لست ادري اتقصر أم تطول ،
بل لست ادري اي معنى بها الشباب من ادبائنا كما عـنـوا
بالخصومة حول الادب أيكون في سبيل الحياة أم تكون
الحياة في سبيله ، وحول صورة الادب اتكون هذا المزاج
الذي يتمتع القلب والعقل والذوق ويغني النفس بما يثير فيها
من الشعور بالجمال والطموح اليه أم تكون ذلك الكلام
اليوناني الذي لا يقرأ ولا يفهم لان اصحابه لم يحسنوا
الفهم عن الفيلسوف الايطالي العظيم بنديتو كروتشه ولم
يحسنوا التعبير عما لم يحسنوا فهمه . فقالوا كلاماً يقرأه
الناس فيظنون انهم يقرأون تلك الكلمات التي تأتلف منها
العزائم والطلسمات والتي يفهمها الجن ولا يجد الناس الى

فهمها سبيلًا .

أما أنا فأعنى بهذه الحصومة الجديدة عناية خاصة لأنها
ممتعة في نفسها أولاً ولأنها تنفع الشباب الذين لم يتورطوا
بعد في قراءات غريبة يفهمونها أو لا يفهمونها ولكنهم في
أول حياتهم الأدبية يلتمسون طريقهم ويلتمسون نفوسهم
أيضاً ويتهاون ليظهروا في أثر هذا الجيل من أدبائنا
الجدد .

وهذه الحصومة الجديدة أثارها الاستاذ الصديق عزيز
أبازة منذ أيام أو أثرها أنا منذ عام ونصف عام ،
والفضل في أثارها راجع الى شاعرنا الكبير على كل
حال . فقد قدمت الى القراء منذ حين غير قصير قصته
الرائعة « غروب الاندلس » وقلت في تلك المقدمة اني لا
انشط للتمثيل الذي يعرض على الناس شعراً في هذه الايام
لأن التمثيل قد شب عن طوق الشعر وتحرر من قيوده
واوزانه وأثر الحرية الحرة والطلاقة الطليقة اللتين تتاحان
في النثر اكثر مما تتاحان في الشعر .

وشاعرنا الكبير صبور حسن الاناة متشد في كل ما
يعمل ومتشد في كل ما يقول ، الى سماحة في الخلق ورجاحة
في الحكم وايتار للعافية وازورار عن المراء . وهو من
اجل ذلك تفضل فتقبل المقدمة بقبول حسن وصدر بها
الطبعة الاولى لقصته الممتعة . ولكنه على ذلك لم يرض رأبي
في الشعر التمثيلي الحديث فصبو من هذا الرأي على ما

كره وانتظر حتى سكت عنه الغضب ، ثم اقبل في الاسبوع الماضي على رأبي ذاك يجادلني فيه ويريد ان يصرفني عنه ، ولكنه مع الاسف الشديد او مع السرور الشديد لم يبلغ شيئاً . فهو لم يستطع ان يقنعني بان الشعر عامة والشعر العربي خاصة يلائم التمثيل في هذه الايام ، وأيسر ما ينبغي ان نفكر فيه حين نعرض لهذا الموضوع هو هذه القصص التمثيلية التي لا تسكاد تحصى والتي تشغل ملاعب التمثيل في اوربا وامريكا في هذه الايام والتي تتجدد تجدداً مطرداً من عام الى عام كما تقفو امواج النهر الجاري ما يسبقها من الامواج وكما تقفوها امواج يسعى بعضها في اثر بعض ما دام النهر جارياً فيما رسم له من طريق . ثم نستقصي هذه القصص وكتابتها لنرى لأيهم تكون الكثرة الكثيرة للشعر ام للنثر ؟

فان تكن للشعر فقد اخطأت انا وأصاب شاعرنا الكبير . واؤكد له اني أبتهج بخطي ان اكن مخطئاً اكثر مما يبتهج هو باصابته ان يكن مصيباً . ذلك لأنني اؤثر الشعر على النثر ، واود لو اتيح لي ان تكون قراءتي كلها شعراً بل ان تكون حياتي كلها شعراً لان الشعر الجيد جمال خالص يجد الانسان فيه نفسه وقلبه وعقله وذوقه في غير مشقة ولا جهد ، وفي غير كدر ولا رفق ، وفي غير غرور ولا كبرياء . ولان الشعر يخلق لقارئه عالماً كله صفو ، وكله سمو وكله ارتفاع عن النقائص وتنزه عن الصغائر وكله

يسر واسماح .

وما ارى ان احداً يكره ان تكون حياته كلها شعراً ، ولكن الناس يريدون والاقدار تقضي لهم ما تريد هي ، لا ما يريدون هم .

والاقدار قد قضت على الناس في هذه الايام ان يكون حظهم من الشعر قليلاً او اقل جداً من القليل . ومن يدري لعلها قضت عليهم ان تقدم لهم هذه الحياة الغليظة الجافية الحشنة المحفوفة بالمكاره لتمتحن بها نفوسهم وتمحص بها قلوبهم وتهمي بها الاخيار منهم حياة كلها شعر ، وكلها روعة وجمال ويسر واسماح وصفاء ونقاء في الجنة التي ادخرها الله لعباده الصالحين . فاما في هذه الدنيا التي نعيش فيها منذ استأثر العلم بعقول الناس وابتكر لهم ما ابتكر في حياتهم المادية والمعنوية جميعاً ، فنحن مكرهون ان نقنع بالنثر الذي اتيج لنا والذي يلائم هذه الحياة التي نحياها ويؤدي عنا اغراضنا فيها كما يستطيع ان يؤديها عنا . والشعر ليس نادراً في التمثيل وحده ، ولكنه نادر

في الادب كله ، والشعر لا يتاح لكل من استطاع ان يشعر او يفكر وأحس ان عنده شيئاً يستطيع ان يقوله للناس وانما يتاح لقلّة قليلة جداً من الافذاذ المختارين الذين يختصهم الله بمواهب ممتازة يأتيها امتيازها من انها نادرة ليست شائعة ولا ميسرة ولا مكتسبة بالمحاولة والمطاوله والمعاناة وحدها ، وانما تحتاج الى المحاولة والمطاوله والمعاناة

بعد ان توهب لبعض الطباع الخاصة التي يؤثرها الله بموهبة الشعر ايثاراً . وآية ذلك ان كل اديب قد حاول الشعر في اول أمره طموحاً منه الى هذا المثل الاعلى .

ثم رد عنه اكثر الادباء حين استبان لهم انهم اقصر باعاً واضيق ذراعاً من ان يبلغوه لان الشعر شيء لا يكتسبه الناس اكتساباً وانما يتلقونه فضلاً من الله الذي يؤتي فضله من يشاء من عباده ..

ومهما يكن من شيء فاني ادعو شاعرنا الكبير الى ان يستقصي معي ما يعرض على الناس من التمثيل في العالم الحديث لنرى أتكون كثرة شعراً ام نثراً . وما اشك في انه ان فعل سيعدل عما زعم في مقاله الاخير من ان اسماء الشعراء الممثلين ليست اقل كثيراً من اسماء الكتاب الممثلين ، وسيؤمن ايماناً لا يبلغه شك من اي ناحية من نواحيه بأن التمثيل قد انصرف عن الشعر منذ عهد بعيد .. وبأنه يستطيع ان يعد العشرات والمئات من الكتاب الممثلين الذين يقدمون الى القراء والنظارة عشرات ومئات من القصص التي كتبت نثراً دون ان يحصي عشرة واحدة من الشعراء الذين يقدمون الى الناس قصصاً تمثيلية قد نظمت شعراً في هذا العصر الذي نعيش فيه .

ويستطيع الاستاذ ان يذهب الى المدن الكبرى التي تكثر فيها الملاعب ويزدهر فيها التمثيل وانا زعيم بانه لن يجد خمس قصص شعرية تمثل الان في العالم كله ، على حين

انه سيوجد مئات من القصص النثرية تعرض على الناس في كل ليلة فيها الجيد وفيها الرديء وفيها ما هو بين ذلك ولكنها كلها قد صبت في النثر صباً ولم تضع في الشعر . وفي باريس مثلاً عشرات من ملاعب التمثيل الجادة والهازلة وكلها تعرض على الناس الان تمثيلاً منشوراً ، الا ان يعرض بعضها قصص الفحول من الشعراء القدماء كشكسبير وكورني وراسين ومن اليهم .

وكم احب ان يراجع الاستاذ نفسه فيما زعم من امر الشاعر العظيم إليوت فتمثيله المنشور اكثر من تمثيله الشعري فيما اعلم ، وهو بعد ذلك شاعر يعنى بالشعر الخالص اكثر مما يعنى بالشعر التمثيلي . وقد يعرض له التمثيل من حين الى حين فيعمد اليه ناثراً اكثر مما يعمد اليه شاعراً . وفي فرنسا شاعرها العظيم الذي تؤمن له بالتفوق والنبوغ وتؤمن له بالتفوق والنبوغ بلاد اخرى غير فرنسا وهو كلوديل وتمثيله مع ذلك على كثرته وروعته وتفوقه ليس شعراً وليس نثراً بالمعنى المألوف وانما هو شيء بين ذلك تحرر من الشعر ومن قيوده ولم يهبط الى النثر الذي يصطنعه الناس عامة ، وانما اتخذ لنفسه لوناً خاصاً من النثر لا يكاد احد يشاركه فيه .

وقل مثل ذلك بالقياس الى البلاد الاخرى التي يزدهر فيها التمثيل . وما من شك في ان النثر قد انتصر على الشعر في هذه الموقعة التي اثبتت بينهما وهي موقعة التمثيل ، وقد كان الامر بينهما كذلك في جميع العصور وفي جميع البيئات

وبالقياس الى كثير من فنون القول لا بالقياس الى التمثيل وحده ، فالعرب مثلاً في جاهليتهم لم يعرفوا من فنون الكلام المنشور الا احاديثهم اليومية وامثالهم السائرة وخطباً قصاراً كانت تلقى في بعض المقامات ذهبت عنا ولم يبق لنا منها شيء . كانت كثرتهم تجهل الكتابة وكان الذين يحسنون الكتابة يصطنعونها في معاملاتهم المادية ولا يحسنون التعبير بها عما يريدون حتى في ايسر معاملاتهم . وفي العصر الاسلامي الاول كانت حياتهم العقلية كلها شعراً وعرفوا النثر في شئون العلوم الدينية وفي شئون السياسة حين كانوا يختصمون وفي شئون الوعظ حين كان القصاص يذكر الناس بأيام الله . ثم جعل النثر يقوى شيئاً فشيئاً حتى بلغ اشده في القرن الثاني واذا هو لا يكتفي بميادينه المقسومة له من حياة الناس في العلم والفلسفة والرسائل السياسية وغير السياسية ولكنه يطمع الى ان ينازع الشعر في بعض فنونه التي كانت خاصة به مقصورة عليه ، واذا هو ينازع الشعر في المدح وينازعه في الهجاء وينازعه في الوصف وينازعه في الرثاء ويقهره في بعض هذه الفنون فما اظن ان استطاع ان يبلغ من الهجاء ما بلغه الجاحظ مثلاً منه في رسالة التربيع والتدوير ولم يعرف العرب التمثيل لا لأن التمثيل اليوناني كان وثني النزعة فقد كانت الفلسفة اليونانية ايضاً منحرفة عما الف المسلمون والمسيحيون من امور الدين واولئك وهؤلاء قد عرفوها حق معرفتها ولكن لسبب يسير جداً وهو ان العرب لم يجدوا التمثيل

عند الذين عاصروهم من الروم ، فقد اعرضت المسيحية عن التمثيل ولم تكن آيات التمثيل اليوناني تعرض على النظارة أو تقرأ في الكتب حين اتصل المسلمون بالروم . ومن أجل هذا حاول العرب ان يتوجوا كتاب الشعر لارسطاطاليس فلم يستطيعوا ان يفهموه على وجهه لانهم لم يعرفوا من أمر التراجيديا والكوميديا شيئاً ذا بال . وحاول ابن سينا ان يلخص كتاب الشعر فلم يصنع شيئاً مع انه قد وفق الى تلخيص الخطابة توفيقاً حسناً . وليس لذلك سبب الا ان العرب ومن عاصروهم من اليونان كانوا يتحدثون عن التمثيل كما يتحدث الناس عما لا يحققون .

وامر العرب في هذا كله كامر غيرهم من الامم القديمة . كانت حياتها العقلية كلها شعراً أول الامر ، ثم نشأ فيها النثر فغلب الشعر شيئاً فشيئاً على فنون القول كلها ، وحصر الشعر في فن واحد من الفنون وهو الغناء . فقد كان التاريخ مثلاً أو الحديث عما مضى من أمور الناس يكون شعراً قصصياً ، ثم غلب النثر على هذا الفن قليلاً قليلاً حتى اقصى الشعر عنه اقضاء ، بل كان تسجيل العلم نفسه يكون شعراً ، واذكر ان شئت قصيدة الاعمال والايام للشاعر اليوناني القديم اسبودوس . ثم جعل تسجيل العلم يكون نثراً قليلاً قليلاً حتى استأثر النثر به كله ، واصبح نظم العلم شعراً شيئاً تعتمد اليه الامم المتحضرة عن ارادة وتكلف ورغبة في تيسير الحفظ والاستظهار على الطلاب

الناشئين لا طبيعة سائغة ميسرة .

وكذلك استأثر النثر بالحياة العقلية الانسانية ولم يبق للشعر الا اللون الغنائي من هذه الحياة ، على ان النثر كثيراً ما يزاحمه في هذا اللون ايضاً .. حتى اضطر الشعر في العصور الحديثة الى ان يتحرر احياناً من قيوده التقليدية .. فيطرح القافية وييسر الوزن ويبعد عن أصله الموروث ويدنو من النثر دنواً شديداً .

ومن هنا نشأ ما يسميه الناس شعراً منشوراً وما يسمونه شعراً حرّاً ، وما يسميه بعضهم شعراً أبيض . كل هذا جاء من تغلب النثر على الشعر ومن طموح الناس الى الحرية الحرة التي لا تحب القيود حتى في الاشياء التي الفت فيها القيود . فاستحالة التمثيل من الشعر الى النثر ليست شيئاً غريباً في الظواهر الادبية لا بالقياس الى أمة بعينها ، بل بالقياس الى الامم كلها .

وقد كان التمثيل الاوروبي في اول امره أيام النهضة شعراً ، لان الاوروبيين ذهبوا به مذهب القدماء من اليونانيين واللاتينيين فنظموه شعراً ، كما كان أولئك يفعلون ، بل تخيروا أكثر الموضوعات التي نظموا فيها الشعر التمثيلي بين الموضوعات التي كان القدماء ينظمون فيها شعرهم ، فعرضوا لاساطير اليونان والرومان ولبعض الأنباء التاريخية اليونانية والرومانية ، وقبلها كانوا يعرضون لغير هذه الاساطير والانباء من الموضوعات .

وتحرر اصحاب الكوميديا من هذا كله ، كما كانت القدماء من اليونان والرومان يتحررون منه .. فاشتقوا موضوعاتهم من حياة الناس الذين كانوا يعاصرونهم كما فعل مولير في اكثر قصصه ، وكما فعل ارسطوفان من قبله عند اليونان ، ولكن القرن الثامن عشر لم يكد يظل الادب الاوروي حتى جعل التمثيل يتحرر من هذه القيود كلها . فعمد الى النشر مكان الشعر عند كثير من الممثلين وترك الموضوعات القديمة الى الموضوعات الحديثة ، وما زال يمضي في طريقه هذه نائراً على مذهب القدماء حتى انتهى الى حيث نراه الآن ، لا يلم بالشعر الا قليلاً واذا ألم به لم يستأثر بالنظارة الا أن يكون شعراً ممتازاً حقاً ، كما فعل ادمون رويستون في أواخر القرن الماضي وفي أوائل هذا القرن . وكما يحاول بعض الشعراء الان ان يفعلوا بين حين وحين .

فالتمثيل الشعري الان طرفة نادرة يطرف بعض الشعراء الممتازين بها الناس وقتاً بعد وقت ، ولا يمنهم ذلك من ان يعمدوا الى النشر في بعض القصص لان النشر قد اصبح اللغة الطبيعية للتمثيل منذ وقت غير قصير .

وقد عرف العرب فنّ التمثيل بآخرة حين اتصلوا بالاوروبيين ورأوا ملاعبهم وشهدوا تمثيلهم وقرأوا ادبهم التمثيلي على اختلاف الوانه ، فحاول بعضهم ان يدخل هذا الفن في الادب العربي مقلدين أول الامر ثم مبتكرين بعد

ذلك في ظروف قليلة جداً . فنقلوا كثيراً من القصص
 الفرنسية والانجليزية نقلاً مقارباً اول الامر ونقلاً دقيقاً
 في بعض الاحيان . واخذوا يعرضون هذه القصص على
 النظارة من الشرقيين واتيح لهم شيء من النجاح . فآلف
 الناس الملاعب وجعلوا يختلفون اليها وجعل الممثلون
 يستهوونهم بالشعر والغناء وأشياء أخرى غير الشعر والغناء .
 والناس يستجيبون لهم مستمتعين بما يعرض عليهم . وبعض
 الشباب يشغفهم هذا الفن ويستأثر بقلوبهم واهوائهم ، ثم
 يستهوي ملكاتهم قليلاً قليلاً ، فيحاولون ان ينشئوا تمثيلاً
 عربياً أصيلاً . وما ارى ان أديبيننا العظمين الاستاذ محمود
 تيمور والاستاذ توفيق الحكيم قد احبا هذا الفن وحاولا
 ان ينتجا فيه الا متأثرين بما كانا يشهدان من هذا التمثيل
 في آخر الصبا وأول الشباب . ثم قرآ وتثقفا وتعمقا هذا
 الفن واتيح لها بعد ذلك ما اتيح من الابداع والامتع .
 وثورتنا بالانجليز في اعقاب الحرب العالمية الاولى هي
 التي اذكت جذوة التمثيل في مصر ما في ذلك شك .
 فهي قد اذكت شعورنا بانفسنا وغضبنا لكرامتنا ومطالبتنا
 بحقوقنا وذودنا عن حريتنا وكشفت عن كنهوز كانت
 مخبوءة في اعماق ضمائرنا ، وفرضت على كل واحد منا ان
 يعطي خير ما عنده لنفرض نفسنا على خصمنا ولنشعر
 العالم بآلامنا وآمالنا وسهونا الى حقنا في الحياة الحرة
 الكريمة . وهي قد حولت شوقي من القصر الى الشعب

وامعنت بحافظ في الاقبال على الشعب يؤثره بخلصة شعره
من دون الاغنياء والموسرين . وهي قد اضطرت شوقي الى
ان يشارك في الحياة الجديدة بلون جديد لفته الشعري
العظيم . اكبرت رأيه في نفسه واكبرت رأيه في امته
وقوة ايمانه بمواطنيه وسمت به الى ان يذهب مذهب الشعراء
الكبار في الامم الكبرى فحاول ان يكون له تمثيل
كتمثيل شكسبير وكتمثيل كورني وراسين ، وكتمثيل
فيكتور هوغو . فوضع قصصه التمثيلي المأثور .

ولكن شوقي كان صاحب غناء لا صاحب تمثيل ، وكان
مبتدئاً في هذا الفن التمثيلي فلم يتح له من الاتقان الا ما
اتيح للمبتدئين الناهين . وكان تمثيله غناء وقد غنى فيه
المغنون بالفعل ، وعاش جيل من معاصريه مستمتعاً بغناء
عبد الوهاب ومنيرة المهدية لبيته المشهور : انا انطونيو
وانطونيو أنا .

واظهر ما يلاحظ في تمثيل شوقي انه قصد بفضه الى
موضوعات مصرية يرفع بها من شأن وطنه ويميط بها عنه
الاذى كما فعل في كليوبترة وفي قمبيز وقصد به الى
موضوعات عربية يصور بها مجداً عربياً مؤثلاً ثابت الاسس
ينعم الناس في ظله بالسلم والحب والغناء جميعاً آمنين في
استمتاعهم بهذا كله لا يصرفهم عنه خوف أو قلق .
فأنشأ قصة المجنون ، وكان الناس يطربون لغناء شوقي في
قصصه ذاك اكثر مما يعجبون أو يخلبون بتمثيله . وربما

خضع شوقي لتأثير بعض الشعراء الاوروبيين الذين كانت
يحاكيمهم خضوعاً ظاهراً نالمسه بأيدينا اذا حاولنا ان
نحلل قصصه التمثيلي ذاك .

والشيء المحقق هو ان شوقي احدث حدثاً ادبياً
سيحفظه التاريخ حين طوع الشعر العربي للتمثيل . ولكن
التاريخ سيحفظ هذا الحدث وحده دون ان يحفظ لشوقي
فنناً تمثيلياً ممتازاً . وسيظل شوقي دائماً شاعر غناء لا شاعر تمثيل .
وذهب شاعرنا الكبير عزيز اباطة مذهب شوقي نفسه
لم ينحرف عنه قليلا او كثيراً الا بمقدار ما يكون بين
شاعرين من اختلاف المزاج واقتراق الطبيعة وتفاوت الالهواء .
فشاعرنا عزيز اباطة مغنٍ سواء اراد ذلك او لم يردده ، وحظه
من اتقان التمثيل الخالص محدود جداً . يؤمن بذلك من
يقرأ شعره ومن يشهد قصصه في ملاعب التمثيل . فقراؤه
ونظاراته يطربون جزالة لفظه ودقة معانيه ورقة اسلوبه
وحسن تأتية لما يريد ، اكثر مما يطربون لما يحسن من تدبير
الحركة ولما يتقن من اجراء الحوار . وشعر عزيز اباطة كشعر
شوقي يشغلنا بجماله الخالص عن اشخاصه ، فنحن حين نقرأ او
نشهد قصة العباسة لا نخفل بالعباسة نفسها ، ولا بالرشيده ولا
بجعفر وانما نخفل بالشعر الذي يجريه الشاعر على السنتهم . وكل
مثل ذلك بالقياس الى قصصه الاخرى ومنها غروب الاندلس .
فن غنائى رائع ما في ذلك شك وتمثيل ساذج يسير ما في
ذلك شك ايضاً . ولم لا نقول الحق ونقرر في صراحة

ان التمثيل عند شاعرينا الكبيرين شوقي وعزيز وسيلة الى الغناء ، على انه عند الشعراء المجيدين من الاوروبيين الممتازين غاية يتخذ الغناء احياناً وسيلة اليه . فليس شكسبير ولا راسين مغنيين في تمثيلهما وانما هما ممثلان اولاً يغنيان في مواطن الغناء على حين يغني شوقي وعزيز دائماً ولا يمثلان الا قليلاً .

ولا على الشاعرين العظميين المصريين ان يفوتهما التمثيل ، فالتمثيل آخر الامر اقل خطراً من الغناء واهون منه شأنًا . قد استأثر به النثر في هذه الايام ولم يستطع هذا النثر ان يغلب على الغناء ولا ان يشارك فيه مشاركة ذات بال . واذا قلت ان النثر قد غلب على التمثيل فانا لا اريد على ان اقرر حقيقة واقعة . ولا اريد ولا ينبغي لي ان اريد اصدار حكم يجب ان يخضع له الفن ، فليس لأحد من الناس ان يصدر مثل هذا الحكم لان الفن بطبعه اقوى قوة واعزّ عزة من ان يخضع لاحكام الناس مهما يكونوا ومهما تكن احكامهم ، وانما الشاعر ينبوع صفو يعطينا ماءه النмир سواء اردنا ذلك ام لم نرده ، ولا على ينبوع ان نقول في هذا الماء الصفو ما نقول فلن يغير قولنا ولن تغير آراؤنا من طبيعته ولا من طبيعة ما يعطينا . هو حر فيما يعطي ، ونحن احرار فيما نصنع بما يهدي الينا . هو يصدر عن طبيعته في الاعطاء ونحن نصدر عن طبيعتنا في الانتفاع والاستمتاع .

فليفض علينا شاعرنا الكبير من فنه ما تسمح به طبيعته
وليخل بيننا وبين ما نرى في شعره من رأي وما تصدر
فيه من حكم ، فهو الممتع دائماً ونحن المدعوون الى مائدته
الكريمة ، وأي بأس عليه من ان نرضى او نخط حين
نستمتع بما يقدم الينا من الالوان . اترى الشمس تحفل بنا
ان رضينا عن نورها الوضاء او سخطنا عليه .

لا بأس اذن على شاعرنا الكبير من ان يقول فنرضى
نحن او نخط ، ونعرف نحن او ننكر وليذكر قول رؤبة
لبعض اللغويين حين اخذ يجادله في بعض رجزه : علينا
نقول وعليكم تعربون .

اسراف



لا أريد الاسراف في المال . فلست من المال وأصحابه في شيء ، ولا اريد الاسراف في السياسة ، فما أحب ان اكون من السياسة واصحابها في شيء ، وانما اريد الاسراف في تقدير الادب والحكم عليه . وفي تقدير الادباء والحكم عليهم . وفي اقحام العلوم المختلفة في الدرس الادبي بغير حساب . وكان يقال فيما مضى من الزمان إن النحو في الكلام كالملح في الطعام ، كثير منه يخرج الكلام عن طوره ويفسده وقليل منه ينزل بالكلام عن قدره ويفسده ايضاً . وكان الفلاسفة من اصحاب ارسططاليس يقولون ان الفضيلة وسط بين رذيلتين تأتي احدهما من التقصير وتأتي الاخرى من الافراط . وقد حفظنا منذ الصبا ان خير

الامور اوساطها . والاسراف شر في كل شيء ، ولكنه
 اشد ما يكون نكراً حين نمس الادب ودراساته فيخرجه
 عن ملاءمة الذوق ويحول بينه وبين اخص ما يمتاز به من
 تحقيق المتعة الفنية للقلب والعقل جميعاً . اقول هذا كله بعد
 أن فرغت من قراءة كتاب عن نفسية ابي نواس لاستاذ
 نابه ممتاز لا شك في نباهته وامتيازه هو الاستاذ الدكتور
 محمد النويهي استاذ الادب العربي بكلية الخرطوم الجامعية .
 واحب ان اقرر قبل كل شيء ان الكتاب يصور جهداً
 عنيفاً حقاً في البحث والدرس والاستقصاء والتأمل المتمهل
 المستأنى الذي يطيل الوقوف عند القصيدة من قصائد ابي
 نواس بل عند البيت الواحد من كل قصيدة حتى يستخرج
 من القصيدة أخلص خلاصتها ويستخرج من البيت روحه
 الخفية لا في لطف ورفق وحسن تأتٍ كما كان يفعل ابو
 نواس حين قال :

ما زلت استل روح الدن في لطف

وأستقي دمه من جوف مجروح

حتى انثنت ولي روحان في جسدي

والدن منطرح جسماً بلا روح

بل في قسوة قاسية وعنف عنيف اشبه شيء بما تصنع
 الآلات القوية التي تهصر الاشياء هصرأً وتعصرها عصرأً
 وتستخرج خلاصتها في غير رفق ولا مهل ولا أناة . ثم هو
 لم يكتف بهذا الدرس العميق العنيف لشعر ابي

نواس البائس وانما صنع هذا الصنيع نفسه بفلسفة فرويد وبكثير
من الدراسات العلمية التي قام بها جماعة من العلماء بخصائص
الشعوب البدائية قديمها وحديثها ولكثير من الدراسات
الدينية بعضها يمس الديانات السماوية وبعضها يمس ديانات
اخرى قديمة وحديثة . ثم هو لم يكتف بهذا كله ولكنه
جمع ما استخلصه من كل هذه العصارات المختلفة ، عصارة
ابي نواس وعصارة فرويد وعصارات الدراسات المختلفة
لاجيال الناس وعاداتهم ودياناتهم فخلطها خلطاً ومخضها مخضاً
واستخرج منها كائناً قريباً عرضه علينا في كتابه هذا
وسماه ابا نواس . ومن حق الاستاذ ان نعرف له هذا
الجهد ونقدر له ما احتمل من مشقة وعناء ونسجل له
البراعة والمهارة والفتنة والذكاء ، ونحمد له آخر الامر انه
ليس من الذين يبيعون وقتهم في هذه الحياة الفارغة التي
لا تغني عنهم ولا عن غيرهم شيئاً وانما هو صاحب جد
متصل ونشاط خصب وعكوف دائم على الدرس والبحث
والانتاج ، واخلاص صادق في كل ما يحاول من ذلك
وحرص مؤكد على ان ينفع الناس بما يصل اليه من نتائج
البحث وما يخرج لهم من هذه الكتب التي يتبع بعضها
بعضاً والتي لا يمكن ان يوصف شيء منها بالعجلة او بقله
النضج . ولكن من حقنا نحن بعد ذلك ان نتحفظ اشد
التحفظ حين نريد الحكم على منهجه في الدرس الادبي لهذا
الشاعر الشقي العظيم ابي نواس . واول ما يدعونا اليه هذا

التحفظ هو ان ابا نواس شاعر قديم ودراسة الشعراء القدماء لا تحتل كل هذا التمهيد الذي حاوله الاستاذ لأننا لا نعرف من حقائق حياتهم الا اقلها وايسرها . ونحن ان سألنا التاريخ لم يكده ينبئنا من حياة ابي نواس بشيء ذي بال . انما هي اطراف حفظها الرواة . وعسى ان يكونوا قد اضافوا اليها من احاديث الناس ومن عند انفسهم ما ليس بينه وبينها سبب . فالشعراء النابهون يكثر عنهم حديث الناس وتخترع لهم الاساطير قبل ان يموتوا ثم تنمو هذه الاساطير بعد موتهم الى غير حد ، ولا سيما حين يكون هؤلاء الشعراء من اصحاب اللهو والعبث والمجون الذين يسرفون على انفسهم من ذلك كله في الفعل ، ثم يقولون اكثر مما يفعلون ، والذين وصفهم القرآن الكريم اصدق وصف واقومه في قول الله عز وجل « والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر انهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون » .

فاذا اردنا ان ندرس حياة هؤلاء الشعراء فالخير كل الخير ان نحتاط ونتحفظ ونتجنب الجزم الذي يحتاج الى استقصاء لا سبيل اليه . فكيف بالاستاذ الدكتور النويهي حين اراد ان يطبق نظريات فرويد على ابي نواس ، فزعم لنا انه ضاق بأمه لانها لم تفرغ له ولم تمنحه من حبها وعطفها وحنانها كل ما كان يريد لانها شغلت عنه بالقوت بعد أن مات ابوه وكسبت القوت بنفسها ولابنها من

وجه نقي أو وجه آثم اشد الاثم . وكان لهذا الحرمان الذي فرض على ابي نواس حين انصرفت عنه امه الى العمل اخطر الاثار في حياته ، فكره النساء جميعاً لانه كره امه وكره امه لانه اراد عندها اشياء لم يبلغها فأصابته هذه العقدة التي يسميها فرويد واصحابه عقدة اوديب . ثم لم يقف امر ابي نواس عند هذا الحد فيما يرى الاستاذ ولكن انصرفه عن النساء دفعه الى الوان آثمة بغيضة من الحب امعن فيها اشد الامعان واستهتر بها اعظم الاستهتار وقال فيها ما قال من شعره الكثير . ثم كان انصرفه عن امه وضيقه بها وامعانه في حبه الآثم ذاك مصدراً لهيامه بالخمر واستهتاره بمعاقبتها في غير تحفظ ولا احتياط وفي غير تأثم ايضاً . وكذلك يستقيم للأستاذ تفسير رائع خلاب لحياة ابي نواس وشعره على احدث المذاهب العلمية في التحليل النفسي . وهو مذهب لا عيب فيه الا انه متكلف من اصله لا يقوم على اساس متين من تاريخ ابي نواس او من شعره ، وانما يقوم على اساس من الفرض الذي عهد اليه المؤلف ليكون مبتكراً مجدداً اسرف على نفسه واسرف على ابي نواس واسرف على قرائه آخر الامر .

والعلماء المعاصرون لم يطمئنوا بعد كل الاطمئنان الى نظريات فرويد ولا الى ما نشأ عنها من فنون التحليل النفسي الذي اصبح بدعاً شائعاً في اوروبا وهام به الامريكيون هياماً شديداً فكيف وانا لست مطمئناً الى

ان اصحاب فرويد واصحاب التحليل النفسي يرضون عما
 صنع الاستاذ بنظرياتهم حين حاول ان يطبقها على شاعر
 قديم لم نكد نعلم من دقائق حياته الواقعة شيئاً ذا خطر .
 ويزيد امر ابي نواس تعقيداً حبه للخمر وتهالكه عليها
 وتفسير الاستاذ لهذا التهلك وذلك الحب . فقد اكثر ابو
 نواس من تشبيه الخمر بالعروس ومن تشبيه سعيه اليها بخطبة
 الحاطب ومن تشبيه ثمنها بالمهر ، فما ايسر ما رأى الاستاذ
 في هذا ان الشاعر قد احب الخمر حباً جنسياً ، وما اسرع
 ما الفى التشبيه والمجاز والاستعارة في شعر ابي نواس كله
 وجعل كل ما تصرف فيه من الوان القول واساليب البيان
 حقائق تصور حياته الواقعة تصويراً دقيقاً . وابو نواس يهيم
 بالخمر هياماً يوشك ان يكون عبادة فما اسرع ما يراه
 الاستاذ عبادة بالفعل . وكان ابو نواس كغيره من امثاله
 الشعراء يلتمس لذته في كثير من الاحيان في بعض الاديرة ،
 فوصف القسس والرهبان والبيع والاديرة في كثير من
 الثناء والتقريض ، فما اسرع ما يجد الاستاذ في هذا كلفاً
 ظاهراً او خفياً باشكال العبادة المسيحية عند ابي نواس .
 وقد احس ابو نواس الندم بين حين وحين فقال شعراً
 رائعاً في الزهد ، يصدق فيه مرةً ويتكلف فناً من فنون
 الشعر مرة اخرى ، فما اسرع ما يرى الاستاذ ان الشاعر
 كان مؤمناً اصدق الايمان واقواه . وكذلك يستوي للاستاذ
 من ابي نواس رجل فتن بأمه ثم قرف عنها حين فتن

يحببه ذاك الآثم ثم احب الخمر حتى رأى شرها ديناً ثم فتن
بها فتنة جنسية ثم كلف باشكل العبادة المسيحية ثم كاث
مع هذا كله مسلماً صادق الاسلام .

وامر ابي نواس ايسر من هذا جداً وا قوى من هذا
جداً واروع من هذا جداً لو درسه الاستاذ على انه شاعر
ممتاز من شعراء الحب والخمر والمجون ، ولو عني بادبه وفنه
وروعة شعره اكثر مما عني بشخصه الذي لا نعرف من
امره الا قليلاً . وشخص ابي نواس بعد ذلك كشخص من
سئت من الناس اقبل على الحياة فامتحن فيها بألوان الخير
والشر ، ثم صار الى الله كما يصير الناس كلهم الى الله يعذبهم
ان شاء ويتوب عليهم ان شاء . فما اكثر الذين يمكن ان
تطبق عليهم نظريات فرويد في كثير من الثقة والدقة
والفائدة ايضاً . فليعمد الاستاذ الى من حوله من المعاصرين
فيحلل نفوسهم كما يحب ويهوى . فأما ابو نواس وامثاله
الادباء فنحن في حاجة الى ان نتذوق ادبهم ونستسيغه
فنستمع بما فيه من روعة وجمال اكثر من حاجتنا الى
تحليل نفوسهم من غير علم بها ولا دليل عليها . واني لانصح
للاستاذ ان يعود الى ابي نواس فيدرسه درس الاديب
الناقد ويدع التحليل النفسي لاصحابه الهائمين به الغارقين
فيه .

بُؤْسُ أَبِي نُوَاسٍ



رحم الله ابا نواس وغفر له ، فلسنا نملك الا ان
نستنزل عليه رحمة الله في الآخرة بعد ان صبت عليه نقمة
الناس في الدنيا .

فما اعرف من شعرائنا القدماء من كثر القول فيه
واختلف الحكم عليه وذهب الناس في امره المذاهب مثل
ابي نواس .

أعجب به النقاد القدماء والمحدثون اشد الاعجاب ، وسخطوا
عليه اعظم السخط ، ورضي عنه النساك والفقهاء حيناً وضاقوا
به احياناً .

ولها بالحديث عنه خاصة الناس وعامتهم وذهبوا في اللهو
بجديته مذاهب الجد والهزل .

ثم لم يكفهم ذلك فاضافوا اليه من الاقوال والاعمال
ما لم يقل ولم يعمل . ثم لم يكفهم ذلك فاخترعوا له صورة
شعبية ليس بينها وبينه صلة ، واخترعت الخاصة له صورة
اخرى مثقفة متهذبة كانت شراً من الصورة الشعبية .

وقد اخترعت هذه الصورة المثقفة المتهذبة بعد موت
ابي نواس بوقت قصير وعسى ان تكون اخترعت في
حياته ، اخترعها المعجبون به والساخطون عليه . اولئك
غلوا فيه فحملوه ما لم يحمل وهؤلاء اسرفوا عليه فاضافوا
اليه من منكر القول والعمل ما لم يخطر له على بال .
ولست ادري ماذا كان يصنع ابو نواس لو اتيح له
ان ينشر بعد موته ويسمع او يقرأ ما يروى عنه وما
يحمل عليه وما يكتب فيه . والشيء المحقق هو انه لو
عاد الى هذه الدنيا ورأى الصور التي اخترعت له والاحاديث
التي تقال عنه لانكر نفسه اشد الانكار .

وقد صور الاستاذ العقاد شيئاً من ذلك في كتابه الذي
اصدره منذ ايام ثم لم يكفه ما صور من ذلك فاضاف هو
ايضاً صورة جديدة الى ابي نواس ما أرى انه يعرفها لو
اتيح له ان يظهر عليها .

وقد تحدثت في العام الماضي عن هذه العناية المتجددة
بأبي نواس في هذا العصر الذي نعيش فيه ، فعلت ذلك
تعليلاً مقارباً بما يمكن ان يكون من الشبه بين ما يجد
الناس بعد الثورة من الشعور بالتححرر والسخط على كثير

من التقاليد الموروثة .

فقد اصدر الاستاذ عبد الرحمن صدقي كتابين عن ابي نواس في اوقات متقاربة ، ثم اصدر الدكتور النويهي كتاباً عن ابي نواس في الصيف الماضي ، ونشر ديوان ابي نواس في الصيف الماضي في طبعة مصرية جديدة . وهذا الاستاذ العقاد يصدر عن ابي نواس هذا الكتاب الاخير .

واكبر الظن ان ابا نواس سيرى لنفسه صورة مقارنة فيما كتب عنه الاستاذ عبد الرحمن صدقي لانه ذهب في كتابته عنه مذهب القدماء فلم يتكثر عليه ولم يذهب في تصويره المذاهب وان كان قد جدد درسه وفهم شعره الى حد ما .

واكبر الظن كذلك ان ابا نواس سينكر بعض ما حمل عليه من شعر غيره في الطبعة المصرية الجديدة وما اكثر ما حمل عليه فيما مضى من الدهر .

ولكن الشيء الذي ليس فيه شك هو ان الحساب الذي سيكون بينه وبين الدكتور النويهي سيكون حساباً منكراً عسيراً ، وان الحساب الذي سيكون بينه وبين الاستاذ العقاد سيكون شاقاً ثقیلاً .

وما رأيك في ان الدكتور النويهي قد ذهب بأبي نواس مذاهب لم تخطر له ولا لاحد من الذين عاصروه أو جاءوا بعده ولم تخطر لاحد من الذين درسوه في العصر

الحديث ؟ فقد زعم ان نفسه قد ادركها ما يسميه
الباحثون المحدثون من اصحاب التحليل النفسي عقدة
أوديب ، فاحب امه وكلف بها كلفاً بلغ الهيام
وحيل بينه وبين غايات هذا الحب ، فأدركه ما ادركه
من هذه العلة التي افسدت عليه امره كله وحولته عن
الجمادة الى الطريق الملتوية في الحب .

ثم لم يقف عند ذلك بل ذهب في وصفه للخمر وغلوه
في هذا الوصف مذهباً ليس اقل التواء من مذهبه الاول .
فزعم انه قد عبد الخمر واتخذ عبادة الخمر ديناً وافتن في
ذلك كله افتناناً فيه طرافة وروعة ، ولكنه لا يمس
الشاعر البائس من قريب ولا بعيد .

وتبعة هذا الاسراف الذي كلف صاحبه من المشقة
والجهد شيئاً عظيماً لا يحملها أبو نواس لانه لم يقارف من
هذه الآثام التي حملت عليه قليلاً او كثيراً .

ولا يحملها شعر ابي نواس لانه لم يصور من هذه
الآفات التي اضيفت اليه شيئاً . وانما تحمل هذه التبعة على
علماء التحليل النفسي الذين استكشفوا علمهم هذا الجديد
فاغروا به المتقنين له الذين يتحفظون فيه ويجورون به عن
القصد احياناً ثم يغرون به القادرين عليه والعاجزين عنه
فيضلون به كثيراً من الناس .

ويحمل هذه التبعة الدكتور النوبي نفسه لانه التوى
بقراءة الشعر عن الطريق السواء ففهمه على غير وجهه

وحمل عليه من الاثقال ما لا يطيق واضاع روعته وجماله
واذهب بهجته ورواه وجعله شبه بما يعرض للمحموم من
الهذيان .

وانت تستطيع ان تقرأ شعر أبي نواس ما صح له منه
وما اخترع عليه فلن تجد فيه ما يشير الى هاتين الآفتين
من قريب أو بعيد . وانما هو شعر كشعر الذين عاصروا
أبا نواس قد طرق الموضوعات التي طرقتها وذهب
المذاهب التي ذهبوها وامتاز بما اتيج له من هذه الخصال
الفنية التي اسبغتها عليه شخصية ابي نواس ونبوغه الفني لا
اكثر من ذلك ولا اقل .

ومن ايسر الاشياء ان يذهب الباحث بشعر بشار
ومطيع وحمد عجرد والخليع وغيرهم من الذين عاصروا أبا
نواس أو جاءوا بعده مذهب الدكتور النويهي فينتهي بهم
جميعاً الى انهم قد ادركتهم عقدة أوديب ، هذه التي
ابتكرها علماء التحليل النفسي في هذا العصر الحديث ،
فكانوا جميعاً يحبون امهاتهم ويكلفون بهن ثم لا يبلغون
بحبهم غايته فيدفعون الى ما دفعوا اليه من الانحراف
والشدوذ .

وكل هؤلاء قد وصفوا الخمر وغلوا في وصفها وقالوا
فيها ما لم يسبقوا اليه ، فجائز ان يقال فيهم مثل ما قال
الدكتور النويهي في ابي نواس انهم عبدوا الخمر واتخذوا
عبادتها ديناً . والاسراف في هذا كله واضح اشدّ الوضوح .

ولست ادري ماذا كان يصنع علماء التحليل النفسي لو ان اليونان لم يلقوا اليهم بأسطورة اوديب هذا الذي خدعته الاقدار فاتخذ امه له زوجاً ، ثم عاقب نفسه وعاقبت امه نفسها ذلك العقاب المعروف ؟

بل لست ادري ماذا كان يصنع علماء التحليل النفسي لو ان الشاعر اليوناني سوفوكليس لم ينشئ قصته تلك التي ازدهم عليها الشعراء من بعده على اختلاف العصور والشعوب فانشأوا ما انشأوا من القصص الكثيرة التي تختلف براعة وروعة وجمالاً ؟

اكانوا يهتدون الى هذه الآفة ويزعمون انها آفة شائعة يتمتع بها كثير من الناس ؟

واغرب ما في هذا الامر ان قصة اوديب هذه اسطورة لا بحقيقتها تاريخ ولا يهتدي اليها بحث . وعسى الا يكون لها اصل من واقع الحياة اليونانية القديمة . ولكن للفن اعاجيبه وللعلم اعاجيبه ايضاً .

وما اريد ان أجادل علماء التحليل النفسي في شيء من امرهم ، فلست املك وسائل هذا الجدل ولا اقدر عليها ولا احب ان اقيم نفسي فيما ليس لي به علم .

ولكن الشيء الذي استطيع ان اقطع به هو ان الادباء الذين يقيمون انفسهم على هذا العلم دون تعمق له أو تخصص فيه يسرفون على انفسهم ويجنون على الادب والفن وعلى الناس ايضاً سيئات لا تكاد تحصى .

ذلك ان العلماء لهم مذاهبهم في البحث يخطئون فيها
ويصيبون . وهم يعتمدون في بحثهم على التجارب فتستقيم
لهم حيناً وتخطئهم أحياناً .

أما الادباء فيذهبون في ذلك مذهب التقليد والمحاكاة
لا مذهب الاستكشاف والاجتهاد . وما اعرف شيئاً لا
يصلح فيه التقليد عن غير خبرة ولا فقه كالعلم .

واذا كان من العسير على الادباء ان يجرؤوا آراءهم هذه
التقليدية على الاحياء الذين يرونهم ويستطيعون ان يقولوا
لهم ويسمعوا منهم ويراقبوه من قرب أو من بعد لانهم
لا يملكون اداة هذا البحث ولا يحسنون التصرف بها ان
اتيحت لهم فكيف بهم حين يجرؤون هذه الآراء على الموتى
الذين بعد بهم العهد ولم يبق لنا منهم الا الاحاديث ؟

وكم يكون طريفاً ان يعتمد المقلدون لاصحاب التحليل
النفسي الى التراث الادبي والفني العربي والانساني بمثل
هذا التحليل ، اذن لا تكون احاديثهم إلا الواناً من
الاعاجيب التي لا تنقضي ولا يستطيع العقل ان يحيط بها .

فكيف كان سقراط ؟ وكيف كان ارسططاليس ؟ وكيف
كان افلاطون ؟ وأي آفة من هذه الافات الكثيرة التي
يستكشفها المحللون النفسيون انتجت فلسفة هؤلاء الفلاسفة
وغيرهم من قدماء الفلاسفة ومحدثيهم ؟

لماذا تحدى سقراط الموت وتحدى معه الاتينيين ؟
ووقف موقفه ذاك الرائع الذي يصوره لنا افلاطون ابرع

تصوير واجمله ؟

ولماذا ذهب افلاطون في ابواب الفلسفة هذه المذاهب
الرائعة التي التقت فيها الفلسفة العليا والشعر الذي بلغ
اقصى ما يمكن ان يبلغ من الجمال ؟

ولماذا امعن ارسططاليس في فلسفته تلك الحصة المفضلة
التي عاشت عليها الانسانية العاقلة ولم تفرغ بعد من
الانتفاع بها ؟

وما الذي دفع مسلم بن الوليد الى العناية باللفظ
والانحراف عما الف الشعراء ... ؟

واي آفة نفسية دفعت ابا تمام الى الانحراف عن عمود
الشعر كما كان الاقدمون يقولون والاسراف في هذه
الاستعارات الغريبة والمعاني الدقيقة ؟

ولماذا اسرف المتنبي على نفسه في الثورة الجاحجة شاباً ،
وفي السخط على الحياة والاحياء بعد ذلك ، وفي الحرص على
الحياة ومنافعها آخر الامر ؟

ولماذا تشاءم ابو العلاء وسار هذه السيرة التي لم يسبقه
اليها احد من المسلمين ، ونظم هذا الشعر الذي لم يشاركه
فيه شاعر وفيلسوف ؟

على ان امر ابي العلاء هين ، فقد فسر بعض مؤرخي
الاداب العربية في اول هذا القرن تفسيراً لا يخلو من
فكاهة ، فزعم ان تشاؤم ابي العلاء لم يأت من علة نفسية
ولا من عقدة من هذه العقدة التي استكشفها فرويد وأصحابه

لان امرها لم يكن قد وصل اليها بعد .
وانما جاء تشاؤمه من علة في المعدة هي عسر الهضم
وجاءه عسر الهضم من التزامه أكل العدس دهرآ طويلاً ،
فافسد هذا كله عليه رأيه في الحياة والاحياء واتاح لنا
فلسفته الخالدة الرائعة .

وكذلك فتن ذلك المؤرخ الحديث للاداب بالتفسير
الطبي لتشاؤم ابي العلاء ، كما فتن استاذنا الشاب الدكتور
النويهي بالتحليل النفسي في تفسير المجنون لابي نواس .
أما كتاب الاستاذ العقاد فالامر فيه مختلف أشد
الاختلاف ، فهو قبل كل شيء لم يتكلف من الشطط ما
تكلف الدكتور النويهي ، ولم يكسب ينأى عن مذهب
بعينه من مذاهب الدرس الادبي وهو التماس الشاعر في
شعره .

ثم هو لم يحمل على ابي نواس من الغرائب والاعاجيب
ما لا يستطيع ابو نواس ان يحتمل .
فالمذهب الذي ذهب اليه الاستاذ العقاد في كتابه قديم
جديد في وقت واحد .

كان القدماء يسمونه الاعتداد بالنفس وما زال المحدثون
يسمونه كذلك ايضاً ، ثم اخذ بعض الأدباء الاوروبيين
يسمونه النرجسية .

ذهبوا في ذلك مذهب التجديد والاغراب .. ذكروا
قصة النرجس في الاسطورة اليونانية القديمة فاستعاروها

للمعجبين بأنفسهم من الكتاب والشعراء .
وفي الوقت نفسه ذهب علماء التحليل النفسي هذا المذهب
فاستعاروا من قصة النرجس تلك تسميتهم الاعتداد بالنفس
والاسراف في الاعجاب بها حتى يبلغ هذا الاسراف ان
يكون مرضاً .

واذا صدقتني الذاكرة فقد كان اندريه جيد يذكر
النرجسية في بعض رسائله منذ أواخر القرن الماضي . ولعل
بعض الشباب من اصدقائه الادباء في ذلك الوقت قد
وصفوه بها لانه كان في كتبه الاولى مشغولاً بنفسه لا
يكاد يتحدث الا عنها .

وقد ذكر الاستاذ العقاد النرجسية بالقياس الى أوسكار
وايلد . وهو من اصحاب اندريه جيد في شبابه أيضاً .
فالادباء الاوروبيون قد ذكروا النرجسية واكثروا من
ذكرها منذ اواخر القرن الماضي وما زالوا يذكرونها
الى الآن .

فالاستاذ العقاد اذن لم يبعد عن مذاهب الادباء في
حديث النرجسية ، ولكنه غلا فيما اعتقد غلواً شديداً في
تعمقها على مذهب المحللين النفسيين .

فذكر من مذاهبهم وتجاربهم فنوناً توشك ان تلحق
كتابه بكتب العلماء ، لولا انه ليس له معمل ولا مستشفى
يجري فيها التجارب كما يجريها العلماء ، وليس امامه مرضى
أحياء يجري عليهم هذه التجارب كما يجريها العلماء .

فهو ينقل لنا علمهم نقلاً ولا يشاركهم فيه مشاركة
صحيحة ولا يجتهد فيه اجتهادهم ولا يستطيع ان يبني
مذهبه على مثل ما يبنون عليه مذاهبهم من التجربة والاستقراء.
وانما هو يقرأهم ويفهمهم وينبئنا باحاديثهم ويقربها لنا
تقريباً لا يخلو من المشقة والعنف ، وإن كان هو قد الف
ان يشق على نفسه ويعنف بها في البحث وفي النقل ايضاً .
ثم هو يسرف على نفسه وعلى ابي نواس حين يجري
احكام النرجسية على الشاعر القديم ، كما يجريها المحللون
النفسيون على من يفحصونهم من الاحياء .

والذين قرأوا كتاب الاستاذ العقاد قد وجدوا فيه
تفصيلاً كثيراً عسيراً لامر الغدد وتأثيرها في الحياة النفسية
للناس حين تختلف وحين تأتلف وحين تلتئم وحين يجور
بعضها على بعض .

وهذا كله كلام له قيمته وخطره حين يؤخذ المريض
فيفحص فحصاً طبياً دقيقاً ، وتجري على غدده التجارب
المختلفة ويمتحن تأثير هذه الغدد في مزاجه حين يسكن
وحين ينشط وحين يعمل وحين يقول .

فأما ذلك البائس المسكين أبو نواس الذي لم يبق لنا
منه الا شعره وفيه كثير مما حمل عليه ، والا احاديثه
وفيها كثير مما اخترع وليس له اصل ، فالاستاذ لا يعرف
من جسمه الا ما نقلته الكتب من هذه الأوصاف العامة
الغامضة التي لا تكاد تحقق منه شيئاً .

وهو لم يمتحن غدد أبي نواس ولا سبيل له إلى أن
يتمتحنها لأنها ذهبت فيما ذهب من شخصه . فاجراء الرأي
فيه على مذهب المحللين النفسيين لا يخلو من شطط لأننا لا
نستطيع أن نحلل من أبي نواس إلا كلامه وكلام الناس
عنه .

وفرق بين تحليل الغدد والاعظام كلها وبين تحليل
الكلام الذي قاله الشاعر والكلام الذي قاله الرواة .
فتحليل الغدد والاعظام قد يصل بنا إلى بعض الحق ،
فاما تحليل الكلام فهو ينتهي بنا إلى الظن وقد ينتهي بنا
إلى الترجيع .

ولست أدري أيقع كلام الأستاذ العقاد على الشخص
الحق لأبي نواس أم يقع على شخصه الذي اخترعته الخاصة
له في أثناء حياته والذي نما وعظم أمره بعد موته ؟
أم يقع على هذه الاشخاص الوهمية التي شاعت له في
كثير من البيئات الشعبية على اختلاف العصور وعلى اختلاف
البلاد والاطوان ايضاً ؟

وقد قرأ الأستاذ العقاد كتاب ابن منظور وكتاب
ابن هفان ، وقرأ اخبار أبي نواس في كتب الادب على
اختلافها ، وهو من غير شك يقطع مثلي بأن لأبي نواس
في هذه الكتب على اختلافها شخصين متباينين .

احدهما شخص قال هذا الشعر الذي نستطيع مع بعض
الجهد ان نستخلصه ونحققه ، والذي يصور اسرافاً في

المجون واغراقاً في العبث كما يصور اغراقاً في الجد ايضاً ،
وفي مذاهب الجد على اختلافها في المدح والوصف والثناء
والزهد والصيد ، ونحن نستطيع ان نعتمد على هذا الشعر
في استخلاص شخص ابي نواس منه على نحو مقارب ، لا
بقراءة البيت او البيتين .. بل بقراءة الشعر كله او ما
يصل اليها منه .

وقد فعل الاستاذ العقاد هذا ما في ذلك شك .
وقد فعلته انا ايضاً . ولكنه ينتهي الى ان ابا نواس
قد غلا في الاعتداد بنفسه حتى لم ير غيرها أو لم يكدر يرى
غيرها ، ففتن بنفسه كما فتن النرجس بصورته في الاسطورة
القديمة .

ورأيت انا أن ابا نواس لم يعتد بنفسه اكثر مما اعتد
شعراء كثيرون في أمم كثيرة بأنفسهم .
فصاحب الفن معتدّ بنفسه دائماً الى حد ما .
واعتداده بنفسه هذا شرط اساسي للتجويد الفني ، لأنه
لو لم يعتدّ بنفسه وفنه لم يحفل بالشعر ولم يتأنق فيه ولم
يحسن الحكم عليه .

ولست اعرف شاعراً خليقاً باسم الشاعر الا واه في
نفسه رأي يخالف رأي غيره فيه .

والاستاذ العقاد نفسه شاعر وما اظنه الا قد عرف من
نفسه شيئاً من هذا الاعتداد ، فلولا رضاه عن شعره لما
نشره ولا عرضه على الناس ليقراوه فيعجبوا بروعته ويحمدوا

قائله وينتفعوا بما فيه من حكمة وفن .

ولأمر ما تفاخر الشعراء واستبقوا في الشعر ورضي بعضهم عن بعض وسخط بعضهم على بعض . وما اعرف شاعراً الا وله من نفسه مرآة ينظر فيها فيطيل النظر قبل ان يظهر للناس ، وهو لا يظهر لهم الا بعد ان يرضى عما تعكس عليه هذه المرآة .

وقد كان اعتداد بشار بن نفسه اكثر جداً من اعتداد ابي نواس .

فاذا كان أبو نواس نرجسياً فلست ادري ماذا يكون بشار ؟

اما المتنبي فقد تجاوز في الاعتداد بنفسه الحد الذي وقفت عنده كثرة الشعراء ، وهو الذي يقول في اول شبابه وآخر صباه ، اي في الوقت الذي تظهر فيه النرجسية وتؤتي اول ثمرها :

ايّ مكان أرتقي ! ايّ عظيم اتقي !
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفريقي
وهو الذي يقول حين شارف الحسین :

انا الذي نظر الأعمى الى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم
انام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الحلق جراها ويختصم

وهو الذي يقول في القصيدة نفسها :
الحيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
وما اعرف ان ابا نواس او بشاراً او مسلماً او ابا
تمام قالوا شيئاً يقرب من هذا .
وكان ابو العلاء في شبابه معتداً بنفسه ان صح هذا
المذهب حين يقول :

واني وان كنت الاخير زمانه
لأت بما لم تستطعه الاوائل
وما اعرف ان ابا العلاء نسي نفسه قط ، فقد كان
يذكرها دائماً بآفته تلك في اول عهده ، وبأدبه وفلسفته
حين تقدمت به السن .

وما اظن ان ابا العلاء كان نرجسياً او مسرفاً في
الاعتداد بنفسه ، فالنظرية في نفسها لا تستقيم حين تجري
على من سبقنا بهم الموت وعلى الشعراء خاصة .
ففي كل شاعر نصيب من الغرور ، وتجويد الكلام نفسه
يفري الشعراء باظهار هذا الاعتداد ، لا لانه من حقائق
نفوسهم دائماً ، بل لان الكلام يواتيهم فلا يقدرّون على
دفعه .

ويخيل اليّ ان الاستاذ يسرف ايضاً في امر النسب
وتأثيره في نرجسية ابي نواس ان كان ابو نواس نرجسياً .
فشعراء الموالي كلهم كانوا يهتمون للنسب ويكثرّون

القول فيه ، وقد سخر ابو نواس بالنسب والنسابين في
هذين البيتين اللذين اهلها الاستاذ العقاد ، واللذين يقولهما
للنسابة المعاصر له وهو الكلبي :

ابا منذر ما بال انساب مذحج
مغلقة دوني وانت صديقي

فان تعزني يأتك ثنائي ومدحتي
وان ناب لا يسدد علي طريقي

فالرجل الذي يعبت بالنسب والنسابين الى هذا الحد
لا يحفل في حقيقة الامر بأن يكون نسبه في العرب او
في العجم وفي عدنان او في قحطان ، وكان ابو نواس
شعوبياً كما كانت كثرة الموالي في عصره وقبل عصره ومنذ
العهد الاول لبني امية . والاستاذ العقاد يعرف من هذا
مثل ما اعرف . يعرف من امر ابي العباس الاعمى
واسماعيل بن يسار ، ويعرف من امر الفقراء والمحدثين
من الموالي ما يصور اغراقهم في التنكر للعرب والسخط
عليهم .

هذا كله هو الشخص الحق لابي نواس .. فاما
الشخص الآخر فهو شخص اخترع كما قلت في حياة ابي
نواس نفسه ، ونرى له في كتاب ابي هفان صوراً لا
تخلو من جمال وفيها قبج كثير ايضاً .

فقد اتخذ ابو نواس رمزاً للاستهتار والازدراء بكل
شيء واهدار كل قيمة ، وجعل الذين يريدون ان يعربوا

عن ذات انفسهم وعمما في صدورهم من هذا الازدراء يقولون
ما يخطر لهم ثم يضيفونه الى هذا الشخص الرمزي الذي
سموه ابا نواس ، وليس ابو نواس بدءاً في هذا .. فمن
قبله اتخذ سقراط رمزاً للاغراق في الفلسفة حتى تبلغ السخف
كما صوره ارسطوفان في قصة السحاب ، حتى ذهب بعض
المحدثين الى ان سقراط لم يكن الا رمزاً . هزل به
اصحاب الهزل وجدّ به اصحاب الجد .

وما من شك في ان التحليل النفسي لسقراط هذا
الرمزي ينتج لنا الاعاجيب ، كما ان التحليل النفسي لأبي
نواس الرمزي ينتج لنا كثيراً من الاعاجيب . وقد انتج
لنا النرجسية في كتاب الاستاذ العقاد ، وانتج لنا في
العام الماضي ذلك الرجل الذي أصابته عقدة اوديب .
ومن يدري لعله ينتج لنا فنوناً من الاعاجيب اذا
مضينا في اجراء التحليل النفسي عليه .

وبعد ، فاني احمد للاستاذ العقاد تصريحه بانه لم يرد
الى النقد الادبي بكتابة هذا ، ولا الى الدراسة الفنية
لهذا الشاعر العظيم المظلوم .

ولعله ان يفرغ لهذه الدراسة الفنية في كتاب جديد ،
وما اشك في انه ان فعل فسيمتعنا امتاعاً ألفناه منه دائماً .

جَدُّ أَبِي نُوَّاسٍ



كنت اكتب عن ابي نواس منذ اكثر من ربع قرن ،
فضاق كثير من المحافظين بما كنت اكتب عنه وعن
اصحابه وبما كنت اصور من حياتهم تلك التي اسرفوا بها
على انفسهم وعلى الناس ، لكثرة ما امعنوا فيه من العبث
واللهو ومن الدعابة والفكاهة ومن الاستهتار بالالام
والمجون .

ضاقوا بذلك واشفقوا منه على اخلاق الشباب في ذلك
الوقت ، وظنوه جديراً ان يغري الشباب بالخلاعة ويمنح
بهم الى ما يفسد المروءة ، ويفل الحذر ، ويصرف عن الجد
والعمل والارتقاع عن الصغائر والعناية بالمهم من الامر ،
حتى اضطررت في تلك الايام البعيدة الى ان ابين لاولئك

المحافظين ان ابا نواس على لهوه وعبثه ومجونه كان رجلاً عظيم الخطر في عصره الذي عاش فيه يسمع لاصحاب الجدد من العلماء ويروي عنه اصحاب الجدد من العلماء ايضاً . فقد اختلف الى رجال الحديث فسمع منهم ما شاء الله ان يسمع ، واختلف اليه رجال الحديث فسمعوا منه ما شاء الله ان يسمعوا كذلك . وكان الشافعي رحمه الله احد الذين لقوه من هؤلاء ورووا عنه الحديث كما رووا عنه الشعر . واختلف ابو نواس الى الفقهاء فسمع منهم وقال لهم ، وجالس اصحاب الكلام ، وشاركهم في علمهم بالالهيات ومقالاتهم في اصول الدين ، وكان بينه وبين المعتزلة وابي اسحاق النظام منهم خاصة خصومات وخطوب . ثم جلس الى علماء اللغة ورواة الشعر ونظر في النحو فاحسن النظر واكثر الرواية للقدماء . واثر هذا كله في فنه الشعري حتى قال كثير من ائمة اللغة : لولا اغراق ابي نواس في المجون واستهتاره بالاثم لاستشهدنا بشعره على صحة اللغة والنحو جميعاً ، ثم هو بعد ذلك قد اتصل برجال السياسة على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم فلقي الخلفاء والامراء من العباسيين واشتد اتصاله بالرشيدي والامين منهم خاصة ولقي الوزراء والكتاب ورجال القصر على اختلافهم .

وعرف هذه الطبقات كلها من الناس وظفر عندها بالاكبار والاجلال كما تعرض عندها لشيء من السخط غير قليل . فقد كره البرامكة وكرهه البرامكة ونال جوائز الرشيد وذاق سجنه ونادم الامين وذاق سجنه

كذلك ، ورحل بشعره الى امراء الأقاليم في شرق الدولة وغربها فمدح امراء العراق ومدح اميراً من امراء مصر ، فلم يكن اذن بالرجل الذي فرغ للاثم والمجون والعبث بل لم يستغرق الاثم والمجون والعبث اكثر وقته ، وانما كان للجد من حياته نصيب أي نصيب .

ولكن الناس في عصره وفي العصور التي جاءت بعد عصره شغفوا بعبثه اكثر مما شغفوا بجمده وصرامته . وليس كل الناس كالشافعي رحمه الله يلقي ابا نواس فيأخذ منه خير جده ويعرض عما اسرف فيه على نفسه وعلى الناس . والناس ابدأ شغوفون بما يسرهم ويلهمهم ، معنيون بما يفكهم ويسري عنهم ، مدفوعون الى الاغراق في ذلك والتزيد منه والاضافة اليه والمبالغة والاسراف فيما يضيفون ، فهم قد تكثرُوا على ابي نواس فحملوه من الكلام ما لم يقل وحملوه من الاعمال ما لم يعمل ، واخترعوا أشياء يكفي أن ننظر فيها لنسخر منها ثم نقف عندها بعد ذلك ، لا لانها تصور لنا ابا نواس ، بل لانها تصور لنا ناحية من نواحي النفس الانسانية وهي ناحية الاغراق والغلو واتخاذ الاحاديث المختوعة وسيلة لا الى التسلية والتسرية فحسب بل الى ما هو ابعد مدى من التسرية والتسلية ، الى شيء من التعبير عن ذات الانفس والتستر بالاسماء المعروفة عما يضطرب فيها من الخواطر والمعاني والعواطف التي يتخرج الانسان من ان يجهر بها أو يضيفها الى نفسه .

فكثير من الناس تمنوا فيما بينهم وبين انفسهم الواناً
من الاثم وفنوناً من اللهو لم يتح لهم ان يقارفوها ، ولكن
نفوسهم تعلقت بها وغلت في مداعبتها فسروا عنها بهذه
الاحاديث التي اخترعوها من عند انفسهم و اضافوها الى ابي
نواس ، وغيره من معاصريه اولئك الما جنين العابثين .

وانظر الى ما رواه بعض الرواة عن ابي نواس حين
وفد على الحبيب في مصر ، فقد زعموا فيما زعموا انه
احب فتى من فتيان القبط ، والتمس عنده الرضى فاشتروط
عليه ذلك الفتى ان يتنصر ، ففعل وشارك النصارى في
عباداتهم وحفلاتهم ، وكرهه من اجل ذلك المتشددون في
الدين من اهل مصر فلم يجبه بعضهم وتعرض لهجائه .

وهذا سخف من السخف ما في ذلك شك . فلم يأت ابو
نواس الى مصر تاجراً ولا عابثاً ولا مبتغياً للذة السياحة ،
وانما وفد على امير من امرائها ليمدحه ويأخذ جوائزه ،
وكان ضيفاً عند هذا الامير ، فلو قد انحرف عن الدين هذا
الانحراف الخطير وخرج منه ليدخل في دين آخر لما وجد
الامير بداً من ان يجري فيه حكم الاسلام ويعاقبه عقوبة
من كفر بعد ايمان .

ولكن ابا نواس قال كثيراً من الشعر العابث الما جن
حين كان بمصر كما كان يقول ذلك حين كان ببغداد او
بالبصرة او بغيرها من مدن العراق والحجاز فتكثرت بعض
حاسديه ورووا عنه هذا الاثم العظيم ، واكبر الظن ان

الحسد هو الذي حملهم على رواية ما رووا ، وان ابا نواس
ظفر عند الحصيب بما لم يظفروا به ، ونال منه ما لم يطمعوا
فيه فضاقوا بمكانه ، وقالوا فيه ما قالوا . وما اكثر ما سعى
الوشاة بأبي نواس عند الرشيد والامين وعند وزرائها
واتهموه بالزندقة فلم يبلغوا بما ارادوا شيئاً لانهم لم يستطيعوا
ان يقيموا البينة على ما زعموا ، ولان الرشيد والامين كانا
لا يتشددان في طلب الزنادقة واخذ الناس بالشبهات
كما فعل المهدي فأراق كثيراً من الدماء بغير حقها .

كان الحديث عن ابي نواس اذن في رأى المحافظين منذ
ربع قرن او اكثر من ربع قرن خطراً على الاخلاق
يخشى منه على الشباب ان يتورطوا فيما لا ينبغي ان يتورطوا
فيه : فاما الآن فقد تعقد امر ابي نواس تعقداً شديداً حقاً .
ففيه او في الحديث عنه خطر على الاخلاق عند بعض الذين
لا يهتمون بالمحافظة ولا يحبون ان يتهموا بها ، بل
يكرهون ذلك اشد الكره وينفرون منه اعظم النفور لان
حياتهم العقلية والادبية كلها تأباه اباء شديداً .

فالاستاذ سلامة موسى مثلاً ليس محافظاً ولم يعرف
بالمحافظة في يوم من الايام ، وانما كان في طليعة المجددين ،
ولقي كثيراً من العنت في سبيل هذا التجديد ، وهو مع
ذلك يشفق من ابي نواس على اخلاق الشباب وعقولهم
لانه فيما يرى الاستاذ سلامة موسى قد استنفذ شعره في
المجون وفي هذا المجون المنحرف عما يلائم الطبيعة وما الف

الناس من امورها . ثم يحاول الاستاذ ان يعلل شذوذ
ابي نواس هذا فيرده الى الانفصال في عصره بين الرجل
والمرأة . وواضح ان ايسر ما يقال في هذا الرأي ان صاحبه
لم يقرأ شعر أبي نواس لان ابا نواس لم يستنفد شعره
في المجون ، وانما قال في فنون الجداكثر مما قال في
فنون الهزل ، كما لاحظ الاستاذ العقاد ذلك منذ ايام ،
لانّه قرأ شعر ابي نواس قراءة المستوعب المستقصي ،
فلأبي نواس في الزهد شعر حسده عليه ابو العتاهية وغيره
من اصحاب الزهد ، ولأبي نواس في الصيد شعر ما احسب
ان احداً من الشعراء سبقه اليه ولحقه فيه ، ولأبي
نواس بعد ذلك شعره في المدح وشعره في الوصف
وشعره في الغزل النقيّ الملائم للطبيعة ومما الف
الناس من امرها ، وله كذلك شعره في الهجاء الذي لا
اثم فيه ولا انحراف ، وأبو نواس يشارك القدماء والمعاصرين
له والذين جاءوا بعده في وصف الخمر والمضي في التغي بها
الى ابعد الحدود .

وكل هذه الفنون من جد ابي نواس ودعابته ليست
خطراً على الشباب لا تفسد اخلاقهم ولا عقولهم ، وليس
يكفي ان يقرأ الشاب وصف الخمر ليفتن بها او يعكف
عليها ، وما اكثر الذين يعكفون على الخمر وهم يجهلون قول
ابي نواس وغيره فيها من الشعراء اشد الجهل وابعد
مدى . ولعلمهم لا يحفظون فيها بيتاً واحداً قديماً او

حديثاً شرقياً او غربياً . والناس يقرأون الغزل منذ كانت
الغزل ، فلا يدفعهم ذلك الى الهيام بالحب او الفتون
بالنساء . والناس يقرأون المدح فلا يتكلفون ان يمدحوا ،
ويقرأون الهجاء فلا يتكلفون ان يهجووا ، ويقرأون الزهد فلا
يزهدون ، وما اكثر ما قرأ الناس القرآن وسمعوه فلم يصبحوا
نساكاً ولم يخلصوا نفوسهم للدين ، وما اكثر ما قرأ
المسيحيون الانجيل فلم يصبحوا قسيسين ولا رهباناً .

والناس يتغنون بشعر الصوفية من المسلمين والمسيحيين ،
ويستمعون بهذا الشعر دون أن يتصوفوا او يجردوا انفسهم
من الحياة المادية واثقالها واوضارها ..

وأخرى لم يوفق فيها الاستاذ سلامة موسى وهي تفسيره
شدود ابي نواس بما يسميه بالانفصال بين الجنسين . فلم
يكن ابو نواس شاذاً في عصره منفرداً بهذا الشذوذ ،
وانما كان واحداً من كثيرين لا يبلغهم الاحصاء في القرن
الثاني والثالث على اقل تقدير ولم يكن الانفصال بين
الجنسين من الخطورة بحيث يظن الاستاذ في ذلك العصر ،
فما كان ايسر اللقاء بينهما في ظروف الجد والهزل جميعاً .
واذا كان الحرائر في ذلك الوقت او بعض الحرائر يتشددن
في الحجاب او يشدد عليهن فيه ، فقد كانت هناك اجيال
من الاماء وانصاف الحرائر لا يرين في لقاء الرجال حرجاً
ولا يلقين فيه جناحاً .

وربما كان هذا الشذوذ ظاهرة من ظواهر تلك الحضارة

المختلطة التي التقى فيها العرب باجيال من الناس لم يكن لهم بهم عهد فيما مضى من ايامهم والذي تحررت فيه الامم المغلوبة من السلطان العربي الخالص وظفرت فيه بالمساواة في الحقوق السياسية والاجتماعية فاسكرها الظفر وابطرها ما اتيج لها من الحرية ، وابطر الاغنياء والمترفين خاصة ما اتيج لهم من الترف والنعيم فتجاوزوا كثيراً من الحدود التي لم يكونوا يستطيعون ان يتجاوزوها جبهة حين كان السلطان عربياً خالصاً . وليس أدلّ على ذلك من انك تقرأ شعر الفحول من شعراء العرب ايام بني امية فلا تراهم يجهرون بوصف الخمر ويتجاوزون الحدود في ذكرها لانستثني منهم الا الشعراء الذين لم يتخذوا الاسلام ديناً والذين لم يعرض لهم المسلمون فيما كان دينهم يبيح لهم من شرب الخمر ووصفها . فالاخلط مثلاً يشرب الخمر ويصفها وينشد وصفها بين يدي الخلفاء والامراء لا يتخرج من ذلك ولا يرى الخلفاء والامراء عليه بأساً فيه لانه كان مسيحياً ، تبيح له مسيحيتته ان يشرب الخمر ويصفها .

فاما الفرزدق وجريروا مثلهما فما اشك في انهم كانوا يشربون الخمر سراً حين يتاح لهم شربها . فاما وصفها والافراط فيه والجهر به فشيء لم يكن يرخص لهم به . وهذا الشذوذ الذي نلاحظه عند ابي نواس واصحابه من الشعراء والكتاب ومن الوزراء وبعض رجال السياسة لم يظهر إلا بعد هذه الثورة التي حررت الامم المغلوبة وسوت بينها وبين العرب

في الحقوق السياسية والاجتماعية . فاما قبل ذلك فلا اعرف
ان شاعراً عربياً جاهلياً او اسلامياً انحرف عما الف الناس
في سيرته او قوله ، ولا نعرف ان خليفة او اميراً او رجلاً
من رجال السياسة والحكم تورط في شيء من هذا الاثم
او دفع اليه .. هي اذن آفة طرأت بعد الثورة العباسية
لا قبلها . وقد بدأت دلائل الاستهتار بشرب الخمر ووصفها
تظهر في اواخر العصر الاموي حين استهتر الوليد بن يزيد
اثناء ولايته للعهد واثناء خلافته القصيرة باللهو وجهر
بالجون ، وتغنى بذلك في شعره خارجاً عما الف بنو امية
وعما الف العرب من الجد والوقار . وقد أدى الوليد ثمن
هذا الاستهتار وكان دمه هو هذا الثمن .

فاما الشذوذ الذي نراه عند ابي نواس ومعاصريه فلم
يظهر ولم يجهر به احد الا بعد ان قامت دولة بني العباس
وتغلب العنصر الاجنبي على كثير من امور السلطان .
وظاهرة اخرى ليس من ملاحظتها بد وهي ان
الشعراء الذين استهتروا بالجون واللهو وجهروا بالخلاعة
والاثم كانوا جميعاً من غير العرب . كانوا من الفرس او
من اشباه الفرس ، من اولئك الموالي الذين اتقنوا اللغة
العربية وبرعوا فيها وتفوقوا في فنون الادب العربي على
العرب انفسهم . ولم يكونوا سكارى بهذا الظفر الذي
اتيح لهم حين سوّى بينهم وبين العرب فحسب ، بل كانوا
سكارى بتفوقهم على العرب في اخص ما امتازوا به وهو

الشعر . وماذا تقول في عصر ينبه فيه بشار وابو نواس
وابو العتاهية ومسلم بن الوليد ؟ فاذا ظهر بين هؤلاء
شاعر ينتمي للعرب فنسبه مغمور وعروبتة مطعون فيها .
فقد كان هذا الشذوذ اذن دخليلاً في الحياة العربية
لاسباب كثيرة اشرت الى بعضها ولا اطيل باستقصائها الان .
وأخص ما امتاز به هذا العصر هو هذا التحرر الذي
يتجاوز به اصحابه حدود الحرية المألوفة . فبشار مثلاً لم
يكن شاذاً كأبي نواس واصحابه ولكنه كان مستهتراً
بالعبث والمجون مغرقاً في شرب الخمر ووصفها مستخفاً
بالحرمان حتى خيفت منه الفتنة على النساء . وهو في
الاستهتار بالغزل المؤنث كأبي نواس واصحابه في الاستهتار
بالغزل الشاذ والمذكر كما كان القدماء يقولون .

ونتيجة هذا كله تقتضي ان نرد هذا الغلو في المجون
والاستهتار بالذات لا الى اسباب تتصل بأشخاص الشعراء
والماجنين المستهترين ، فهم لم ينفردوا بشيء من ذلك ، ولا الى
اسباب تتصل بالاختلاط والانفصال بين الجنسين بل الى
اسباب تتصل بالسياسة قبل كل شيء ، تتصل بهذه الحرية
التي اتاحت لامم سبقت العرب الى الحضارة والى الحضارة
المتروكة التي بلغت قبل انتصار العرب درجة من الضعف والتهاك
والانحطاط لم تعرفها في ايامها الاولى . فلما انتصر العرب
وفرضوا سلطانهم ونظامهم الديني الصارم على هذه الامم
المتحضرة التي ضعفت سياستها وادرك اخلاقها ونظمها

الاجتماعية الفساد والانحلال خضعت هذه الامم للسلطان الجديد واسرّت غيظها وبغضها واسرت مع الغيظ والبغض فساد اخلاقها وانحلال نظمها الاجتماعية . حتي اذا كانت الثورة العباسية وانتصر المغلوبون تحققت المساواة بينهم وبين الغالبين وانطوى العرب على انفسهم واستقر كثير منهم في الجزيرة العربية والامصار الاسلامية مغلوبين بعد ان كانوا غالبين ومقهورين بعد ان كانوا قاهرين ، أظهرت هذه الامم ما اسرت واعلنت ما اخفت وجهرت بما كانت تجمجم به ولا تكاد تبين عنه من بغض العرب والخروج على ما جاءوا به من نظام وسياسة ودين ايضاً .

وكذلك ظهرت الشعوبية وظهرت معها عقدها الكثيرة والتواءاتها المختلفة واستأنفت الامم المغلوبة حياتها تلك المنحلة التي مازجها الفساد . وهذا هو الذي يفسر شعوبية بشار ومعاصريه واستهتارهم بالخروج على النظام والانحراف عن الدين ، يجهرون بذلك ولا يخفونه ويتعرضون بذلك لسخط السلطان وبطشه ، ويفسر كل ما نراه عند ابي نواس وحماد عجرد ومطيع ومسلم والرقاشي وامثالهم من الشعراء والكتاب ومن الوزراء ورجال السياسة ، وقد احتاجت هذه الثورة الجاححة الى وقت غير قصير لتثوب الى شيء من الرشد وتؤوب من جموحها الذي جار بها عن القصد وتصير الى شيء من الاستقرار والالتئام والانسجام ، ان صح هذا التعبير - بين القديم والجديد او بين ما جاء به

العرب وما كان مخبوءاً في نفوس هذه الامم من الخير والشر جميعاً . وكان القرن الثالث او اكثره على الاقل هو العهد الذي تحقق فيه هذا الاستقرار .

مهما يكن من شيء فقد كان ابو نواس شاعراً كغيره من الشعراء الذين عاصروه اتيح له التفوق والامتيار فكاف به الناس وافتنوا في فهمه وتفسيره وحملوا عليه ما حملوه و اضافوا اليه ما اضافوا وجعلوا منه شخصية اشبه بشخصيات الاساطير منها بأي شيء آخر ، فليس شعر ابي نواس اشد خطراً على اخلاق الشباب اذن من شعر بشار او شعر مطيع لو اتيح لشعر بشار وشعر مطيع ان يحفظا وبشيءا كما حفظ شعر ابي نواس واشيع . وليس شذوذ ابي نواس بدعاً من شذوذ امثاله من المترفين في ذلك العصر وفي غيره من العصور . وينبغي ان يرد هذا الشذوذ الى الاسراف في الترف والى الاسباب الاجتماعية التي تأتي من ضعف الاخلاق وانهلال النظم اكثر من رده الى الاسباب التي تتصل بالافراد . ثم اصبح ابو نواس بعد ذلك خطراً على التفكير العالمي نفسه لهذه الاسباب التي اشرت اليها من جهة ولما بينته في حديث الاسبوع الماضي من جهة اخرى ولاننا بعد ذلك ألفنا ان ندرس الشعراء والادباء فنبحث عن اشخاصهم وربما الهانا ذلك عن ألوان اخرى من البحث هي اعظم خطراً من اشخاص الشعراء وهي ظروف البيئة التي يعيشون فيها .

فالشاعر أو الكاتب لا يستمد أدبه من شخصه وحده ،
ولو استطعت لقلت انه لا يستمد شخصيته من شخصه
وحده ، وانما يستمد اكثر فنه واكثر شخصيته من اشياء
اخرى ليس له حيلة فيها ، وليس لطبيعته ومزاجه وفرديته
فيها كل ما نظن من التأثير . واكاد اقول مع القائلين ان الفرد
نفسه ظاهرة اجتماعية ، فهو لم يأت من لا شيء وانما جاء من
أسرته اولاً ولم يكد يرى النور حتى تلقت الحياة الاجتماعية
فصورته في صورتها وصاغته على مثالها واخضعته لمؤثراتها التي
لا تحصى . فغنى الفردية فيه ضئيل لا يكاد يحس إلا أن
يمتاز هذا الفرد ، وامتيازه نفسه يرد في كثير من الاحيان
الى الحياة الاجتماعية التي انشأته .

كل هذا يظهر في وضوح وجلالة ان التفسير النفسي
لابي نواس وغير ابي نواس من القدماء الذين لم يبق لنا منهم
الا فنونهم فيه كثير من الشطط وهو الى الظن والفرض
اقرب منه الى اليقين والتحقيق .

وانظر مثلاً الى هذه القصة التي يرويها القدماء عن ابي
نواس حين جلس مع جماعة من اصحابه واخذوا في بعض
لهوهم ، فذكر اصحابه انحرافهم بهذا اللهو عن الدين واسرافهم
على انفسهم ، وابو نواس ساكت لا يقول شيئاً فلما سألوه
عن سكوته انشد هذين البيتين :

يا ناظراً في الدين ما الامر

لا قدر صحّ ولا جبر

ما صح عندي من جميع الذي
تذكر إلا الموت والقبر

فضاق أصحابه بهذا الشعر ولا موه عليه اشد اللوم واعنفه
وانذروه بالقطيعة فظهر الندم وقال :

اية نارٍ قدح القادح وأيّ جد بلغ المازح
لله در الشيب من واعظ وناصح لو قبل الناصح
يا بى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح
فاسمُ بعينيك الى نسوة مهورهن العمل الصالح
لا يجتلي الحوراء من خدرها الا امرؤ ميزانه راجح
من اتقى الله فداك الذي سيق اليه المتجر الرابع
شمر فما في الدين اغلوطة ورح لما انت له رائح
فاول شيء لاحظته في هذه القصة هذا الانتقال المفاجيء
بين هذين الفنين من الشعر . فابو نواس في البيتين الاولين يأس
من البعث والنشور لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ، لم
يصح عنده من امر الدين شيء بل لم يصح عنده من عاقبة
الحياة الا الموت والقبر . ثم هو في الابيات الاخرى مؤمن
بمعن في الايمان يلوم المتهاون في امر دينه ويحبب اليه
الطاعة والتقوى ، ويقطع بالثواب والعقاب ويذكر الجنة
والحور العين والطريق الى الظفر بنعيم الآخرة ثم يجزم في
البيت الاخير بأن الدين صحيح كله .

شمر فما في الدين اغلوطة

ورح لما انت له رائح

واكبر الظن ان الشعر صحيح قاله ابو نواس ولكن
القصة صنعت وتكلفها صانعوها تكلفاً ليظهروا ان مجون
ابي نواس كان يدفعه الى الشطط وانه كان يرجع الى
نفسه فيردها الى القصد والاعتدال ، واكبر ظني ان أبا
نواس قال البيتين الاولين في ساعة من ساعات لهوهِ وعشه
أو في ساعة من ساعات ضيقهِ وسأمه . وقال الابيات
الاخرى في ساعة من ساعات رجوعه الى نفسه وشعوره
بالحاجة الى شيء من الندم والتوبة والاعتذار .

وأكد اقطع بأن شعر أبي نواس كله انما كان شعراً
تمليه عليه حياته كما كان يحياها ، تضعف نفسه وتنقاد لأهوائه
فيلهو ويسرف في اللهو ويزينه لنفسه وللناس ثم يشوب
الى رشده ويكره من نفسه ضعفها وتقصيرها وقصورها عن
الجد فيندم ويبأس ويزين الندم والتوبة لنفسه وللناس .
وربما قال الشعر في المجون واللهو لمجرد الاستجابة للفن .
فاتقن ما اراد ان يقول وصدق الناس ما قال من ذلك .
ثم ربما قال الشعر في الزهد مستجيباً للفن ايضاً لا لنزعة
دينية خاصة ولا لرغبة في التوبة ولا لطمع في الثواب بل
لانه شاعر ليس غير .

وصدق الله العظيم حين وصف الشعراء بأنهم في كل
واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون . والعبرة التي
استخلصتها من شعر ابي نواس حين درسته ايام الشباب ،
وما زلت استخلصها منه الى الان هي ان شعر ابي

نواس ان صور شيئاً فإنما يصور استخفافاً بالحياة وسخطاً
عليها وجنوحاً الى التشاؤم يذهب بتشائمه مذهب الاستمتاع
بالحياة ما اتيسر له الاستمتاع لانها اهون عليه من ان يأخذها
على انها جد .

والناس يذهبون في التشاؤم كما تعلم مذهبين مذهب
الاستخفاف والاستهانة والاستعانة على الحياة بما فيها من
الطيبات ومذهب البغض والخوف والضيق والاستعانة
على الحياة بالزهد فيها والانصراف عنها والارتفاع عن
نقائصها . فابو نواس عندي متشائم ولكن تشائمه باسم وابو
العلاء متشائم ولكن تشائمه ، عابس او قل ابو نواس متشائم
يقيم تشائمه على الاستخفاف والعبث وابو العلاء متشائم
يقيم تشائمه على الجد والحذر ، وكلاهما يحيا الحياة كما ينبغي
ان يحياها الناس وكلاهما يسرف على نفسه وعلى الناس
في الهزل او في الجد وخير الامور أوساطها .

فهرست

٥	.	.	.	.	.	.	محنة الادب
١٤	.	.	.	.	.	.	مرآة الغريبة
٢٢	.	.	.	.	.	.	من مشكلات ادبنا الحديث
٤١	.	.	.	.	.	.	الادب والحياة
٥٦	.	.	.	.	.	.	الادب والحياة أيضاً
٧٢	.	.	.	.	.	.	صورة الادب
٩٠	.	.	.	.	.	.	يوناني فلا يقرأ
١٠٨	.	.	.	.	.	.	الحياة في سبيل الادب
١٢٨	.	.	.	.	.	.	أصدقاء
١٤٨	.	.	.	.	.	.	ادب الثورة وثورة الادب

١٦٥	•	•	•	•	•	•	الكنوز الضائعة
١٧٩	•	•	•	•	•	•	بين الفصحى والعامية ✓
١٩٥	•	•	•	•	•	•	مشكلة ✓
٢٠٦	•	•	•	•	•	•	التمثيل ✓
٢٢١	•	•	•	•	•	•	اسراف
٢٢٨	•	•	•	•	•	•	بؤس ابي نواس ✓
٢٤٥	•	•	•	•	•	•	جد ابي نواس ✓

١٣٤٦/٥٥/٠٠٠/٤٠٠

DATE DUE



801:H96KA:2

حسين، طه

خصام ونقد

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030174

Beirut



301
H96KA

General Library

